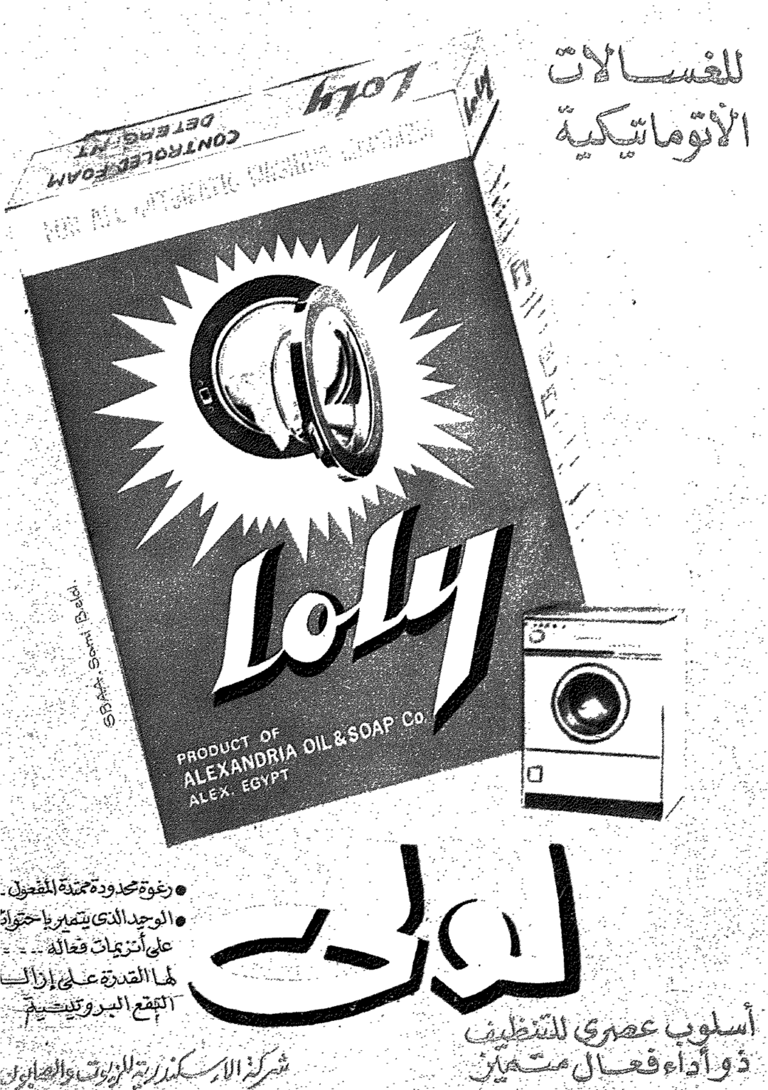
روايات الهلال

الوتد

خيري شلبي





للغسالات
الأتوماتيكية
CONTROLLED FOAM
DETERGENT
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX. EGYPT
SBAA. Sami Belal.
• رغوة محدودة محددة المفعول.
• الوحيد الذى يتميز باحتوا
على أنزيمات فعالة ...
لها القدرة على إزالـ
البقع البروتينية
أسلوب عصري للتنظيف
ذو أداء فعال متميز
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٩٧ مايو ١٩٩٠
شوال ١٤١٠ هـ
No . 497 MA 1990

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها، وفي بلاد اتحادى البريد العربي والافريقي والباكستان سبعة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى.

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية، وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب.

اسعار البيع للعدد فئة ٢٠٠ قرش : -

لبنان ٧٠٠ ليرة - الأردن ٦٠٠ فلس - الكويت ٥٠٠ فلس - العراق ٢ دينار - السعودية ٧ ريالات - البحرين ١٢٠٠ فلس - الدوحة ٨ ريالات - دبى ٨ دراهم - ابو ظبى ٨ دراهم - مسقط ٨٠٠ بيسه - المغرب ٢٠ درهما - غزة والضفة ١,٢٥ دولار - لندن ١,٥ جك - عدن ٢ دولار.

اشترك في روايات الهلال

الكويت: السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة - ص. ب رقم 13079٢١٨٣٣ - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من روايات الهلال.
اتصل بالتلكس 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

الغلاف بريشة الفنان :
بهجـــت عثمـــــــان

٤

أولنا ولد

بقلم

خيرى شلبى

●

دار الهلال

البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين . اما بعد فهذه امالى الحاج ((حسن ابو على)) ، ولدخالى ((عبد الباسط عواد)) ، الشهير بأبى ضب . املاها على فى بضع ليال ونحن جلوس على مصطبة من الحشيات الثمينة المبطنة بالفرو ، ومن خلفنا المساند القطيفة الملونة ، فى شرفة شقته المقامة فى الدور السابع فوق سطح عمارته المهيبة الواقفة كالعروس الحورية فوق اعلى قمة من جبل المقطم الأغر ، حيث يتربع ((حسن ابو على)) ولدخالى فى غاية من الاطمئنان بعد اذ لم يعد مطلوبا منه اى شىء على الاطلاق ، وبعد ان تغلغل فى كل شىء فى البلاد ، وبات حاكما بامره يخطب الجميع وده ويتملقونه ويمسحون له الجوخ فى كل مكان ، وبعد ان زهد فى كل شىء منذ ان توفرت له كافة السلطات ، ولم يعد يطلب من الله غير الستر ومغادرة هذه الحياة الفانية فى سر هادىء يمكنه من النظر فى امر الحياة الباقية ، تلك التى لم يعطها من قبل نظرا على الاطلاق الا فى اواخر ايامه .

القاهرة الكبرى تبدو امامنا كاطلال مدينة خرافية تهدمت ولم يبق منها سوى اورام كالحة فى النهار كئيبة فى الليل رغم بريق الاضواء المنبعث من خلال الهديم . وقد ضمن ولدخالى لأولاده كل شىء واطمأن الى ان مستقبل البلاد كله سيظل فى ايديهم لقرون طويلة من الزمن قادمة .

وكنت مشغوفا بالفرجة على التليفزيون الملون المفتوح دائما فى صدر البهو الكبير يعرض اذرعا وسيقانا وخصورا ورقصا وغناء وتهريجا ونواحا . ولكن ولدخالى كان يسخر منى دائما وينهانى عن الفرجة .

قلت له : ياولد الخال لماذا لا تتركنى اتفرج على ما فيه من افلام وتصاوير ؟

قال : ولماذا الأفلام والتصاوير ياولدى ؟ انا عندى لك من الأفلام والتصاوير ماهو احسن من هذه وانفع !

قلت له : ياولد الخال ولكن الحكاوى التى ستحكيها لى ليس فيها تصاوير اللحم الأبيض المخروط فى قوالب زبد وقشطة !

قال بعفوية دون أن يدرى : عندى من هذا اللحم اكثر ممـا يشتهى الخلق كلهم ! ستتشبع لحما وزبدا وقشطة !

ثم بان الغضب اللطيف على وجهه فجأة ، وبرق فى عينيه ذلك البريق اللاهب . ولو لم أكن أعرف طبع ولدخالى لظننت من هذه الغضبة الصامتة انه سيفتك بى لا محالة . نفس الخديعة التى يقع فيها كل من يرى هذه النظرة فى عينيه وهذه الشدة على وجهـه لأول مرة .

فوجهه مثلث الشكل منحوت يشبه مبخرة فخارية ، يشبـه الجوافاية المتقيحة الناشفة . عيناه ثقبان عميقان يندفع منهما بريق حاد كعمودين من الضوء مفتوحين على الشمس . فى عينيه الف قتيل وقتيل دفنهم ومشى فى جنازاتهم باكيا بحرقة بدهاء ملفوف فى براءة تصل الى حد البلاهة أحيانا . لا يستطيع مخلوق — مهما كان اريبا ذكيا ابن حرام — ان يفصل بين المجرم العتيد فى ولدخالى وبين بلاهة الصعيدى القحف . العشرة الطويلة وحدها هى التى تستطيع أن تريك الرجل الطيب فى ولدخالى . شيئا فشيئا سيقل رعبك من شخطته ذات الرنين الخشن القاسى ، ويخف انزعاجك من التواء الشر فى ملامحه ولهيب النار فى عينيه . ستتجاوز عن تشويحة ذراعه فى وجهك بيد واصابع سرحة وذراع تتبختر وسط فتحة كم عريضة . لن يغرنك طوله الشامخ حين ينتفض واقفـا ليؤنب فى غضب جريح او يصرخ فى رثاء الأدب والأخلاق والرجـال وأهل زمان .. لسوف تعرف أن هذه الفزعة الجبارة هى آخـر ما تبقى له من سلطاته القديمة التى نبذها غير آسف عليها ، وآخر ذبالة من ضوء سيادته التى اطفاها بنفسه زهدا واحتقارا منـه لشانها .

اشد حالات هياجه وعراكه ينهيها أذان الصلاة ، حيث يضطر هو الى الاستجابة الفورية بالرد على صوت المؤذن صائحا : الله اعظم والعزة لله .. ثم يصلح عمامته الصعيدية الصغيرة كأنهـا البرام الأبيض ، ويولى هامته العالية نحو المسجد رافعا حاجبيه عن نظرة ثاقبة تتلصص تتدبر تتوجس تخاف تتبجح تتجاسر كل ذلك فى لمحة عين واحدة . وتلك هى نظرة ولدخالى ((حسن عبد الباسط)) الشهير بأبى ضب ، نظرة تريد أن تخترق النفوس لتعـرف

ما بداخلها على وجه الدقة واليقين . فاذا راى كوب ماء فى يد احد ساعة الاذان انقضت يده عليه فرشف منه وتمضمض ثم واصل الاندفاع نحو المسجد . وعند خروجه من الصلاة يترك مسجد السلطان برقوق ويدخل المقهى الذى تعود ان يلتقى فيه بصحابه الحجاج عصر كل يوم ليدخنوا لهم ما يربو على خمسمائة حجر من الحشيش على قارعة الطريق ، وربما وجد من كانوا يتعاركون معه قبل الصلاة جالسين ، فاذا هو يجلس بينهم يبادلهم الحديث بود عميق كان شيئا لم يكن .

واما انا فلست استطيع بل لست املك ان ارفض لولدخالى طلبا . لقد كان هو الحافز الاكبر لابى وامى بان يربيانى على التعليم العلنى اعيد الى الوجود شهرة اخوالى الفقهاء . فالحقنى ابى بالكتاب فى بلدتنا ((كوم سعيد)) ، فحفظت القرآن وجودته ثم التحقت بالمعهد الدينى فى اسيوط ثم جئت اخيرا لاتعلم فى الازهر الشريف مثل رفاعه الطهطاوى ومحمد عبده وطه حسين واخوالى . وهكذا قدر لى ان انتقل من ((كوم سعيد)) بالغنايم قبلى الى الازهر الشريف طالب علم ، اسكن فى دار ولد خالى ولا غرو . وقد رحب بى ايما ترحيب ، فافرد لى شقة خاصة ارتع فيها وحدى كاولاد الباشوات ، وتكفل بمصاريفى وكسوتى حتى بات اهلى لا يعرفون عنى اى شىء وان راونى فقد لا يعرفوننى من فرط ما طرا على من نعيم مقيم ؛ يكفى اننى اذهب الى الازهر كل يوم فى سيارته المرسيدس وسائقه يوصلنى بحقيبة الكتب حتى محل الدرس ، ويعود ليحملنى الى الدار ، اقصد القصر المنيف .

ولقد بات ولد خالى يجد لذة عظمى فى توجيهى والاشراف على واستحثاثى على الجد والاجتهاد باخلاص عميق لا اظنه يتوفر فى ابى نفسه . ثم اننى درست ولدخالى عجنته وخبزته . عرفت عنه الكثير مما تقشعر منه الابدان لكننى مع ذلك احببته . وكلما ضقت به وباشرافه وثرثرته تذكرت ان الواقع دائما فى صفه . والغريب اننى كلما دققت فى الاستماع اليه وجدت حكما خطيرة وجنيت فوائد جمة لا تحصى . بصراحة وجدته على حق ، اذ اطلت المكوث امام الشاشة الملونة فاصابنى التكرار بالكآبة والرغبات السفلية ، ونظرت فى كتب الدراسة فما وجدت الا علوما تتقعر فى الفراغ بعيدا عن مجريات الحياة ، علوم هذه الكتب كلها تسير فى واد وتسير حياتنا فى واد آخر ، وليس ثمة من صلة بينهما على الاطلاق فكل يمضى

فى فلكه بعيدا عن الاخر ، والناس فى بلادنا يتخرجون فى الجامعات والمعاهد والاكاديميات ليصبحوا فى النهاية مجرد موظفين ينفق عليهم امثال ولدخالى . وقد تبين لى خلال سنوات التحـــاقى بالتعليم العالى واحتكاكى بالقاهرة أم الاعاجيب امثال ولدخالى ((حســـن ابوعلى)) ، ان امثال ولد خالى هؤلاء هم دائما وجـوه المجتمــع الحقيقيين بل هم اصلابه اصحاب راس ماله وعمائره الســـكنية ومحلاته التجارية الكبرى واعضاء مجلس شعبه وتاجرو مخدراته. امثال ولد خالى ((حسن ابوعلى)) هؤلاء هم الفائزون على الدوام ، وليس يصيبنا من التعليم سوى النفقات والعناء الشـــديدين . ولا اظن ان احدا يمارى فى ان مجتمعنا لا يطلب منك شروطا على الاطلاق لكى تصبح احد اثريائه فى شهور قليلة ، او احـد ملوكه او رؤسائه فى قفزة واحدة يصبح من حقك ان تتحـــدى كل شىء وتحصل على كل شىء وتشترى بنقودك بنفوذك بقوتك ما تشـــاء وتهوى .

لكل هذا فانا استمع ـ وادون ـ كل حكاوى ولد خالى ((حسن ابوعلى)) ، التى طقت فى مخه فجاة فطلع فى دماغه ان يمليها على كصفحات من بطولاته الخارقة . وقد املاها على فى اســـتمتاع شديد ، ودونتها فى استمتاع اشد . ولم اضبطه متلبسا بالكذب فى كلمة واحدة ، حتى لقد اعطانى درسا فى الصفاء والتجردوالجراة على الاعتراف والمكاشفة بما يشيب له الولدان . لقد ادلى بشهادته كاملة غير منقوصة لما راى ان الجميع فى هذه الايام يهتمون بكتـــابة شهاداتهم ، كل من هب ودب يتطوع بالادلاء بشهادته .. فاراد ولد خالى ان يلقنهم درسا فى نوع الشهادات التى يجب ان تكتب اليوم ، فاذا هو يكشف عن الجانب الدقيق المخفى من حياتنـــا المتعفنة فيعترف بكل مدهش ومثير ، واذا هى شهادة جديرة بان يحملها ضمير الامة كما قال .

وبعد فليس لى اى فضل سوى تسطير اماليه هذه على الورق، لعل من يهمهم معرفة جوهر الحقيقة ـ كما قـــال ـ ان يفتحوا اعينهم ذات يوم . فاذا كانوا قد ظلوا طول عمرهم يقراون شهادات المثقفين ، فلعله قد آن الأوان لان يستمعوا الى شهادات العامة من افواه المواطنين ، او كما قال ((طبق الاصل)) .

الفاتحة

الله لا يعيدها من أيام . الفقر وحش ياولدى واكل العيش مر ، والبطن لا ترحم . وهى ليست بطنا واحدة ، خذ عندك أمى ، وأربع بنات كبار ، وطفل ، وانا . كان لنا اب شد عن اخوته أهل العلم والفقهنة . اتذكر ملامحه كنت اشاهدها الخالق الناطق على وجوه اعمامى الفقهاء المحترمين ، واتعجب : كيف يصير هؤلاء محترمين هكذا ؟ وابى على باب الله يعيش على ذراعه يشتغل يوما ويتبطل عشرة ، حتى ليمشى يعرض الخدمة على الناس يتطوع بالمساعدة دون أن يدعوه أحد ، أحيانا دون لزوم . انت وغيرك تتصور أن المسألة مجرد شهامة من رجل يبدو محترما غير أجير ، فتكتفى برفع ذراعك فى الهواء بالشكر والتحية مثلما تشكر أعيان الناس بينما تعطيه ظهرك متكلا على الله . واقعتك سوداء لو فعلتها ربما مشى خلفك فى هدوء شديد ليجذبك من أى مكان فى متناول يده الغليظة الخشنة ، ذراعك أو خناقك أو رقبتك نفسها لا يهم : تعال هنا .. حمار أنا يعنى اشتغل لله من غير أجر ؟! حتى الحمار يعلفونه وينفقون عليه ! ..

الكل ياولدى كان يتقى شره ، يتركونه يساعدهم راغمين . لم تكن المصادمات تحدث بينه وبين احد الا أيام السوق ، حيث ينخدع فى شكله الغرباء ، يرون فى وجهه صلاح أعمامى وطيبة قلوبهم ورجولتهم ، بعدها هو وبخته ، حسب نوع الناس الذين يرمى بجثته عليهم ، مع أنه أزرق الناب ، عليه رحمة الله كان يعرف الناس من أقفيتهم ، ومنها يتوسم فيهم الخير أو كلاحة الوجه . العبد منا ليس معصوما من الخطأ ، ويرحمه الله كان يضرب فى قلب السوق ينظر حواليه وعينه لائذة بكل شىء ، يرى جماعة ينزلون اجولة الحبوب عن الركائب يعدون القرش ، يراهم فى حاجة حقيقية لمساعدته لكنه يعطيهم ظهره وينصرف ، ليساعد بائع العجوة فى نصب خيمته وأعداد موازينه وبعدها يقف يتلكأ فيفهم البائع هذه الاشارة يطبق يده على الواحد بأربعة أو القرش على سبيل الهدية أو الحسنة التى يسره أن يقبلها ذلك الرجل الطيب المحترم

لعله يكون بركة ، اما تجار الحبوب فانهم كانوا سيسخرونه فى تفريغ وتكييل وتحميل طول نهار السوق وفى النهاية لن يأخذ ســوى القرشين ! ..

اتممت فى الشهر الفائت اربعة وخمسين حولاً بالتمام والكمال ومازلت اذكر أيام كان يتركنى اشبط فى ذيله فامضى معه يوم السوق كله ، كان يعرق بحق ، يصعب علي ، من فرش الى فرش يحمل يعتق يفرغ يجر العربات يتعارك فى اليوم مائة عركة ، فى كل عركة يضرب وينضرب حتى يقع مغشيا عليه وولد خالك يصرخ لله مايغيثه من كثرة الخوف على أبى الذى اراه يموت أمام عينى فى اليوم الواحد عشرين ثلاثين مرة على الأقل ! اتعجب فى كل عركة كيف كان يستطيع النهوض بعدها متجها الى فرش آخر يبحث فيه عن مســاعدة يقدمها لأصحابه ، ان لم تكن موجودة اختلقها ، لربما فوجئت به يكنس أمام دكانك ويرش ، مما يجعلك تنتبه الى أنك بالفعل كنت محتاجا لمن يكنس لك المكان ويرشه ليصير نظيفا هكذا ، أو تراه قد تسلل الى فرشك وراح يرتب أجولته وموازينه من الفوضى التى احدثتها معاينات الزبائن وفركشاتهم للبضائع ، مما يجعلك تنتبه الى انك بالفعل كنت محتاجا لمن يقوم لك بهذه المهمـــة ، ولربما فوجئت به واقفا أمامك ماثلا رهن الاشارة فى أن تكلفه بشىء أو تطلب منه طلبا أو تأمره بأمر ، ومن هنا كانت تكثر خناقاته ياولدى ، وكان رأس ولدخالك الصغير أيامها لا يمكن أن يخطر له أن أبى هــو الذى يسعى الى العركة سعيا . كنت أستعيذ بالله ويذب الرعب فى كلما بدأ صوته يعلو فى الكلام وترتعش شفتاه وتبرق عيناه ، أروح أقول لنفسي ياسابل الستر استر يارب ، رمشة عين والأخـرى تكون الخناقة قامت والضربة دوت على وجــه أبى ، تتبعهـــــا الشلاليت والبونيات وأبى يفلفص بين جمع من الناس يلتم عليــه لجاة ليخلصه ولكن بمزيد من الضرب ، بعدها يقف بعيدا ويأخــذ فى الصياح والاحتجاج على ضربه وهو ابن الناس الطيبين واخوة له فقهاء مشهورون ، فيتحرج الذين ضربوه ، يبعثون له من يصالحه، يراضيه بقرش يزيد عما كان سيأخذه بدون عراك ! ..

ولدخالك لم يعد يخاف . فهمت أن أبى يفعل ذلك من أجــل زيادة الرزق قرشا أو قرشين . فى يوم السوق لابد أن تطبخ كافة الدور ، الدار التى لا يتصاعد منها الدخان ليلة السوق هى دار اليتامى ، ولابد أن يوقد الكانون فى دارنا ويرسل دخانه ولهذا كان

ابى ـ بعد كل هذه البهدلة والضرب المميت ـ يبدأ فى الابتسام منذ انصرافه من أمام « سيبة » الجزار ، حيث يكون قد تأكد من ان اللحم صار أخيرا فى يديه تنام اللفة الورقية الحمراء التخينة المبقعة بالدم على صدره وهو يركض مترنحا ذات اليمين وذات اليسار كالسكران النشوان يلقى السلام على الناس بكل ود ، فيردون عليه بكل احترام للورقة النائمة على صدره يقولون : تفضل ياأبوعواد ، فيقول : عشت عشت ، وتزداد الابتسامة نورا على وجهه كلما اقترب من حارتنا ، فاذا يبدأ فى دخول حارتنا يأخذ شكل الرجل المحترم يبدو بالفعل نسخة من وقار أعمامى الفقهاء فى مشيتهم لا فرق سوى الجبة والقفطان والعمامة والعصا . ولم أكن أعرف لماذا يفعل هذا فى هذه الحارة بالذات مع اننى أعرف ان اناسا كثيرين من أهل حارتنا هذه شاهدوه فى السوق وهو ينضرب بالصرمة القديمة ، هم ايضا كانوا يردون عليه السلام بكل احترام قائلين : تفضل ياأبوعواد ، فيقول : عشت عشت ، ويدلف الى دارنا ، من خلفه أنا ، متفاخرا ، محشو الجيوب بالعجوة والبرتقال واليوسفندى والفول السودانى . ينشرح وجه أمى وأخوتى من منظر الورقة . أمى تسمي بالله قبل أن تفتحها ، تقلب فيها قائلة لأبى وهى تشوح بيدها فى وجهه بحب : انشا الله ما اشتهيك ، تذهب الى الكانون المشتعل تكاد تزغرد من الفرح . أنسى فى الحال كل ما أصابنى من بكاء وصراخ ونكد ، أوزع على اخوتى وأمى وابى كل واحد بلحة عجوة وفص برتقال . يكون ريقنا قد بدأ يجرى والفرح يعمنا كلما طلعت رائحة اللحم المسلوق من تحت غطاء الحلة مع الدخان ..

خالك ، يرحمه الله ، اشتغل فى اشغال كثيرة . الشغلة الوحيدة التى كنا نحبها ونتمنى لو دامت هى شغلة الخفارة ، حيث خفرنا ماكينة مياه كبيرة كانت لرجل من الأعيان طيب القلب مثل حالاتك وحالاتى ، كان له ثلاثمائة فدان تسهر عليها ماكينة المياه ونحن وابى نسهر عليها وعلى الأرض طول الليل . اقمنا دارا لنا بجوار الماكينة واقمنا فيها ، فبقيت دارنا تقطع المسافة بين البلدة والجبل ، الى الجبل كانت اقرب ، وكل العصابات التى تختبىء فى مغارات داخل الجبل كانوا أصحاب والدى وكانوا يستريحون عندنا اثناء تسللهم من الجبل ليلا الى البلد أو تسللهم من البلد الى الجبل . «على السايح» نفسه ، الذى هرب من السجن والقيد الحديدى فى

يديه ، كان يستريح عندنا ، ولقد سحرنى هذا الرجل مثلما سحرنى الجبل ، هو الوحيد الذى بهرنى بعد الجبل واوقف شعر راسى من الرعب والحب لهؤلاء الذين يدوخون البر كله يحتضنهم هـذا الجبل المهيب المخيف المليء بالمغارات ..

اتعرفون كيف هرب « على السايح » ؟ تراك أنت وجيلك لم تسمع به . وهل رأيتم أنتم شيئا ؟ انكم جيل الفقر والحـروب وعسكر الاحتلال واحتلال العسكر ، فمن أين تجيئكم المرجـلة عدم المؤاخذة ؟ من السمن الهولندى والقمح الأمريكي المدفوع فيه شرفكم ؟ أم من الفراخ الفاسدة ولحوم الكلاب المفرومة التى يوردها عبد الحى وعبد الميت ؟! أم من الماء العكر المختلط بماء المجـارى والهواء المختلط بعادم المكن والمواقد ؟! أم من ضرب المعسكر فيكم ومن تحكم النذل الخسيس فى الأصيل الجدع ؟! عليه العوض ومنه العوض فيكم ياولدى ! فى هذه البلاد شيء كبير غلط لا أحد يدرى ما هو لكننى أقول أنه ندرة الرجال ! .

« على السايح » كان محكوما عليه فى اربع تأبيدات كلها اعتداء على الحكومة وقتل اعيان من رجالها ، مع ان الحكـومة هى التى كانت تبدأ دائما بالعدوان ، وهل هناك من يتعدى على الحكومة من الباب للطاق ؟ . الناس تعتدى على الناس ، وهيهات ان تجيء الحكومة فى الوقت المناسب ، الميت يبقى فى مكانه ثلاثة أيام ربمـا عشرة فى انتظار تشريف وكيل النيابة الى أن تتعفن جثته ولايستطيع مخلوق أن يقترب منها . وحتى لو جاءت النيابة فماذا ستفعل ؟ محاضر واقوال ؟ طبيب شرعى يبيع التقارير بتسـعيرة كبيرة ؟! وحقوق تضيعها المحاكم بين قضاة يعوجون الطربوش على ناحيـة ويحكمون بأربع وعشر ومؤبد وهم لا يعرفون أصل الحكاية من فصلها ولا ظالم من مظلوم ؟! ومحامون متكلمون يختلقون الأوراق ويولدون الكلام كلاما ومخارج وأوهاما تصفى دم الغلابة ؟! ..

ياولدى الناس طول عمرها تعرف أن الحكومة لا ترد لأحـد حقوقه ولا تقتص من احد لصالح أحد ! انها لا تدخـل الا لفض المعارك والفتك بالجميع . ولهذا تعودنا فى الصعيد أننجنب الحكومة، فما تبدأ معركة الا وتكون أول خطوة فيها هى قطع أسلاك التليفون حتى لا تاخذ الحكومة علما ، لكى تتسع الفرصة لأن ياخذ الناس حقوقهم بايديهم يابوى ، يقتصون لانفسهم بانفسهم يابوى ، أمال يابوى ! اتظنون أنفسكم رجالا ؟! ..

« على السايح» يرحمه الله كان يتعارك عراكا بريئا مع نفر من

عائلته : ازدادت المعركة اشتعالا بعض آلشيء ، تطوع ابناء الحـلال فسافروا الى بلدة مجاورة لبلدتنا وأبلغوا الحكـومة من تليفون عمدتها ، فهبطت علينا العسكر والهجانة من كل مكان واشـتغل الضرب فينا عمال على بطال . دخلوا دورنا يابوى كمـا كان يفعل الفرنساوية والمغول الذين يحكون عنهم فى الراديو والتليفـزيون ساعات . صاروا يمزقون الثياب عن النساء بحجة انهن ربما يكن رجالا من الهاربين متنكرين ، ويفتحون حواصل المعيشة فيدلقون السمن والعسل واللبن على الأرض يدهسونه بالأحـذية الميرى ، وبأقدام الخيل وحوافر الجمال وعجلات البوكس فورد يدهسـون بطون الحوامل والأطفال والعجائز . فمن يرى هذا يابوى ولا يغلى دمه ؟! ..

كنت طفلا صغيرا أيامها وكان ذلك حوالى سنة الف وتسعماية وخمسين أو قبلها بسنوات قليلة ، ولازلت حتى هذه اللحظة أسمع الصراخ والصويت آلساكن فى أذنى من يومها . بعينى هاتين — قادر أن يخرسنى او كذبت — شاهدت اندفاع عسكر الحكومة بالمدافع الرشاشة يحصدون كل من فى طريقهم ، ضرب عميـانى . الدار المجاورة لدار «على السايح » ليس لها دعوى بأى شىء ، لـكن العسكر أخذوا يصوبون نحوها مدافعهم ويضربون . خرج لهـم من شباكيها فتى وفتاة من عائلة « آلجناينة » ، الفتى اسـمه « جنة » وعمره حوالى سبعة عشر ربيعا ، والفتاة اسمها « جنينة » وعمرها حوالى خمسة وعشرين عاما . أخذ كل منهما يدافع عن داره وأهله مطلقا رصاص المدفع الرشاش على العسكر والهجانة فقتلوا منهم جملة ، وكلما وقع منهم واحد زغردت الأم فى آلداخل ، الى أن اندفعت رصاصة من مدفع أحد الهجانة فى رأس الفتى « جنة » ، كانت عنيفة حتى انها نترته من الشباك وألقت به خارج الدار فى الارض ، فما كان من أخته « جنينة » الا أن نزلت من الشباك ولفت من الحوش لتفتح باب الشارع كى تجىء بجثةأخيها . وكانالعسكرى الهجان الذى ضرب أخاها قد نزل عن جمله وجاء نحو الفتى ليأخذ منه مدفعه الذى كان لا يزال يحتضنه ، فعاجلته الفتاة « جنينة » مفرغة فيه كل حشو خزنة مدفعها ، وجرجرته حتى عتبة الدار ، وبحد الفأس قطعت رأسه وذراعيه وقدميه وصارت تفتت لحمه كأنه الردم !! ..

كل هذا و « على السايح » طائح فى الهجانة والعسكر بفرسه

ومدفعه الرشاش وسيفه وخنجره ونبوته حتى قتل منهم جملة واصاب مجملهم اصابات خطيرة ، وحين فوجئنا بمجيء الجيش المصرى بعرباته المصفحة ومدافعه وخيوله ليخمد المعركة وجدها قد اخمدت تماما ولم يبق منها سوى « على السايح » وحده ، الذى صعب عليه أن يهرب والجبل على بعد رمحتين بالفرس الأشهب وجثث أهله وجيرانه وأصهاره مرمية على الأرض فى كل ناحية ..

تسلمته الحكومة وحده فخرج مكبلاً بالحديد فى يديه وقدميه ولكن تشيعه الزغاريد ! التى طغت على صوات الثكالى وجعير اليتامى ! ..

رحلوه الى النيابة ثم محكمة جنايات اسيوط فحكمت عليه بالتأبيدة الرابعة ، فقط ، لأن محاميه « عبد الفتاح باشا الطويل » اثبت انه عند اشتعال المعركة كان هو مقبلاً من عند أخواله فى نجع مجاور لبلدة « أولاد الياس » وانه وصل بعد انتهاء المعركة ولهذا لم يشارك فيها ولو شارك لكان أمامه متسع للهرب كما انه ليس لدى الحكومة شهود لا من رجالها ولا من أهل البلدة لأن الجميع كانوا قد ماتوا فى المعركة وعددهم جميعا حوالى مائة وستين فردا من الطرفين حكومة واهالى ! ..

عند انتقال « على السايح » من المحكمة الى السجن تكفل بنقله اربعة عساكر أشداء وضعوه فى « البوكس فورد » مقيداً بالحديد من يديه وقدميه . وفيما « البوكس فورد » يمتطى الطريق الزراعى اشار « على السايح » نحو نجع أخواله وهمس فى آذانهم بجدية وصدق كبيرين ــ (الله يرحمه كان مهيبا) ــ قائلا انه يدفن فى هذه الناحية الفى جنيه فى الأرض ، وهو الآن ذاهب الى السجن المؤبد وخسارة طبعا أن تأكل الأرض هذا المبلغ ، حرام ، ليكن لهم الف وله الف يصرفه فى سجنه اذا هم مروا به على هذا المكان حيث يشير لهم من قعدته هذه على موضع النقود فيفتحون بانفسهم ويستخرجونها . صنف عسكر الشرطة أدنياء وان تظاهروا بالعفة الشديدة بل هم كذلك لأنهم كذلك .. وهكذا بدا عليهم انهم استحسنوا الفكرة ووافقوا عليها ، فالف جنيه على أربعتهم ليست مبلغا بسيطا بالنسبة للقحط الذى يعيش فيه خدم الميرى ومن يتمرغون فى ترابه . أعلنوا موافقتهم بجسارة خاصة انهم مسلحون وهو أعزل مقيد فضلا عن انه بعيد عن بلده واعوانه . وبعد أن انحرف « البوكس فورد » عن الطريق والتحم بالمنعطف الواصل

الى الغنيمة همس لهم « على السايح » بأن منظر « البوكس فورد » سوف يلفت النظر ويثير الشبهة فيلتم الناس ويعطلونهم عن كشف الدفينة وربما ادعى البعض انه صاحبها ! واقترح عليهم أن يركنوا « البوكس فورد » فى دروة آمنة فى سفح الطريق ثم يركبوا سيارة اجرة على حسابه توصلهم الى مكان الدفينة ثم تعود بهم الى مركز « البوكس فورد » بعد انتهاء مهمتهم ..

ركب هو بجوار السائق ليرشده على الطريق . سائق الأجرة عرفه فى الحال وسلم عليه لكنه قفل ملامح وجهه اثر غمزة قوية من أصابع « على السايح » . المقصود ، ظلت السيارة الاجرة ترمح بين الحقول فى طرق ضيقة حتى توقفت امام دار تفطس ـ وحيدة ـ وسط قطيع من النخيل والجزورين والكافور وتحدها من جميع الجهات مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية التى هى ملك أخوال « على السايح » وهذه دارهم . خرج منها ثلاث رجال يهتز من وقع خطوهم المهيب جبين الارض لتقول هزاته لهؤلاء الذين نزلوا من السيارة الاجرة ان اخضعوا فانتم أمام أسياد هذه الأرض، لكل منهم شارب يؤكد لك أن العيب كل العيب يكون عليه لو لم يصدق صاحبه فى كلامه ، وعصا من الشوم تؤكد لك أن الويل ملاقيك لا محالة ان أبديت لحاجة أو غباوة ، ووجه بشوش باسم عن سعة يؤكد لك انك بالكرم الغزير موعود ، وانك ، بحسن التصرف واللباقة ـ من ها هنا ـ مولود ! ..

وهكذا فوجىء العسكر الأربعة أنهم قد أحيطوا بالكرم والاحترام على أكمل وجه . غداء سريع شهى أعقبه شاى ثقيل . وقبل الغداء بقليل استأذن « على السايح » من أخواله فى فأس فجىء له به فاصطحب اثنين من العسكر ومضى بهما خلف الدار مسافة طويلة حيث توقف عند بقعة معينة طلب الفحت فيها ففحت العسكريان حتى عثرا على الدفينة بالفعل ملفوفة فى قماط من جلد حذاء قديم ، فلما عاد ورأى العسكريان الآخران البشاشة والرضا فى عينى زميليهما شملهم الاطمئنان وجلسوا للغداء فى قليل من التردد والترقب ، لكن كوبة الشاى الثقيلة تكفلت بعدل أدمغتهم على الصهللة الزاعقة والانشراح المجلجل بروقان الأفيون المزروع خلفهم مباشرة على مساحات لا يحدها البصر ، لهذا سمحوا لعلى السايح ـ عن اريحية وطيب خاطر ـ ان يدخل ليسلم على زوجة خاله خلف باب الدار مباشرة ..

زوجة خاله كانت فى انتظاره داخل حوش الدار الواسع البعيد . بالفاس الصغيرة كسرت اقفال قيوده ، سلمته الحصان والمدفع الرشاش وصاحت فيه : انطلق . فاندفع من الباب الخلفى لا ينظر خلفه قاصدا الجبل ، ولو رفع العسكر رءوسهم وتلفتوا حولهم لرأوا فارسا متكورا فوق حصان يشق الريح مندفعا نحو ركن بعيد من السماء ، لكن العسكر لم يرفعوا رءوسهم لأن مخدر الأفيون القوى الذى شربوه مذابا فى الشاى بكمية كبيرة كسر رقابهم فارتمت رءوسهم على صدورهم كرءوس العصافير الذبيحة فلم يشعروا بأنفسهم الا وسائق الأجرة يجر جثثهم واحدا وراء الآخر عند « البوكس فورد » ويتركهم واقفين متهدلين يتطوحون ، لينطلق هو الى سبيله مثيرا سحب الغبار خلفه ..

ان حلفت لك بالله العظيم اننى جلست مع « على السايح » هذا تقول عنى كذابا . الوكيل ربنا ، لقد ربت بيديه على راسى وكتفى فيما هو يستريح فى دارنا مع رجاله . كانت أمى تخبز عيشا ليكفينا جمعة بحالها فيأكل رجاله الخبزة كلها وتضطر أمى للخبيز ثانية من صبيحة ربنا وهى فى غاية الانبساط لأن الذى أكل خبزتها هو « على السايح » ورجاله . غير أن سعادة أمى كانت تجىء من ناحية اخرى ، اذ كانت تعرف أن « على السايح » يتلكأ فى الطريق حتى يغمق ستر الليل ليذهب الى داره كى يجامع زوجته ويستحم ويغير ثيابه ليعود الى الجبل ، وكانت تعرف أن رجاله البالغ عددهم عشرين والذين يأكل بعضهم خبزتها الان سوف يحوطونه طول الطريق وأن هناك مثلهم أكثر منهم عددا يتراشقون بالأرض فى طول الطريق من الجبل الى الدار يؤمنون له الطريق يصنعون من أنفسهم ستارا فوق ستار الليل ولا يبدأون فى مغادرة مواقعهم الا بعد أن يروه مارا عليهم فى طريق العودة ! ..

العمدة كان ابن عم « على السايح » وكان ينوب عنه فى رعاية مصالحه فى غيبته . فى يوم من الايام ذهب أولاد « على السايح » الى عمهم العمده يطلبون قمحا لغذائهم ، فقال لهم فى جفاء :

ــ هل خلفتكم ونسيتكم ؟ روحوا لأبيكم !

ذهب الأولاد الى أبيهم فى الجبل فقالوا له نص الكلام ، فحمل « على » رشاشه ونزل من الجبل الى دار ابن عمه فرآه واقفا بالصدفة فى فتحة الباب ، فصوب نحوه المدفع الرشاش وضرب ، فاسرع العمدة باغلاق الباب ولكن الضرب استمر فاذا بقفل الباب

ينخلع من .. مكانه ويدخل فى صدرالعمدة، مع ذلك تمكن العمدة من شد التليفون للمديرية ، فلحق به العسكر وهو خارج من البلدة فى طريق الجبل بين رهط من أعوانه ، هجموا عليه فراح يبادلهم اطلاق الرصاص حتى كومهم جميعا ماعدا اثنين حاصراه من الخلف وصوبا عليه حتى جعلا جسده كالغربال ! ..

بموته تسوح أبى ، خاف من الخفارة ، أصيب بالتعنية والرطوبة ، جاءه والعياذ بالله « فكر » فى راسه جفف عوده وكسر شوكته ، فاشتغل مع عمال الكهرباء فى معسكر ستة وعشرين الانجليزى ، فلم يمض حول واحد حتى وقع عليه المقص الكبير الذى يركبون من فوقه المواسير ، فمات فى الحال . مات يابوى وتركنا ياحسرة لا وراءنا ولا قدامنا .

الله واحد
أمي هي المبتدأ والخبر

شهور طويلة ونحن جوعى ، اى والله يابوى ان قلت لك ثلاثة شهور تقول كذابا . الحق انها كانت ستة ، بمائتى ليلة ويوم الا عشرين ، الذى نبيت فيه نصبح فيه . كل فتلة خيط كل قطعة خشب كل شىء فى حوزتنا يصلح للبيع بعناه بغدوة بعشوة نحزم البطون بعدها أياما وليال ..

تقول أعمامى الفقهاء ؟ لقد فعلوا الواجب طبعا كتر خيرهم ، اكلنا على حسابهم أياما ، واكتسينا من ثيابهم مرات ، لكنهم هم انفسهم كانوا محتاجين للمساعدة . كلنا على باب الله العبد وسيده معا ، لم يكن بقى منهم سوى عم واحد ضرير ، بعد أن كانت صينية الشاى والقهوة تمر على ضيوفه أكثر من مرة أصبح لا يقدم لهم حتى جرعة ماء ، بل كان يتركهم يجلسون كيفما أتفق ، بل كان ينتظر منهم غمزة يد دافئة بالحسنة عند انصرافهم وكان يوحى لهم بحركات يديه أن يفعلوها فاذا فعلوها بحسن نية غضب واهتاج هياجا عاصفا ينتهى بأن يعطيهم درسا فى احترام العلم ومن يحملونه ! فالعلم رسالة سماوية وليس هو الا مكلفا بها والاجر على الله يقبضه منه سبحانه عاجلا أو آجلا وكلما تاجل الأجر عند الله زادت قيمته!! نفس الكلام الذى كان يقوله للعامة أيام كان الخير يجرى فى يديه ! ..

المقصود ، تكومنا فى الدار لا يعرف بلوانا الا ذو الخيمة الزرقاء التى تظلل كل عباده . امراة خالك ياولدى قلبها سخن دائما ، ودماغها ناشف لا يستطيع الزمن كسره ولو كان حديدا .. تذهب تساعد بعض الجارات فى بعض الأشغال ، فى الخبيز لقاء بضعة أرغفة ، فى الطحين لقاء حفنة من الدقيق ، فى الذبح والطبخ لقاء طبق من الطعام ، كله ينفع ، ولكن لوقته فحسب ، فما العمل يابوى ؟ .. البنات عندنا لا تشتغل ، نموت جوعا ولا نعرضهن للبهدلة ساعة واحدة عند الناس . أخى الوحيد طفل رضيع ياكبدى . الدور والباقى كله على انا ، هذا ما كنت أقوله لنفسى وأنا أتكور على نفسى منحشرا فى القاعة بين اخوتى ..

اثنا عشر عاما كان عمرى وقتها ، طويلا كنت كما ترى والبس

فوق راسى لبدة مقصوعة للوراء وابدو رجلا لاينقصنى من صفات الرجال شيء لكى اشتغل مثلهم واشقى مثلهم ، ولكن فيم اشقى واتعب ؟ لقد كان أبى رحمه الله يملك القوة ويلف يبحث عمن يستأجرها لقاء سيجارة . ها انذا ـ ايضا ـ املك الشباب ولا أعرف كيف أملأ بطنى وحدها فمن ياترى يملأ هذه البطون التى ضمرت فينا وسحبت البصر والضوء من عيوننا ؟! ..

امراة خالك تدفعنى فى كتفى قائلة فى غيظ : انزاح ، وليس من مكان انزاح اليه ، لكننى أعرف سر غضبها فأقول : حاضر ، ثم أهب واقفا ، فأراها تشوح فى وجهى قائلة : الا تتحرك ياولد ؟ الا تفعل ما يفعله الرجال ؟! ماتفيدنا حشرتك الآن بيننا ؟! يا اخى اسرح على باب الله فكل الرجال يسرحون كل يوم ويعودون بخير كثير ! اسمع ياولد ! ارض النصارى قريبة من هنا وفيها زرع كثير ! اذهب اليها وهات منها شيئا نأكله ! انها مزروعة قمحا ! خذ القفة واملأها عن آخرها بالسبلات وتعال ! واحذر ان يراك أحد وانت تفعل هذا ! لا يهم أن يراك وانت مقبل بها المهم الا يراك وانت تسرق ! فاتكل على الله ياجدع ! اتكل على الله ! »

هل اغشك ؟ اتكلت على الله ، حملت القفة وخرجت ، قصدت بلدة « أبو حجر » القريبة من بلدتنا قرب الأنف من الفم ، كل أهلها من النصارى ، وزرعهم واسع ، لا تحده حدود ، يستأجرون الأنفار للزراعة ولديهم ماكينات المياه تروى. الخفراء معدودون لايستطيعون حصر هذه المساحات الشاسعة فى عين حتى ولو كانت بنظارة معظمة . اخترت منطقة مقطوعة منزوية عن الطريق ، اخذت احصد السبلات واعبىء القفة حتى ملأتها لتمها ، خرمت عائدا الى دارنا، أفرغت القفة فصنعت كومة كبيرة شكلها مفرح . قالت أمى مشيرة الى القفة املأها مرة أخرى . قلت : حاضر ياأم ، وانطلقت متابطا القفة ، ومن منطقة أخرى ملأتها وعدت ، فلما أفرغتها استدرت من الفرح عائدا لاملأ القفة مرة ثالثة . بعد المرة الرابعة صار لدينا حصيدا يصلح طحينا لخبز عائلة ، مع ذلك قالت أمى : اذهب مرة خامسة . وكنت قد تعبت ، فقلت لها : كفى ياأم . فجعلت تتحايل على وتقبلنى وتستحلفنى برحمة أبى وانا أقول من الضيق : كفى ياأم . لكن الذى طلع عليها هو مرة خامسة . فقلت:أمرى لله ، وحملت القفة وخرجت . الدار المجاورة لنا مباشرة لدى أهلها كلبة شرسة مخيفة ولذا يغلقون عليها باب الدار باستمرار ولا احد

يستطيع دخول الدار الا ان أمسك أحد أهلها بالكلبة من جنزيرها .
لحظة خرجت من باب الدار وضعتنى الخطوة الثانية أمـــام بيت الجيران الذى كان مفتوح الباب فى هذه أللحظة . ما أدرى الاوالكلبة قد هجمت على بالفعل واطبقت اسنانها على يدى اليسرى واخذت تجرجرنى وانا اصرخ حتى خلصونى منها بالعافية وخـرجت أمى تلطم وجهها قائلة : أنا السبب ! أنا السبب ! آه من فراغة العين ! ..
ولم تقل امى ان السبب هو الحرام الذى شـــجعتنى اليوم على ارتكابه ! ..

رقدت بهذه العضة شهرين كاملين يابوى لا حقنة ولا برشامة ولا اى شىء سوى البصلة فوقها حتى طابت ولكن آثارها لا تزال فى يدى مخلفة عاهة مستديمة ..

طاب الجرح لكن جرحا فى داخل النفس لم يطب ، خـرجت الى الحقول من جديد أطلب الرزق فى غلس الظلام والقى به فى حجر امى أقول لها : كلى ياأم انت واخوتى فالمهم عندى رضاءك ياأم .
لكن امى بدأت تخاف على ، وأنا أيضا بدأت أخـــاف على نفسى صحيح ان ربك يكرمنى ويعيدنى الى أمى واخوتى سالما ولكن ما كل مرة تسلم الجرة على راى عمى الفقيه الضرير ..

فى يوم كنت أرتب لسرقة مخزن غلال فى داير الناحية بجواره مندرة حولها صاحبها لقعدة تبيع الشاى والسكر والدخان والحلاوة الطحينية والخيط والابر ، يجلس فيها الرجال يشتركون فى زردة شاى ثقيلة ، الواحد بقرش تعريفة ، لكن لا يجلس فى هذه القعـدة يابوى الا من لديه قرش تعريفة ، القرش لا يوجد الا فى حنك سبع ممن عندهم أراض أو من قطاع الطرق ..

عيل مثل حالاتى لو جلس معهم يخدمهم طول القعدة اذا نابته شفطة شاى من الدور الثالث تبقى بركة . هدفى لم يكن شفطة الشاى هذه ، ولا قعدة الرجال ، انما كنت أتسقط أخبار المخزن من صاحبه الذى يجلس فى هذه القعدة على الدوام ، كنت اريد ان أعرف ان كان نقبى سيجىء على شونة تبن أم على بضاعة ثمينة يمكن بيعهـا او اكلها ، ولقد عرفت ان فى المخزن الكثير يابوى واننى ســآكل الحلوى والشهد لو وفقنى الله ، والمسالة بسيطة ، فهذه القعـدة جزء من مندرة بقطوع مبنى ، وبقية المندرة هى المخزن ، وبينه وبين القعدة باب خشبى لو دقرت فيه كتفى دقرة واحدة لانفتح ، حينئذ ادخل فأحمل تليسا من القمح او البرسيم ، التليس كما تعـرف

زكيبة مصنوعة من صوف الماعز تسع ثماني كيلات ، وكل الناس عندها تلاليس ، وليس يعرف أحد تليسه من تليس الآخر ، سأحمله واخرج من باب هذه القاعة المطلة على الشارع بعد فتحه من الداخل حيث أنني لو نزعت الشناكل الداخلية لاتسعت الفجوة بين لسان القفل وبيته فى ضلفة الباب ، فينفتح الباب ، مهمتى اذن هى أن ابقى جالسا هكذا حتى نهاية السهرة واتسلل قبل الاغلاق لأنام بين الاجولة فى ظل التلاليس داخل المخزن ، فيغلقون الباب على وينصرفون ، وقبل أذان الفجر بقليل أفعل فعلتى ، ومن يدرى؟ ربما تمكنت من العودة الى المخزن مرتين أو ثلاثا قبل أن ينتبه أحد لأى شىء ! ..

تذكرت يابوى أن الرجل صاحب المخزن مسيحى ، وكل مسيحى فى بلاد الصعيد لابد له من « بدوى » يحميه ، حتى لو كان المسيحى رجلا ابهة من ذوى الأملاك الواسعة و « البدوى » جربوع شحاذ حافى القدمين . طلعت على الدنيا وأنا أرى هذا النظام فى كل بلد من بلادنا ، وكنت أحلم أن أكون ذات يوم « بدويا » لواحد من المسيحيين الأغنياء ، فهو العمل الوحيد الذى ليس عليك أن تتعلمه ، يكفى أن تكون ولدا بلطجيا قتال قتلى ولك سمعة واسعة فى السفالة وقلة الأدب أو فى الشهامة والجدعنة والرجولة ، ففى الحالتين ستجد من يسعى اليك لتكون بدويه يطعمك ويكسيك ويعطيك مصروف يد وجعلا معينا من المحاصيل ، وليس المطلوب منك أن تفعل يابوى ، يكفى أن يعرف الناس انك بدوى فلان الفلانى لكى يتجنبوه ويتركوه فى حاله ، أو يكون المتدون أقوى منك فيفعلوا ما يشاءون تحديا لك وللمسيحى الذى يتحامى بك ! . المسيحيون عضمة زرقاء يابوى فبهذه الطريقة امتنعت خناقاتهم مع الناس المسلمين من أهالى البلد ! الخناقات تحدث بسببهم فحسب ولكن بين المسلمين وبعضهم فحينما تكون انت بدويا لأحد المسيحيين وأجىء انا فاسرق داره أو زرعه أو ماشيته أو اتعرض له فى الطريق بأى سوء فان هذا لن يخلصك بالطبع وسوف تشعر أن العدوان موجه اليك وحدك ولسوف تنتقم منى شر انتقام ما فى ذلك شك خصوصا عندنا فى الصعيد ! ..

دورت فى دماغى فعرفت أن « بدوى » هذا الرجل صاحب المخزن هو أغرب رجل فى « كوم سعيد » بل فى الغنايم كلها : عم « عسران زهران » الذى لا شغلة له ولا مشغلة ، هو فى طول عرق

الخشب يابوى ، وفى تخن تليس ملآن ، يقول الكبار والعجائز عنه ان عدد قتلاه فى عدد شعر راسه الغزير المهوش تحت تلفيعة جرباء حيث لا لبدة ولا طاقية تستطيع أن تلمه تحتها ، غير انه اهتدى فى أواخر أيامه منذ أن اختاره المعلم « ميخايل بطرس » بدويا له ، اذ بسطه وخصص له جلبابين فى العام واحدة للصيف واخرى للشتاء كما خصص له دخان سجائر يشربه وتلاليس قمح وذرة يأكلها هو وامه وشقيقته العاجزة . شغلته طول النهار أن يجلس تحت قرص الشمس يفلى ثيابه من القمل والبق والبراغيث المختبئة فى خياطة الثياب ورقعها . عم « عسرأن زهران » هو تسلية كل عيال البلدة ، يجيئون له من أقصاها الى أقصاها ليتفرجوا على .. ايره !!

اى نعم يابوى ، فقد كان لعم « عسرأن زهران » أير عجيب مبروم كنخلة صغيرة وكان عم « عسران » يضطر للمشى مفرشحا

يظل عم « عسران زهران » مرميا على الأرض وأيره مرمى بجواره طول النهار عاطلين ، ذلك ان عم « عسران زهران » لم يتزوج قط ، لأن فتاة من فتيات ألبلدة لم ترض به يابوى . جرب حظه فى بلاد اخرى ، لكن دخلته على الناس فى دورهم على هذا المنظر كانت تثير فزع الرجال وتذهب عقول السيدات ، ليس بمعقول ان يرضى به رجل زوجا لابنته ، فخير للرجل أن يظل هذا الأير العجيب خبرا يتناقله الناس من أن يكون حقيقة قريبة منه يمكن لحريمه رؤيته فى اى لحظة ، أن أى رجل يابوى لابد أن يخجل من ايره اذا رأى اير عم « عسرأن زهرأن » ولهذا طارده الرجال فى كل زيجة حاولها حتى عقدوا نفسيته ، فيربت عليه بحنان شديد قائلا : « معلهش لك رب يسمى الكريم ! » ، وتبدو الدموع فى عينيه حقيقة تكاد تطفر !.. اى والله يا بوى قادر ربنا يخرسنى لو كنت اكذب !.

كنا نتذكر يابوى أن نصف قتلاه من النساء فوجىء الناس بجثثهن مرمية على الطرقات وفى الحقول عاريات ممزقات ، فنرتعد وتكاد نقع من طولنا . نتذكر أيضا أن عم « عسران زهرأن » اشتغل فى كامب الانجليز سنوات طويلة بايره ، لم يكن يعمل اى عمل ، انما عليه أن يجلس فى مكان ما فى الكامب معريا ساقيه ليظهر ايره منجعصا ، وكانوا ــ يسألونه اسئلة كثيرة ويجاوب عليها ويأخذ نقودا فى نهاية الأمر . تلك كانت احسن ايامه أشدها رواجا ولا يزال

الناس يتكلمون عنها على اية حال فإن عم « عسران زهران » كان دائما ينهى كلامه بانه أحسن من كافح الانجليز وحاربهم وتكل بهم اذ هو لم يقتلهم فحسب بل هزأ برجولتهم .

عم « عسران زهران » يابوى ليس له فى الخناق ولا العـراك رغم ضخامة جسمه ، كل الناس فى الغنايم قبلى يعــرف أن عم « عسران زهران » اقوى مافيه ايره رغم انه لم يستفد منـه فى الناحية التى خلق لها اصلا . والمعلم « ميخاييل بطرس » حـين اختاره بدويا له كان ذلك لخوف من ايره : أن يفكر عم « عسران » فى استخدامه ضده خاصة أن المعلم« ميخاييل» واسع الذرية معظمها فتيات يقلن لستنا « مريم » العذراء قومى لنقعد مطرحك ليس المعلم « ميخاييل بطرس » وحده من كان يعمل حسابا لاير عم « عسران زهران » ، انما البلدة كلها والبلاد المجاورة كانت تخشاه ، ليس لعدم ثقتهم جميعا فى حريمهم بل لعدم ثقتهم فى انفسهم ، فلو أراد عم « عسران زهران » أن يكيدهم مر الكيد فانه ـ فقط ـ يمشى مشوارا فى شارع داير الناحية وما يتفرع عنها من حارات ، يمشى فتراه وهو مقبل حيث يفوص الهواء بجلبابه بين ساقيه مجسدا ساقه الثالثة المبتورة عند الركبتين فيصيبك بالجنون ان كنت شابا حرا ، لسوف يكون اول شعور يدهمك لحظتها ان هذا الفحل الجاموس جاء يتحدى أنوثة حريمكم وذكورة رجالكم على السواء !..

صدقنى يابوى أن بعضهم فكر فى قتله ، لكن اغلبية كبيرة اقنعت الجميع ان قتلهخسارة ! فهو شيء يستحقالفرجة ولكن فىمكان منعزل .

صراحة يابوى كنت معجبا بهذا العم « عسران زهران » اعجابا شديدا . كان ثانى رجل بعد « على السايح » يخلب لبى ويستولى على كل جوارحى وخيالى ، الأول لأنه قاوم الحكومة وقتلهـــا ، والثانى لأنه قاوم الانجليز بايره . ولكن لما تذكرت أنه البــدوى الخاص بالمعلم « ميخاييل بطرس » صاحب هذا المخزن خفت منه ، اذ هو لابد أن يعرف يابوى ، لأن « عسران زهران » يســـهر فى قعدته بين المخزن ودارنا ، يعنى لابد أن أمر عليه من هنا ومن هاهنا ذاهبا أو آيبا ، وهو رجل عكروت وضرس ، لو كان فى عز الشخير ومر بجواره من يحمل شيئا اى شيء فانه يصحو فى الحال وينظر فيه ، ولابد ان يعرف من هو وما الذى يحمله ومن اى مكان هـو قادم والى اى مكان هو ذاهب ، وان كان غريبـــا عرفه فى التـو

واستوقفه بشخطة واحدة . ويسالون عم « عسران زهران » كيف يتاتى له الصحو المفاجىء عند مرور من يحمل شيئا ؟! فاذا هـو يقول : اعرفه من وقع خطواته على الأرض ! فمن يحمل شـيئا تكون خطواته اثقل ودبها على الأرض اشد وقعا وصوتها اكثـر رنينا فى اذنى التى اضعها فوق الأرض بدون مخدة ! .. فكيف انجو من هذا الرجل يابوى اذا وفقنى الله وسرقت المخزن ؟! هل اقتله وهو نائم ؟! لا اريد ، بل لا استطيع ! ..

دماغى اخذ يذهب ويجىء يابوى ، واذا برجل قادم من عنـد دوار العمدة يقول انه سمع الراديو يقول ان الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان تنازل عن العرش لولى عهده « أحمد فؤاد » الطفل وان الجيش المصرى حكم عليه بمغادرة البلاد قبل الساعة السادسة وان هذا الكلام فات عليه أكثر من جمعة ونحن لا نعرف يابوى . بقينا اياما طويلة نجرى على الراديو فلا نسمع الا غنوة : « ع الدوار ع الدوار .. راديو بلدنا فيه اخبار » ..

واخيرا وصلت الأخبار يابوى ، عرفتها ممن يفهمـون كلام الراديو . اخبار مفرحة يابوى وفيها أشياء لا يصدقها المرء ، حيث ان البلد انقلبت جمهورية وجاء العصر الذى ينفع الفقراء ، لم يعد هناك باشا ولا بك ولا اقطاع ، فلما سألتهم : « اقطاع يعنى ايه يابلدينا ؟ » قالوا لى : يعنى أرض النصارى وأمثالهم من المسلمين ولسوف توزع على الفلاحين الذين يزرعونها !! وقالوا كذلك ان التعليم صار بالمجان وان كل الناس مثل بعضهم أمام مراكز البوليس والمحاكم والحكومة !! قلت يا اسيادنا قولوا كلاما غير هذا يصدقه المرء ! قالوا : كنت بهيما وآذن الله ان تصبح آدميا فافهم يابجم . القصد انى بقيت شهورا طويلة لا اصدق هذا ، فى كل يوم أزداد جراة فى الهجوم على الحقول وزرائب المواشى وقطعان الغنم فلا أجد من يردنى ، بل كان يصادفنى من يرانى عائدا بالسرقة مضـطرب الخطوات مبعثر النظر فلا يهتم بى . قد ينظرلى نظرة ذات معنى ثم يحول وجهه عنى ويمضى فى حال سبيله ..

وسمعت ان ملاك الاراضى يوزعون اراضيهم على أولادهم وأقاربهم كتابة على الورق فحسب حتى لا يزيد ما يملكه الفرد عن مائة فدان. قلت : حلو . ثم لاحظت ان اولاد الاغنياء والباشوات والبكـوات انكسرت شوكتهم والتوت وجوههم وهجر الابتسام شفاههم فقلت: يظهر ان كلام الناس صحيح وان الله قد اذن بقيام العدل فى هـذه

الدنيا على أيدى هؤلاء الذين يسمونهم بالثورة .
الى أن جاء يوم رأيت فيه بعض الخدم يصـــمون آذانهم عن نداءات أسيادهم ! وبعض الفلاحين يتبجحون فى مواليهم ! وبعـض الغلابة يرفعون وجوههم وربما السنتهم فى وجه عسكرى البوليس بعد أن كانوا يلمعون له أزرار سترته ! وبعض التلاميذ الفقـــراء يتعاركون بجرأة مع أولاد الذوات ويشتمونهم ببساطة ! .. فقلت فى نفسى : الأمر اذن صحيح ياولد . ومن يومها شعرت أن الدنيــا قد اتسعت أمامى والدار التى نسكنها بغير سقف صارت قصرا . صرت افعل مثلما يفعل الخلق من امثالى ، اتباهى بأننى فلاح ابن فلاح وأننى صعيدى ، أليس عبد الناصر كله من بلدتنا ؟ ..
الذى جاء فى دماغى أيامها اننى يجب أن اسافر الى مصر ، ولم اكن اعرف يابوى أن اسمها القاهرة ، لكننى منذ جعلت اهتم بسماع الراديو كلما تواجدت بجواره ، كنت اسمع المذيع وليس فى فمه سوى كلمة : هنا القاهرة ! هنا القاهرة !هنا القاهرة ! . قلت وماالقاهرة هذه ياجدعان ؟ قالوا انها مصر يابهيم ! التى فيها سيدنا الحسين والهرم والسيدة زينب والامام الشافعى والأزهر الشريف ! . صحت قائلا : الذى تخرج فيه اعمامى واخذوا شهادة العالمية ؟ قالوا : نعم. قلت : والله لأسافرن . قالوا : تسافر أنت الى مصر ياحسن ياولد حميدة ؟! قلت : أعمامى من قبلى سافروها . قال « برعى » ولد الفرطوس : مصر لو راتك انزاحت عن مكانها ورحلت . وقال« هادى» ولد « مخيمر العيان » : والله لتفرق . فضحكوا حتى فرجوا على الخلق . قلت لنفسى أ وهل هذه مشكلة ؟ وتركتهم وانصرفت ، ولكن صوت المذيع بقى فى اذنى ليل نهار يصيح فى تفاخر كبير : هنا القاهرة ! فاكاد أضع ذيل جلبابى بين اسنانى واقلع عليها .. لكن ذلك أخذ منى وقتا ، ذيل جلبابى موضوع بين أسنانى على الدوام وكنا فى موسم القطن ، اهجم على مفارش الجمع فادحرج زكيبة الى مخبأ آمن ثم احملها وانطلق : او املأ حجرى مرات عديدة . اكرمنى الله وحوشت مايزيد عن قنطارين وفى احدى الليالى جئت بتــاجر من بلدة بعيدة عاين القطن واشتراه بمبلغ حلو اغرانى بشراء محفظة بسلسلة مشبوكة فى عروة الصديرى ، فرحت بها أعظم الفرح وقلت لها : ان شاء الله تظلين عامرة ، وقلت لنفسى : شىء ممتع أن يكون فى جيب الواحد محفظة والأمتع أن يكون فى المحفظة نقود ، وكل الناس فى جيوبهم محافظ ولكن ما كل المحافظ فيها نقود ، انمــا

النقود فى أكياس التجار ، ومفروطة فى جيوب ملاك الأطيان ، ومكومة فى خزائن تحت الأرض ! ..

جاءنى الهاتف أن لى لقمة عيش مقسومة فى مصر القاهـــرة التى فيها الثورة والجيش وفيها الخير كله والنعيم كله . دخلت على امى قلت لها : كم يكفيك ياام الى ان يخبز الله لى عيشا فى مصر ؟ قالت : يكفينا ما يرزقك الله به قل او كثر . اخرجت المحفظة فمدت امى كفهـا وسحبت زغـرودة افـزعتنى وفـرحتنى . أخـرجت من المحفظة جنيها مددته نحوها واثقا انها سترقص فرحا به وحده معتبرة انه فضل وعدل. نظرت فى عينيها فرايت هذا فسحبت الجنيه الاخر وشرعته نحوها : مالوش تانى . قالت باســمة : الجنيه ؟ قلت ضاحكا : بل الله ياوليه . ورحت أعد حتى خمسة : كفى هـذا ياام ؟ . بسطت ذراعيها رافعة كفيها نحو السماء صائحة : ان شاالله ما اشتهيك ! الاهى يكتب لك فى كل خطوة سلامة ياحسن يا ابن بطنى ! الاهى ما نشمت فيك عدو ولا حبيب ! الاهى يرزقك برزق اليتامى ويوقف لك ولاد الحلال ! خد من قلبى وصر ! ..

شعرت يابوى كأن بدنى كله يرتعش ودمى يفور صاعدا نحو السماء براسى . اخوتى البنات تحلقن حولى صرن ينظرن لى فى فرح وبهجة وفى عيونهن رغم ذلك حزن كبير يابوى . أخى الرضيع يتسلق اكتافى يهبشنى بأصابعه الطرية ذات الرائحة اللبنية الحلوة فأخذت اقبله فى فمه فصار يعضعض فى انفى بضراضيره فشعرت كأننى الأب وهم جميعا ابنائى ففاضت الدموع من عينى فمسحتها ضــاحكا بصوت عال وقلت لأمى : خذى ياأم ! ليس خسارة فيك ولا فى اخــوتى ! .. صرت أعد حتى اكملت العشرة جنيهــات ، وتركت المحفظة تتدلى من سلسلتها كرأس ذبيحة ذليلة ، ورفعت ذراعى وقلت لها ما كنت اسمعه دائما من عمى الأكبر الشيخ « عجلان » : اليد العليا خير من اليد السفلى ياأم ! هذا كل ما معى من نقــود وهى لك ، لقد رزقك الله بها وكنت أنا مجرد وسيط وهاأنذا قد سلمت الأمانة وما عليك الآن ياأم سوى أن تعطينى أجرة الســكة الحديد لاتوكل على الله من غد الى مصر ان أحيانا المولى الكــريم واعطانا عمرا . فتحت امى فمها وصارت تفكر ومن فرحتها لم تدر ما تقول . وكانت اختى الكبرى « سلمى » جالسة ناسية نفســها فبان جزء كبير من وركها فرفعت عينى عنها منتفضا فسقط بصرى على جذعها الممتد وصدرها العريض الممتلىء فوقف بداخلى مارد من

الخوف . نظرت برغمى الى اختى الثانية « مندوهة » فرايتهـــا هى الأخرى عروسا تكاد تتفوق على « سلمى » والى الثـــالثة « سعدية » فرايتها تملأ القلل واقفة وتميل بالكوز لتغرفه من الزير فتبدو وكأنها تشاغب خراط البنات الخبيث الذى يشكل مؤخرتها فى كل ميلة باستدارة جديدة وينحت خصرها فى كل استدارة بسحبة تفرق المسافة بين خصرها وصدرها النافر ويطيل من رقبتها السرحة المبرومة ويدهن وجهها البيضاوى كما ندهن وجـه الفطير بالزبد والقشدة ويوسع من عينيها السوداوين تحت العصبة المشـغولة بالفل والترتر . وبحثت عن أختى الرابعة « هندية » فوجدتهـــا قابعة قرب الباب منهمكة فى صنع عرائس الطين . وكانت الدموع تريد أن تضغط على عينى يابوى ، لكن ولدخالك ســيد من يكتم الدموع . اعتدلت أختى الكبيرة « سلمى » وقالت لأمى : اعطه خمس جنيهات بحالها ياأم ! فسوف يتغرب وليس له من سند غير الله والقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود وليس اسود من أيام الغربة ياأم ! وقالت أختى « مندوهة » بصوتها الناعم الدافع الى البكاء باستمرار دون أن يبكى : ليس خسارة فيه ياأم ! انه الرجل وهو الذى يأتى بها . وقالت أختى « سعدية » بصوتها الرجولى الجميل ومن بين شفتيها الغليظتين : ربنا يخليه ! لسنا نطلب من الله غير صحته ونفسه فى الدنيا . أما أختى « هندية » فقد استدارت نحونا عائدة تمسح يديها فى ثوبها ووجهها كله عبارة عن بسمة لاهية كأن شيئا لا يدور حولها ولكن فى عينيها بريق الانتظار لأى خدمة نطلبها . .

يومها أكلنا ذكرا من الأوز المزغط من شهر مضى . ومن صبيحة ربنا صررت هدومى كلها فى جعبة من الورق مكتوب على وجههـــا شاى زوزو ولها مساكة من الطرفين من خيط مبروم ملون يمر خلال كبسولات ، كنت قد اشتريتها من مولد القنائى بقرشين من خمسة وعشرين قرشا نشلتها من فلاح شارد ذاهل داخل الملاهى . غمزتنى أمى بجنيهين مطويين اربع طيات وقالت لى : ربنا معاك ياولدى ، ثم احتضنتنى وقبلتنى . قالت اخت « سلمى » وهى تدارى الدموع فى عينيها وتتمخط فى ذيل جلبابها : خل بالك من نفسك يا خوى ! لا تختلط بأولاد الحرام وأهل السوء ! فقلت لهـــا : كله على الله ياأختى ، ثم احتضنتها وقبلتها . وقالت أختى « ســعدية » : بالسلامة ياخوى ترجع لنا غانما ثم احتضنتنى وقبلتنى . وقالت أختى « مندوهة » وهى تعتقل صوتها وكلامها خوف الانفراط فى

البكاء : مع السلامة ياخوى ، واغمضت عينيها وتركتنى اقبلهـــا على جبينها . وحملت أختى « هندية » جعبة المخلقات وقالت وهى لا تزال تبتسم : سابقاك على المحطة ياخوى . فنزعت الجعبة من يديها قائلا : والله ما يكون ابدا ! ان محطة السكة الحديد بعيـدة فى بلدة اخرى ولست آمن عليك الرجوع وحدك ، ثم احتضـــنتها وقبلتها ، ووليت وجهى نحو الباب وخرجت ، وبقيت عينـــاى مسلطتين على الهواء فى الطريق لا ترمشـــان خوف انهمار الدمع ، لكننى كلما صادفت احدا فى الطريق رفعت ذراعى بالتحية دون ان انظر اليه صائحا : اشوف وشك بخير ، فيقول لى : مع الســلامة ربنا وياك .

القيت نفسي على كرسي القطار بجوار الشباك وجعبة الهــدوم على ركبتى ، فلما صفر القطار وزحف ، وزحفت الى الوراء كل معالم البلدة انهمر الدمع غصبا عنى ، فأغمضت عينى وتركته يسح كيف يشاء ، حتى نمت ، وكلما فتحت عينى ورايت الأرض واعمدة التليفون والشجر يتراجع خلفى دخت وغطست فى النوم من جديد حتى صحانى واحد من الصعايدة قائلا اننا صرنا فى باب الحديد . قلت وما باب الحديد هذا ياولد بلدى ؟ قال : بوابة الدخــول الى مصر من المحطة . قلت : هل وصلنا اذن الى مصر ؟ قال : حمـــد الله على السلامة . صحت قائلا من فرحى : هنا القاهرة. ضحك كل من فى عربة القطار وراحوا يتساقطون على الرصيف ويدفعوننى بينهم وسط زئيط هائل وأرصفة عديدة وسقف من الحديد والجملون وكمسارية وشيالين وباعة جرائد وفول سودانى وحلويات وشاى وكازوزة وماسحى احذية وزيطة وزنبليطة . فلما صرت فى الخلاء كانت يدى قد امسكت بالورقة المكتوب فيها اسم رجــل بلدياتى يعمل مقاولا للأنفار هاهنا ومقر عمله جبل المقطم .

ما لـــــه من ثـــان
الأولة - مقابلة شخصية مع الدنيا

دلنى أولاد الحلال على جبل المقطم ولكن احدا لم يســـتطع ان يدلنى على بلدياتى . غير أننى وانا اسأل عنه بين المعلمين عثرت على بلديات آخرين كثيرين ، منهم رجل من بلدة « أولاد الياس » شغلته تكسير الجبل بالديناميت . قال‌لى : « تريد تشتغل ؟ » . قلت : « نعم » . قال : « كم تطلب اجرا ؟ » . قلت : « لا أعرف». قال : « أعطيك عشرة قروش بحالها » . قلت : « تشكر » . قال : « تعرف هذه الشغلة ؟ » قلت : « أتعلم » . قال : « شغلتك معى أن تحمل قطع الحجارة فى قفة وتنقلها الى بعيد ! » . قلت : « ماشى! ربنا يعيننى ! » ..

دوں فالثانى فالثالث فالرابع عشر ، جاءت الظهيرة وتدلدل لسانى من العطش ، وصرت أجرجر قدمى وأتألم من ورم يبقبق على سطح دماغى ، والرجل ينظر لى ضاحكا . هات يدك ياولد عمتى ، تحسس هذه البقعة فى راسى ، هذه ، ضع أصبعك مكان اصبعى هذا فوق قمة راسى بالضبط ، فما هذا الذى تلمســـه يدك ؟ انها دمامل متجمدة فوق راسى اليس كذلك ؟! انها من أثر الشيل فى يوم واحد هو ذلك اليوم الذى انهيته بالضالين ، ورحت أشرب جرعة ماء من عند رجل آخر مجاور ، شغلته نفس شـــغلة صاحبنا . قال لى : انت منين ياشاطر ؟ قلت : من الغنايم ياآبا . قال : احسن ناس ! تجيش تشتغل عندى ؟ قلت : وهذا الرجـــل الذى اشتغل عنده ؟ قال : لا يهمك منه ! ســــأعطيك اثنى عشر قرشا فى اليوم ولن تحمل دبشا ! ستمسك لى الفتيل أثناء ما اشتغل . قلت : ان كنت تحمينى من الرجل الآخر اهلا وسهلا . قال : خليها على الله . المقصود ، نمت فى محجره ذلك المساء ، فى الصباح اشتغلت معه ، يوم يومان جمعة شهر أربعة أشهر ، أرى بين يدى مائة وخمسين قرشا أرقص من الفرح أجرى الى مكتب البريد أرسل المبلغ لأمى ..

غير أن الرجل تملعن يابوى وساق اللؤم على ، بدأ يشـــيلنى قفف الدبش هو الآخر حتى انعجنت راسى . الرجل كان يســـكن فى حى اسطبل عنتر بجوار دار السلام على خط المعادى من الطريق

الزراعى ، وقد احس انني انوى التملص منه فاراد أن يستبقيني بصنعة لطافة ، قال لى : اليس لديك نية فى السكن ياولدى ؟ قلت : لدى . قال : تسكن فى اسطبل عنتر ؟ قلت : اسكن فى أبى زيد الهلالى نفسه . قال : اليوم تذهب معى الى البيت ..

فى حارة تبعد عن الحارة التى يسكن فيها بحوالى خمس حوارى فرجنى على عشة مدفونة بين صف من العشش مليئة بالخروم والشروخ ايجارها خمسون قرشا فى الشهر ، قلت : بركة ورثى ، ونقلت اليها جعبة هدومى ، وفى الصبح اشتريت حصيرا ومخدة وبطانية جيش قديمة وقلت لنفسي هاأنت ذا قد أصبحت ذا بيت فى مدينة الحسين والأزهر والسيدة ..

كل يوم افوت على عربة من عربات الفول « اشمط » ثلاثة اربع ارغفة مع طبق الفول أبو زيت حار وحزمتى البصل فيخيل لى أننى قد صرت ابازيد الهلالى سلامة ، وأتكل على الله صاعدا الجبل لاتقابل مع الشمس فى فتحة المحجر . وفى طريقى كل يوم أمر على الكورنيش لكى اتفرج عليه فأرى السماكين فى مصر القديمة يفرشون بأسماكهم صانعين سوقا كبيرة منظرها يفرحنى .وكانواكلهم يبيعون : وكنت فى الاساس افكر فى شراء سمك آكله ، لكننى صرت أدمن الفرجة ولا اشترى ابدا ، الى ان وقفت ذات صبيحة أتفرج على رجل وهو ينقل زنبيل السمك الى عربة نقل وكان يحمل وحده : فلما رآنى قال : بأيدك معاية والنبى يابلدينا . فشمرت ثوبى وحملت معه الزنبيل ، ثم ساعدته فى غيره وغيره حتى انبسط منى وقال لى : تشتغل معى ؟ قلت : تعطينى كم ؟ قال : أعطيك ريالا فى اليوم، قلت : قليل . قال خمسة وعشرين قرشا ولا مليم بعدها . قلت : على بركة الله . قال : فاركب . فركبت بجوار السائق وانطلقت بنا السيارة الى المعادى ، حيث يوجد لهذا الرجل محل كبير يبيت فيه الأسماك ..

لص أنا قيراط ، أما هو فاربعة وعشرين قيراطا فى اللصوصية أى والله ياخال . تعلمت منه الكفت ياخال . مهمتى كانت الجلوس أمام حوض السمك الذى يشبه قاربا من الالمونيوم ، اتبصص على الزبائن وهم ينتقون الاسماك ويضعونها فى القراطيس قبل الذهاب الى الميزان الذى يقف المعلم قصاده . وكنت أظن أن واجبى نهر الزبائن ومنعهم حين اراهم ينتقون السمكات الصاحية كلها فى قراطيسهم ، حيث أصيح فيهم قائلا : ومن الذى سيشترى هذا

السمك الصغير بعد نقاضته البيع عندنا كله فى رقاب بعضه الكبير يزن الصغير . فبعض الزبائن يصيح فى محتجا ، وبعضهم لا يسال فى وينتهز فرصة الصياح فيملأ قرطاسه باطيب ما فى الحوض من سمك ، فاصرخ فيه منبها اننى لست نائما على عينى ، واقف مسرعا فآخذ القرطاس منه وادلقه فى الحوض . حاجات طريفة ومسلية كانت تعجبنى فأفعلها بلذة كبيرة . هنا يشخط المعلم فى ـ لزوم الصنعة واتقان المعلمة ـ يأمرنى بأن اترك كل واحد ينتقى على كيفه ، صحيح اننا سنبيع السمك المتبقى بالخسارة ولكن الزبائن فى النهاية هم زبائننا والمحل محلهم ! ..

شيئا فشيئا بدأت أغفل عن الزبائن وانتبه اليه هو ، أراه ينتقى للزبون بنفسه ما يختاره الزبون ، ويأخذ القرطاس ويستدير معطيا لنا ظهره العريض واضعا القرطاس على الميزان ، فاذا به رغم امتلائه يحتاج لسمكة صغيرة حتى يكتمل الرطل ، أو معها اخرى كبيرة مغرية ليصير الوزن رطلين ونصفا فى حين ان الزبون طلب رطلين فقط ، لكنه أكراما للسمكة الكبيرة يقبل الزيادة . يعطينى المعلم القرطاس لأضع عليه ورقة أخرى وأطوى عليه حوافيه أنظر فى القرطاس فلا أجد السمكات الكبيرات الكثيرات التى رأيت الزبون يحشرها فى القرطاس حشرا ، فاتمخول ، ويروح مخى يضرب يقلب .

المعلم لم يجد مفرا من تعليمى سر المهنة لكى اتصرف اذا ذهب هو الى السوق وقضاء المشاوير . تعلمت منه ان اول شىء افعله بمجرد دخول الزبون ، أن أسارع ببرم قرطاس كبير واسع . ثم اقف أمام الميزان الموضوع على بنك عريض وحوله الصنج ، اترك الزبون ينتقى بيديه ما يشاء من الأسماك الكبيرة ، وبخفة يد الحاوى اكبش جانبا كبيراً من الأسماك الصغيرة الميتة واملأ بها قمع القرطاس جاعلا رءوسها فى القاع وذيولها فى الخلاء ، فلما يعطينى الزبون ما انتقاه من سمكات كبيرات أضعها بالعكس جاعلاً ذيولها فى القاع ورءوسها فى الخلاء ، واذ يقول الزبون : كفى ، استدير نحو الميزان معطيا للزبائن ظهرى فاردا كوعى قدر ما استطيع ، وفى لمح البصر تكون يدى قد سحبت السمكات الكبيرات من رءوسها وتركتها تتسرب الى برميل كبير موضوع تحت البنك . اعرف طبعا ان الزبون عندما يصل الى داره ويرى السمك سيرتاع لأنه لن يجد سمكة واحدة مما انتقاه . فاذا فكر فى الرجوع لى فلن يخلص منى،

خذوهم بالصوت لئلا يغلبوكم ، أصرخ فيه الهيه وادهيه افرج عليه امة محمد ، مذكرا اياه بأننى وزنت ما أعطاه لى بنفسه . هو فى الغالب لا يرجع ، وبعضهم قد لا يلحظ . وان تكشف لى أن الرجل الذى استكردته مهم ويملك قدرة الاضرار بى فاننى بصنعة لطافة أبيعه واشتريه ، اغسله واكويه ، ولكن بالأدب ، كله بالأدب ياآبا ، أمال . تقول لى كيف انشره وأطويه اغسله واكويه أبيعه واشتريه؟!. الأمر بسيط يابوى ، سر النجاح هو الأدب حتى لو كان أدبا مزيفا لا أصل له ولا فصل : نعم ياسعادة البيه ! انا متأسف خالص ياافندم! لعله قرطاسك تاه فى قرطاس آخر فضل طريقه الى فارغ عين رضى به على عياله ! .. وفى هذه المرة أزن له ما يختاره بالفعل واعيد فحصه عليه واحدة فواحدة ومع السلامة ياسعادة البيه ألف ألف سلامة ياافندم دا محلك وانت تأمر والغالى يطلع لك ! .. سواء لدى ان فهم سيادته اننى آكل بعقله حلاوة أو لم يفهم فانه فى النهاية يؤكلنى عقله بارادته بمزاجه ويكون على قلبه أحلى من العسل ، البرايز والشلنات تتدافع نحوى بغير حساب فى كل مرة يجىء فيها وأنا نازل فيه أكلا بالطول وبالعرض وبالناكوسى قبة ومساحة !! ان أعطيته ثمينتين اثنتين شيلته على شرفهما خمسة ستة أرطال سمك لا يمكن بيعه وحده ولو بالمجان مع أننى بعته له بسعر الثمين الغالى يدفعه صاغرا وهو يقول سبحان الله والحمد لله ! .. الدنيا يابوى تحب الشطارة والأونطة وهذا ما بان لى فى القاهرة فآه منها ومن أهلها آه ! ..

تعرف ؟! هذا الدرس ــ صدقنى ياخال ــ هو الذى حببنى فى هذه البلدة وكتب لى عيشا فيها . انه درس غويط ياخال ، غويط من هنا لحد الصباح ، فهمته وحدى ، بالفهلوة قل ، بالبداهة قل ، بالبركة والتكال على الله يجوز ، انما وجدتنى ذات ليلة مكفنة بالضباب الأسود الفطيس ، وأنا داخل فى عشة فى اسطبل عنتر . على مرسى النيل تبيع الشاى والدخان المعسل ، وكنت اشد النفس من الجوزة بعمق حين برق الدرس فى دماغى كانه المعنى كانه الآية المنزلة ، وصوت كانه صوتى يغمزنى فى جنبى قائلا : الحياة لم تتغير يا أبا على ! لا تظن نفسك انتقلت من حياة التشرد واللصوصية الى حياة التحضر والمدنية والثورة الاشتراكية المباركة لا ! لا ياحسن والف لا ! ان الحياة هى الحياة فى الصعيد أو فى القاهرة ، بل انها فى القاهرة افظع ، السرقة فى الصعيد تتم فى ستر وتكتم وبقسوة

تهدر فيها الدماء وتطير الرقاب !! أما فى القاهرة فالسرقة تتم فى وضح النهار عيانا بيانا على عينك ياتاجر - أقصد يابوليس ! غير ان السرقة هنا فى القاهرة يا خال سلاحها الأونطة والنعومة والميوعة! الخشونة لا تنفعك هنا ، سوف تجرح الآخرين وانت تنفذ بينهم الى اغراضك فليفظونك او يضغطون عليك يغطسونك ! نعومتهم كنعومة جدران المعدة قوية تهضمك تحولك الى خراء يتبرزونه فى المجارى والطرقات وهلف آخر مثلك ينظف وراءهم ! ..

ولد خالك ياولدى ابن ناس طيبين كما تعرف ، لا يغرنك أنه طول يده على بتاع الناس وسرق من غيطان الصعيد الطافحة بما يستحق أن يسرق . انا فى النهاية ابن أعمامى الفقهاء وفى عروقى وقلبى الكثير منهم ، أعرف الله مثلهم وكنت صبيا أسرق وأنا صائم فى عز الحر ، وأصون الأمانة والله ياخال ، المعلم السماك يترك لى محله اليوم بطوله وحين يجىء يفرغ الحصالة فى جيوبه وينصرف . واع حضرته ، يعمل على واعيا ! ان كان واعيا قيراطا فأنا أفهمها وهى طارة . والأمر على هذا النحو ياخال : ما الذى يدعو رجلا كهذا لأن يثق فى كل هذه الثقة مع أنه لم يعرف اى شىء عن حياتى؟ انما هو يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقول عمى الكبير ، يوهمنى انه يعطينى الامان لأكون محل ثقة ويوهمنى من ناحية ثانية أنه لا يعد ورائى فيغرينى أن استغفله . حضرته لم يكن يعرف اننى موقن من أنه ينزوى فى ركن قصى ويفرغ جيوبه ويعد الغلة بالمليم ، مثلما أنا موقن من أنه سيجدها بالمليم كما حسبها ..

ذات يوم جبرنا الله وشطبنا فى بحر ثلاث ساعات ، جاءت الغلة بغلات وفيرات وبقى من السمك حوضا صغيرا اعتبره المعلم زائدا عن الحاجة بيع أم لم يبع . فانصرف المعلم الى بعض شأنه وأوصانى بأن أتصرف فى هذه الأسماك كيفما اتفق بأى ثمن ، فان تم لى ذلك أغلقت الدكان وانصرفت قلت : الله معى . جلست . هب للنبى هجمت الزبائن هجمة ثانية : عبىء ثلاثا! عبىء اربعا! عبىء خمسا!.. اخذت أبيع بنفس الطريقة التى علمنيها صاحب الدكان ، بنفس السعر الذى بعنا به الثمين فى مطلع النهار ، حتى ادخرت فى النهاية حوالى عشرة ارطال من سمك متنقى جاءت من نصيب امرأة غندورة سحرتنى بعينيها فابرزت لها ما أخفيه تحت ورق الشجر الأخضر، تجاهلت يدها الملاءة فانفرطت عن قوام كالفرس لهلبنى فكشفت الورق الاخضر فبانت طبقات الأسماك مرصوصة بعناية كالموج المتلاحق قالت : بكم ؟ قلت : بالصلاة على النبى . قالت اللهم صل

وبارك عليه . وكطفل يخشى من لمس لوحة معروضة فى معـــرض مدت اصبعها خلسة ولمست احدى السمكات لمسة سريعة وقالت زن .. فوزنته ، واعطتنى ما طلبت وتركت القروش المتبقية . الا وصاحب الدكان قد أهل داخلا ، كانت نقود المرأة لا تزال فى يدى حين دخل صاحبنا الى الحصالة ، اذا به يفرغها فى جيبه ويمضى قائلا : يلا شطب بقى واقفل . غلى الدم فى عروقى . وضعت نقود الولية فى جيبى وقلت : استنى عشان تاخد مفتاح دكانك . قال دهشا : مش حتفتح بكره ؟ . قلت : ان احيانا ربنا ورائى مشوار لحد الصعيد . واغلقت الدكان وسلمته له المفتاح ومضيت ..

فى المساء جاءنى فى المقهى التى يعرف اننى بدأت أجلس عليهــا فى اسطبل عنتر . صاحبها من بلدة مجاورة لبلدتنا ويعرف أعمامى منذ صفره ، وكانت خطابات أمى تجيئنى على هذه المقهى ، وهى مقرى الذى يسأل فيه الناس عنى ويستدلون منه على أصـــلى وفصلى . أول ما شفت المعلم السماك مقبلا قمت اليه وطلبت له الشاى والذى منه ثم قلت له : شوف ياحاج ! واجبك تاخده لكن شغل عندك تانى لا » . لماذا ؟ ما السبب ؟ قلت : « هكذا ! انا الآن خاضع للشيطان الآمر بعدم الشغل واى كلام فى أمر الشغل لن يفيد » . فسلم على وانصرف .

جلست منجعصا يابوى وأنا فى اتم سعادة . وضعت رجلا على رجل أخذت أطوحها فى وجه الزمن . سرح دماغى لطشه الهواء نعنشه شعر بلذة كبيرة لأنى تخلصت من هذا الرجل اذ هو لص وحلوف . لكن ماذا سأفعل غدا ؟ هذا ما لايريد دماغى أن يكلمنى فيه الآن ! . عاندته ، قمت من لحظتى الى محل شكله خواجاتى فى حارة قصية من حوارى مصر عتيقة ، اشترى منه زجاجة صغيرة يســـمونها الخمسينة وفيها خمرة يقال لها الكونياك ، وعدت بها الى بلدياتى حيث لزمت الظلام المتكوم فى أقصى الرصيف فى دروة كشــــك السجائر ، جلست منجعصا وكل حين افتح الزجاجة وارشـــف منها رشفة وأقزقز الفول السودانى . مادريت كم الساعة حين انتبهت الى أن الزجاجة الفارغة قد اخذت تكر على الارض رائحـة جائية حسب اتجاه الريح ، كنت سكرانا بحق ولكننى منتبه الى كل شىء ، اردت أن أؤكد انتباهى ويقظتى فنهضت واقفا ومضيت بضع خطوات وامسكت بالزجاجة فوجدتنى اقف بها حائرا فى وسط الطريق ، فالقيت بها الى بعيد وهدفى أن تسقط مباشرة باحكـام

النشان فى قلب صفيحة قمامة معلقة فى عامود نور من خلف هديم ، الا أنها اصطدمت بالعمود وهوت على الأرض هشيما فجلست ارتعش كطفل صغير أتى ذنبا عظيما . لحظتها رأيت المعلم «شندويلى» صاحب المقهى يرص كراسيه فوق بعضها استعدادا للتشطيب . وكنت قد رأيت السماك أثناء انصرافه قد انتحى به ركنا وراح يحدثه فى أمرى وهو يهز رأسه . فلما لم يعد سوى الكرسى الذى أجلس عليه سحب هو كرسيا وجلس بجوارى ومد يده لى بسيجارة ، تقبلتها شاكرا واشعلت له ولى . شعشع النفس فى دماغى ، عاجلت المعلم « شندويلى » بقولى : « ألست بلدياتى يامعلم شندويلى ؟ » قال : « نعم » . قلت : « وتحب لى الخير ؟ » . قال : « وهل فى هذا شك ياأبا على ؟ » . قلت : « تعرف أننى ابن ناس طيبين أم لا ؟ » . قال وهو يغمزنى بعدساية افيون : « ربما لا تعرف أهلك أكثر منى .. اسألنى أنا عنهم » . قلت : « يعنى اذا ميلت عليك ذات لحظة وقلت لك يامعلم شندويلى سلفنى عشرة جنيهات فهل تأتمننى وتفعل ؟ » . قال مشوحا فى وجهى : « لو عيل من عيالى ياأبو العم » . قلت ــ ولولا شعشعة الخمر ماجرؤت : « أنا ياأبوالعم محتاج لسبوبة » . دب يده الخشنة فى جيب المريلة ــ التى لم تكن تليق على شكله وقوامه الصعيدى أبدا ــ فأخرج ورقة بعشرة جنيهات لكزنى بها صائحا بصوت جهورى : « على بركة الله لعلك تسكر بها مثلما أنت سكران الآن » . فأفقت فى الحال يابوى واعتدلت ، قلت له : « من غلبى ياأبوالعم .. لكن اطمئن على » . قال : « أنت حر » ، ثم أردف : « كل انسان فى هذه الحياة معلق من عرقوبه » . قلت : « نعم كالذبيحة » . قال : « براوة عليك مادمت تفهم هذه وحدها .. عرقوب البنى آدم هو آخر عضمة فى كعب القدم .. وانت بكعب قدمك تصل الى مكان الخطاف .. افهم دى جيدا ياأبوالعم وبعدها توكل على الله » . وكنت قد فهمتها بالفعل حق الفهم .

فى الفجر كنت واقفا فى وكالة السمك بغمرة . تسوقت تشكيلة ثمينة من البلطى والبورى والبياض والقراميط . ملأت سلتين وضعتهما فوق بعضهما ، استأجرت ميزانا بصنجة وضعته فوق السمك . حملت ذلك فوق رأسى مضيت أبحث عن مركبة توصلنى الى الضواحى والمناطق البعيدة مثل المعادى وحلوان ومصر الجديدة وجاردن سيتى والهرم ، اختار الشوارع النظيفة ذات البيوت

المهيبة : « طازج ياسمك » .. هكذا اروح انادى . يطل على هذا ويتوقف ذاك . اوزن ياعم .. اوزن ياعم اوزن ياعم جبرنا والحمد لله ..

احلو الحال ياخال . أخذ المعلم « شندويلى » جنيهاته العشرة عرفنى معلم فى الوكالة يدعى « الحباك » ، صار يمدنى كل يوم بما اشاء ، على ان أعود اليه عصر كل يوم لأحاسبه مختصرا عرقى ورزقى . كل شيء نصيب يابوى ، كنت ماشيا فى شارع من شوارع المعادى المتشابهة لا اسم له بل له كالمساجين رقم معلق على صدره بفانلة زرقاء أيضا . وكان الله قد جبرنى ولم يبق معى سوى حوالى عشرة أرطال صممت على بيعها بالسعر الذى أبيع به لسكان الفيللات والسرايات ، السعر «القرسطقراطى» للحى«القرسطقراطى» هكذا أفهمنى المعلم يابوى . طازج ياسمك ، صابح ياسمك .. هكذا كنت أواصل الصياح بصوت عال متحمس لا يفيظنى فيه غير انه صوت صعيدى لا يرن كأصوات العيال البياعين أولاد البلد، المهم، مادريت الا وبواب أسود مهيب يتكفن بالأبيض الشفاف الناصع ويتواجد البياض بين شفتيه وفى عينيه صاح بى وهو يقبل نحوى : « تعال ياولد » . ظننته يبغى الشراء فهرولت نحوه ثم أقعيت كاشفا الغطاء عن السمك ، فاذا هو ينهضنى بيد غليظة ويسلمنى لأفندى اجعد الشعر اشيب أصفر الوجه والعينين ذى شارب كثيف متعجرف . قبض على كتفى وراح يطوحنى فى الهواء صائحا : « ايه اللى جابك هنا ياابن اللى واللى واللى » ، شتيمة منتقاة يابوى من بئر الوساخة النتنة لا أتوقع ان أسمعها فى الحى«القرسطقراطى» هذا . صرت خرقة فى يديه يفعل بها ما يشاء وانا أصفق كفا على كف واقول : « ماذا فعلت بحق الله يارب .. فيه ايه ياسعادة البيه .. انا غلطان ياسعادة البيه حقك على ياسعادة البيه » . وسعادة البيه النتن رأسه والف سيف أن يسلمنى الى البوليس! العفريت الذى طلع عليه : البوليس ! . ابكى انا بحرقة وهو يصيح فى البواب بغلظة : « أطلب البوليس قلت لك » !! ..

الله وكيل يابوى . ماكدت أتمها الا وانفتح شباك مواجه أطلت منه سيدة جميلة تطل من عينيها شخصية قوية ذات سطوة صاحت فى الأفندى والبواب : « سيبوا الراجل فى حاله » ، فكأنما قولها أمر حاسم مجاب ، انفكت قبضة الأفندى عن كتفى ، وكسكس البواب متواريا عن الأنظار . رحت أعدل ثيابى والم بضاعتى ،

الا والسيدة تصيح بى : « تعال هنا يا راجل انت .. لف وتعال » ، فنظرت الى حيث أشارت فتعين على أن أدخل من باب الفيللا والف فأصعد السلم البعيد على اليمين . صرت على باب كبير مفتوح والمرأة واقفة فى فتحته تبارك الخلاق فيما خلق ، جعلت أنظر اليها فى بلاهة البهيمة تفاجأ أمامها بوليمة تبدو مباحة . نظرت هى فى عينى فكسرت نظرتى . قالت : « أنزل » . فأنزلت حمولتى وكشفت الغطاء عن السمك . زامت فى رقة ثم قالت : « بكم ؟ » . قلت : « بكذا .. ولأجل خاطرك بكذا » . قالت : « زن » . فوزنت كل ما معى فأخذته وغابت فى الداخل ، ورحت أرقب ظهرها ياخال وهى تمشى ، الفتنة تمضى على قدمين ياخال . فقلت لنفسى عساها تكون النداهة التى اسمع عنها فى الحواديت تنادى الناس بأسمائهم فى الليالى الحالكة متنكرة فى شخصيات معروفة لهم لكى توردهم موارد الهلاك ! ثم قلت لعلها الدنيا الفاتنة تزمع أن ترينى نفسها بعد مر الشقاء !! ثم رفرف قلبى ورقص عاليا لكنه خفق واهتز مع خاطر يقول لعلها العاهرة التى تطلع للصعايدة فى المدينة لتشترى ذكورتهم الفتية بكنوز الدنيا كلها ! .. اى وحق الله يابوى ماظننت ان امرأة فاتنة كهذه تطلع لى من تحت طقاطيق الارض لتنجينى من خطر قابض على وفوق ذلك تشترى كل ما معى بالسعر الذى طلبته ! .. ظللت أتوقع مفاجأة عظيمة وهى تقبل من الداخل حاملة ورقة مالية كبيرة ، فلما رفعت عينى عنها تأدبا اصطدم بصرى على الحائط المواجه بصورة كبيرة فى برواز كبير لجمال عبد الناصر وأخرى مثلها لعبد الحكيم عامر وتحتهما صورة لضابط بالملابس العسكرية لم أتعرف عليه ولكن على صدره وكتفيه تعاليق وتزاويق وضبابير ونجوم كثيرة .. فرفرف قلبى من جديد كالطائر يستعد للهبوط على عشه الآمن ، تناولت الورقة المالية الكبيرة غير منتبه الى أن المرأة تقول لى : « خذ يارجل ولا تجىء هنا ثانية » ! . قلت : « حاضر ياست هانم » ، وكان يداخلنى شعور يقين بأن هذه المرأة تتكلم لمصلحتى . اخرجت كيستى القذرة الزفرة وفردتها وجعلت أبحث عن فكة ، لكن المرأة مدت يدها البضة المتختخة الحافلة بالأساور والخواتم نحوى قائلة : «مش مهم مش مهم !». رفعت بصرى اليها محاولا التلكؤ ، قلت : « كيف ياست هانم ! الحق حق وحضرتك تستحقين ثلاثة أربعة جنيهات » شوحت قائلة : « مش مهم ! خليهم علشانك بشرط الا تجىء هنا مرة

اخرى » . حارت نظرتى والله ياخال تحاول اختـــراق عين المراة ومعرفة القصد الحقيقى من هذا الحادث المهول . ولابد أن منظرى لحظتها كان مضحكا ، حيث اشتعلت البسمة على شفتيها فاضاءت كالكلوب على وجهها الجاد الحاد الناعم المنتفض . لممت نفسى بسرعة وصرت اخطو خطوة وانظر ورائى منتظرا ان تغير المراة الفاتنة رأيها او ينقض على شرطى . صرت والله أجر خطواتى على السلم كأن قوة تشدنى بالأوناش الى الوراء ، فلما سمعت الباب يغلق منورائى ضربت جبهتى بقبضتى وايقنت انها الدنيا وقد أقبلت على بالفعل طبقا للحلم لكنها فرقت بنطا واحدا انحرف شىء فى الزمن فى الأمر لا ادرى ياخال ! لماذا غيرت الدنيا الفاتنة رأيها فى آخر لحظة بعـد ان نادتنى بنفسها بعلو حسها طاردة عنى ألوحوش المؤذية فتحت لى بابها على وسعه أرتنى لحمها المقدس عاريا تحت غطاء شفيف أى على أهبـــة اتخاذ ألخطوة الأخيرة ألتى كان يتعين على وحـــدى أن اخطوها برفع هذا الغطاء الشفيف والدخول الى المدائن المســحورة لكننى من غباوتى وتخانة مخى لم أفعل !! الهذا صغر شـــأنى فى نظرها فاحتقرتنى وردتنى عن بابها بلطف وأكتفت بجبـــر خاطرى مصحوبا بتحذيرى من الحومان حول سورها ثانية ؟! مخى تبرجل يابوى ! لابد انها كانت تنتظر منى أن ادخل وراءها بجراة أريهـــا حقيقة نفسى التى تحت هذه الخرق الزفرة ، لم لا يكون لا ؟! لم لا يكون نعم ؟! ؟! فالدنيـــا فاتنة ، وكل فاتنة غانية ، وكل غانية دواؤها قوة الذراعين والشكيمتين والعينين ، أن توفر ذلك فى رجل مثلى استطاع أن يلوى خزامها يركبها . الدنيا مهرة شرسة ان لم يكسر شراستها ركيب حقيقى فارس حقيقى سابت وانطلقت تبحث عمن يلوى منها الحزام ينفصها لا يتركها آلا مصاصة قصب ..

صدقنى ياخال أننى حتى هذه اللحظة لازلت بكل نفســيتى وكيانى وربما جسدى واقفا على بوابة الفيللا معطيا ظهرى للســلم الصاعد الى شرفات النعيم أخاير ذهنى ويخايرنى فيما يجب أن أفعله ، ولكن أفعل ماذا يابوى ؟ أن صوتها الآمر الناهى يمنعنى من اى فعل .

اخترت جانب الامان بالطبع ، حرمت على نفسى السير فى مثل هذا الشارع ثانية .

الثانية - كيف شردتنى التسعيرة ؟ !

فى صبيحة يوم بعد انصداد نفسي عن العمل اياما يممت شطر حلوان بحمولة كبيرة تليق بسفر . أقمت فرشا على تخوم سوق مجاورة لمحطة المترو . فردت موازينى ، فحضرت الزبائن وبدأت وفودها تتلكأ عندى وبدأت أزن واقبض والحال آخر سبهللة ، المفروض أن ابيع — حسب التسعيرة — الرطل بثلاثة عشر قرشا ونصف للبلطى الكبير ، وتسع قروش للمتوسط ، لكننى كنت أبيع بخمسة عشر قرشا كله فى رقاب بعضه الكبير يسند الصغير ..

رن الكف على مقربة منى فارتعب قلبى ، عرفت من صوت الرنين انه سقط على قفا واحد من بنى عمومتى ، فمثل هـذه الرنة لا يصدرها الا قفا منهم ! ومثل هـذا الرنين لا يحتمله الا قفا من اقفيتهم ! سبحان الله ! اللهم اجعلهخيراً !. سربت عينى الى جوارى خلسة ، رأيت معاون الشرطة والمخبرين يحيطون ببائع الفاكهة المجاور لى والمعاون لا يجد لغة للتفاهم مع الفاكهى سوى الضرب على القفا بكل هذه القوة . لو كنا فى الصعيد ورن هذا الكف على قفا اى مخلوق لطارت فيه رقاب وقامت قيامات أما هنا فالدنيا كلها تنقلب عليك فى لحظة وتحاصرك الدبابات لو جحرت فى وجه الحكومة . نظرت للزبائن الواقفين أمام فرشي ورجوتهم بحق الديانة والأمانة أن يقولوا للمعاون اذا سألهم انهم اشتروا بثلاثة عشر قرشا ونصفا حسب التسعيرة فهزوا جميعاً رءوسهم وقالوا فى ثقة واطمئنان : « دع عنك لا يهمك ! » . الا والمعاون زاحف نحوى بموكبه الشعنون . « بكم تبيع ياولد » ؟ قلت : « بثلاثة عشر قرشا ياسعادة البيه حسب التسعيرة » . فرن الكف من جديد على قفاى هذه المرة ساخنا لاهبا تطايرت له شرارات النار من عينى . صحت دامع العينين : « كيف تضربنى هكذا ياسعادة البيه ؟ » . زغدنى رجاله وصاح هو قائلا : « بع بتسع قروش ياابن الكلب » . قلت : « حاضر يابيه » . ماكدت اتم كلمتى حتى كان الزبائن قد هجموا على السمك فعبأوه فى قراطيس صنعوها لأنفسهم ووزنوها على هواهم وراح معظمهم يرمى لى بضع قروش وبضع شلنات مقابل خمسة ارطال ! فى لمح البصر كان « بتاع الناس » قد انتهى ، صرت أصرخ وامسك

فى خناق المعاون والمخبرين « بتاع الناس ياولاد ديك الكلب ! هاتولى بتاع الناس ! خربتو بيتى ياكفره ! » ، وهم جميعا يضربوننى بالعصى والأحزمة والشلاليت حتى سوونى على الجنبين وتركونى جثة تفشخ حنكها باكية وأمامها بقايا متاع وبضع قروش وأطلال فرش وصنج بعثرته الأقدام فى زحام السوق !! ..

عدت الى مسكنى فى اسطبل عنتر ، حصرت خسائرى فوجدتها افدح مما تصورت . لقد اخذت من المعلم « الحباك » بضاعة بستة وثلاثين جنيها والفلة التى معى كلها تسعة عشر جنيها الا قروش فمن اين لى بالباقى ؟ ومن ذا الذى سيستطيع اقناع المعلم «الحباك» بأن الحكومة هى التى بعثرت رسماله على الرصيف واباحت سلبه فبأى وجه اقابله ؟! لابد أن أختفى عن انظاره نهائيا فلا اراه أو يرانى الا وفى جيبى حسابه بالتمام ! أما متى يتوفر لى مثل هذا المبلغ الكبير فأمر يعلمه الله وحده .

القصد يابوى ، حودت على محل كان قائما على الكورنيش فى مصر العتيقة فيه بار وشرب خمر واكل . قلت لنفسى : ضرب الأعور على عينه قال خسرانه خسرانه ، وتوكلت على الله فدخلت هذا المحل ، طلبت دجاجة وطبقا من الأرز وآخر من الخضار مع تلك المسماه بالخمسينة . ايقظت بطنى ورحت اعطيها وادلق فيها كل ذلك حتى قمت فى النهاية مدووشا امشى كالطاووس مع ان البكاء كان قد جفف عينى ودماغى ، والضرب فصص عظامى دهسها دفعت ثلاثة جنيهات فى صمت وهرعت الى مقهى المعلم «شندويل» فطلبت قهوة وجلست ادخن فى ركن الظلام . الا وكاتب المعلم « الحباك » يهبط على كانما سقط من السماء ، اذ كنت سارحا ملكوت الله متمدداً على كرسيين وميلت لأرمى عقب السيجارة فوجدته قد جلس بجوارى ! منذ متى جلس والله ما أدرى ! لكننى حين نظرت فى عينيه خلل الظلام المترقق لقينى احساسه بالفرح لأنه استطاع أن يقبض على . أخيراً صرت مجرما وهناك من يتعقبنى للايقاع بى . اعتدلت على كرسى واحد وقلت : « أهلا وسهلا » . قال فاشخا حنكه : « ماجيتش تحاسب المعلم ليه ؟ خير ؟ انت سكران ولا ايه ؟ » . قلت باحثا عن صوتى « سكران نعم .. سكران من فعل الضرب والشتم والبهدلة » . قال وقد ظهر من صوته أنه لن يصدقنى فى أى كلام أقوله : « ليه كفر الله الشر حصل ايه ؟ » . انتفضت واقفا ونزعت الجلباب كشفت عن جسدى قائلا :

« شوف ياخي .. الحكومة كسرت عضامي يابوى بعثرت البضاعة يابوى .. سابت الناس تهجم عليها وتنقيها بالتسعيرة الجبرية » . أخذ يتفكر ثم زام وقال : « يعنى ضاع بتاع الناس ؟! » . قلت : « الله وكيل !! الذنب ليس بذنبى » . فمد يديه وتحسس جيوب صديرى ، اخرج محفظتى وفتحها اخرج كل ما فى جيوبها ، عده فاذا به ثلاث خمسات وبضع قروش وضعها فى جيبه وصار يلوح لى بأصبعه فى تهديد شرس : « اعمل حسابك !! رجلك ماتخطيش ناحية السوق بحاله !! المعلم ممكن يضربك بالرصاص ويتساوى جثتك ولا من شاف ولا من درى ! » ، ثم انصرف .

أروح فين ياولدى ؟ أعمل كيف ؟! جاءت صورة امى وهى تودعنى عند السفر قائلة : « ألاهى ربنا يحبب فيك المخاليق ورفاق الطريق » ، فاقشعر جسمى ، وهتف صوت فى دماغى : لسوف يحلها الحلال . وبالفعل ، حمل المعلم « شندويلى » همى . أخذنى الى مقهى كبير فى مصر القديمة عليه وارد يحتاج لأكثر من صنايعى . قال المعلم « شندويلى » لصاحب المقهى الكبير : « هذا الولد يصلح نصبجيا نظيفا وهو من بلدياتى وعلى ضمانتى » . قال صاحب المقهى الكبير فى هدوء : « وماله .. رزقه ورزقنا على الله .. خش ياولد ورينا شطارتك » . وكانت رأسه غليظة منتفخة كراس ثعبان ابتلع بطيخة ، الا أن الطيبة كانت بادية على ملامح وجهه . شمرت ذراعى وفردت المريلة ألتى أعارهالى المعلم « شندويلى » . لبستها فبدوت كأننى أقوم بتسميع الحركات ألتى يفعلها المعلم «شندويلى» فى شغله والتى يظن من يراها أنه أمام صنايعى قرارى نشيط مفتح ، لكن المعلم ابتسم ابتسامة لم أرتح لها وقال : « وماله برضه .. كل شىء ييجى بالتمرين ان شاء الله » . يوم بعد يوم تعلمت الصنعة ، عرفت أن كل شىء بالفعل صنعة لها أهل ورجال . نجحت كعامل نصبة أصنع فى الساعة الف كوب شاى وألف كنكة قهوة بدون عناء . لكن القروش التى يدفعها لى صاحب المقهى آخر النهار لا تساوى العرق الذى ينشال منى طول النهار ، أعيش على البقشيش واجمد اليومية فى الحوالة البريدية كل شهر لأمى . شخط فى المعلم مرة فشخطت فيه بالمثل فشتمنى فخلعت المريلة رميت بها واتكلت على الله ألى اسطبل عنتر .

قال المعلم « شندويلى » وهو يغمزنى بعدساية افيون : « اسمع ياأبو العم ! أنت ابن حلال مصفى ! . وهذا هو بركة دعاء الوالدين

وبركة أعمامك الفقهاء الطيبين » . قلت : « صدقت والله ولكن بختى كما ترى غير موات ! » . قال وهو ينقر بأصابعه الطويلة الخشنة فوق ساعدى : « ألدكان المجاور للعجلاتى على الكورنيش يريد صاحبه تأجيره وهو دكان يصعب أن يستنفع به شخص غريب! ما رايك لو أجرناه لك وفتحته قعدة شاى مختصرة على قدها ؟! » . قلت : « بوفيه تقصد ؟ » . قال : « عليك نور !! ايه رايك ؟ » . قلت : « يادار مادخلك شر » . قال : « معك كثير ؟ » . قلت : « سبع جنيهات وستين قرشا سأرسل منها حوالة بست وأصرف على الحوالة من الستين قرشا » . قال : « لا حوالة ولا غيره هات مامعك !! حوله على أنا » . فدفعت آليه بالمبلغ .

الحق لله تعب الرجل معي آخر تعب ، استأجر لى الدكان واتفق مع البناء الذى أقام النصبة بالأسمنت والقيشانى ، وخطفنا ارجلنا الى السوق فاشترينا ثلاث أربع دست من الأكواب والبرايض والغلايات والكنك ، وأعارنى ثلاث ترابيزات وعشر كراسى على سبيل الايجار بمائة وعشرين قرشا فى اليوم . هب للنبى فتحنا . من صبيحة ربنا حتى ما بعد منتصف الليل لا افرغ من صنع الطلبات وتوزيعها . لكننى كنت أتعب يابوى ، يجيء الليل على فاتكفىء من الاعياء مستندا على النصبة لساعات طويلة .

الا وجاءنى ذات ليلة اربع رجال أفندية آخر وجاهة تحلقوا ترابيزة رخامية وقالوا : « عندك كوتشينة ياحاج ؟ قلت : «عندى». قالوا : « هاتها » . وكانت جديدة فقالوا فى نفس واحد : « فل » . ومال أحدهم على قائلا فى بساطة : « شوف ياعم الحاج .. حنلعب عشرتين ثلاثة — وغمز بعينه غمزة ذات معنى — ولك ياعم على كل دور عشرين قرشا أجر ترابيزة عندك مانع ؟ » . قلت : « لا » ، فانبرى يفنط الورق فى حماس ويطلب المشاريب .

احلوت اللعبة يابوى ، ساعتان أو ثلاث فى اواخر الليل بمقام شغل جمعة بحالها ، حتى صرت يابوى من فضل الله وكرمه أرسل لأمى كل أسبوع حوالة وادخر حوالة .. اهملت امر القهوة والشاى وطال ابتعادى عن جحيم النصبة اذ لابد ان أكون جالسا بجوار اللعب أراقب الأدوار واقبضها . هات واحد شاى ياعم حسن .. قم انت عدم المؤاخذة واعمل لنفسك شايا ثقيلا كيفما تهوى . الشعب المصرى شعب مهاود يابوى ، كالبوصة الخيزران تطويها دائرة فى اصبعيك فتتخيل انه — اقصد انها — ملك يديك ، فاذا

ماغفل اصبعك برهة وجيزة اندفع الطرف وارتدت البوصة عصا مستقيمة كأن شيئا لم يكن . هكذا كان يقول عمى الضرير لجلاسه فى مندرتنا ، وكلما دعكتنى الحياة فى مدينة القاهرة احسست اننى يجب أن أكون مثل البوصة الخيزران لكى أعيش فى هذه البلدة دون مشاكل ووجع دماغ وكراهية . طب ماقولك يابوى اننى كنت ارسل هذه الكلمة كلمة « قم اعمل لنفسك » الى رجال محترمين جدا والمفروض أن اقف امامهم خاشعا مكسور الجناح ، كنت أقولها فى تهيب شديد أول الأمر ، ثم على هيئة مزاح ، ثم بت اطلقها بلهجة أمر غليظ : قم أعمل لنفسك .. فيقوم سعادة البيه ويعمل لنفسه دون أى غضاضة على رأى عمك الضرير ، اى والله ياأبوالعم.

تفرغت لقبض الريالات المنهالة على كل مساء من التاسعة مساء حتى الرابعة صباحا . لم يعد يعنينى راحة أى زبون ، بل اصبحت أجد لذة فى اهانتهم تزداد نشوتى منها كلما رايتهم جميعا يقابلون اهانتى لهم كأنها أمر طبيعى ! اصبحت اعمل على طرد خمائرهم أبتداء من بعد صلاة العشاء ..

غير أن الطوبة ليست تقع فى المعطوبة كما يقول المثل بل تقع دائما فى السليمة . وهى طوبة تصيبنى دائما كلما جرت النعمة بين يدى . دخل الضابط علينا فجأة وخلفه رجاله ، كان أفنديا وهم كذلك لكننى عرفت الضابط من دخلته ذات النفخة الكدابة ومن التفافه حولى فى ثقة ثم احاطة رجاله بنا . ليلتها حملت الترابيزة فوق راسى والكوتشينة فى يدى ونقود القمار فى جيبى تقلنا عربة الشرطة الزرقاء الى قسم مصر القديمة حيث أشبعونا ضربا وتلطيشا مما يحبه قلبك عدم المؤاخذة ، حرروا لنا محضرا ، وبعد أربعة أيام أفرجت النيابة عنا بكفالة عشرة جنيهات لكل واحد . فى اليوم الذى خرجنا فيه اتجهت من فورى الى المحل ففتحته وكنسته ورششته بالماء وبخرته ثم أشعلت النار تحت الرمالة وجعلت أغسل الأكواب أقصد الكريم مستفتحا بواحد شاى لى . مع حلول المساء رزقنى الله بالعشاء فى الموعد اليومى المعتاد جاء الصحاب الأربع لا يبدو على وجوههم أثر لما حدث بل لا يبدو عليهم أنهم يعرفوننى أصلا ، كأننا لم تكن سويا فى الحجز منذ ساعات قليلة . سلام عليكم ياحاج ، قلت عليكم السلام . اردت ان آكل البصرة منهم بأن أرد عليهم فعلهم ، قلت بمجرد جلوسهم كأنهم أغراب عنى : «تشربوا ايه ؟ » . قالوا كوتشينة طبعا . استأنفنا اللعب من جديد. ما كادت النعمة تسرى بين أصابعى حتى كبست علينا الشرطة مرة أخرى ، فى هذه المرة شمعوا الدكان بالشمع الاحمر . أما نحن

فقد دفعنا كل ما كان معنا لأمناء الشرطة ومع ذلك لم ننج من ركوب الصينية التى يفرزون فوقها من يتحرون عنه لمعرفة أن كان من ارباب السوابق أم لا ، الحمد لله كشفت الصينية أننا جميعـــا بلا سوابق وأفرجت النيابة عنا على ذمة أن تطلبنا المحكمة بعـــد حين .

قلبى شال من المنطقة كلها ياخال ، أصبحت لا أطيقها واسودت الدنيا فى وجهى فقلت فى نفسى ليس لك عيش فى هذه المنطقة يا أبا على! ان الشـمع الاحمـر الـذى ربط باب دكـانى فى الارض هو الانذار الالهى الذى يقول لى ابحث لك عن باب آخر فى جهة أخرى .

فوالله ماكذبت خبرا ، كان المعلم شندويلى يفتح مقهاه عقب صلاة ألفجر مباشرة ويبدأ فى رص الكراسى ورش الأرض ففوجىء بى آتيا من مسكنى احمل جعبة الورق التى فيها خلقاتى كلهـــا ، وكانت منتفخة . صباح الخير يامعلم شندويلى .. صباح النور ياحسن أمسافر ياترى ؟ قلت : « حاجة زى كده » . قـــال : « كيف ؟ قلت : « سأقلب عيشى فى عتبة أخرى فى منطقة اخرى غير هذه »قال:« من ورائى ياأبو العم ؟ » . قلت : « يمين الله ماأعرف حتى هذه اللحظة أين ترسو بى المركب ولا فى أى مكان توجد لقمة عيشى قال والخواتم الفضية تتماوج فى كفيه : « عليك بحى الزيتون لا تذهب شمالا أو يمينا » . قلت : « خير ان شاء الله ما الذى فى حى الزيتون يامعلم شندويلى ؟ » . قال : « تركب أتوبيس نمرة كذا يوصلك الى محطة باب الحديد تسال عن قطار كوبرى الليمون يدلونك على محطته تقطع تذكرة من الشباك تركب القطار توصى الكمسارى أن ينزلك فى محطة الزيتون ! تنزل فى المحطة تنزل الرصيف عائدا الى الوراء حتى المزلقان ! تجد قهوة المعلم ظريف ! اســأل فيها عن المعلم ابو القاسم شعيب تجد ألف من يوصلك اليه ! انه مقاول قد الدنيا وكل بلدياتك يتوجهون اليه مباشرة وان شاء الله سيكتب لك الله لقمة عيش عنده ! فعنده أنواع شغل من الفواعليا الى كل ماتريد وما تتخيل ! يعنى لابد أن يجد لك شغلا على قدك بالضبط » . قلت : « ابن أصل صحيح والله يامعلم شندويلى ! من الآن أى جواب يجىء باسمى احفظه عندك حتى أعود » . قـال مشوحا : « ولماذا احفظه ؟ ساضعه فى مظروف جديد وأرســله اليك طرف المعلم ابو القاسم شعيب » . قلت : « على بركة الله » . عانقته وبكيت فبكى هو الآخر ومد يده فى جيبه فأسرعت ممســكا بها قائلا : « مستورة والحمد لله » ، ثم تركته ومضيت .

العـــــدد ثلاثـــــة
الأولـة ـ عرســان وعرايـس

ما أن وقع بصرى على باب الحديد حتى هاج صدرى من سبعة اركانه . ما ادرى الا وانا اقطع تذكرة الى الصعيد فسبحان الله انها ارادته . .

القطار يدب ساعات طويلة يابوى ومخى يضرب يقلب : ما الذى سافعله فى الصعيد ؟ ما الذى اقوله لامى ؟ افى اجازة انا أم ان هذه هى الأوبة الأخيرة ؟ استفرح امى بذلك أم ستقع من طولها ؟ سطلنى الهواء فنمت من التعب ، وقد هيأ الله لى من يصحينى عند كل محطة لينبهنى . .

يابو . . و . . و . . ى . . على الفرحة التى التقانى بها الأهل من أول الحارة حتى دارنا . لم أفرغ من السلامات والأحضـــان والدعوات حتى صنعت مهرجانا ورائى . أول شىء مفرح التقيته اننا قد صار لنا دار مسقوفة كلها ، ذات أبواب وشبابيك جديدة . . فاحسست بكل الأمان ، وقلت فى نفسى : رعاك الله ياأم فها هى ذى نقودى التى ارسلها لك بالحوالة البريدية قد نفعت الآن وصـــار لنا بيت بحق وحقيق استطيع الجلوس فيه واستقبال الرجـــال بلا حرج ! . .

هاهى ذى العائلة بربطة المعلم تطل خارجة من باب الدار ، امى تجرى نحوى مهرولة ومن خلفها « سلمى » و « مندوهة »و«سعدية» و « هندية » التى اصبحت عروسنا الرابعة فى زمن غيبتى جـــاءت هى الاخرى بعزم المشوار نحوى لترتمى فى حضنى ، خلفهـــا اخى «محمود» الذى كان رضيعا خرج يحبو على قدميه يحاول أن يصلب حيله يبكى منزعجا من هذا الانقلاب المفاجىء ، فكدت والله اتركهم جميعا واجرى اليه لولا اننى لم اتمكن من نقل خطوتى ، حيث تعلقت امى بحضنى وهات يابوس وضم وبكاء ، فى حين تشعلقت «سلمى» برقبتى و « مندوهة » بكتفى أما « سعدية » فوقفت متدللة فى انتظار ان اذهب اليها واخصها بالسلام والتقبيل واما « هندية » فتعلقت بذيل جلبابى ، وصوت بكاء « حموده » يتصاعد ويطغى على ضجيجنا ولولاه لبقينا فى الشارع هكذا وقتا طويلا . .

اللقاء بعد الغيبة حلو ياخال ، لا مثيل لحلاوته ، ولو ثوقل هذا اللقاء فى كفة بمليون جنيه أكسبها من الغربةفى كفة مقابلة لاخترت اللقاء اذ أننى واللقاء فى كفة واحدة . صار الرجال يأتون للسلام على وصرت احس بأننى محترم فى وسطهم فشعرت بحلاوة الصـــعيد وكرهت القاهرة كره العمى ، وقال هاتف لعله من طرف الملاك المنوط بتسجيل الحسنات على أحد كتفى : « أنا هنا رجل بحق وحقيق رب أسرة وصاحب بيت يؤمه الزوار أما فى الغربة فأنت ريشة شريدة فى مهب الرياح » . قلبت هذا الصوت فى دماغى فحصته وقلت لأنظرن فى هذا الأمر .

لكننى نظرت ذات لحظة بعد خفوت دوشة مقدمى ، وكانت صينية الطعام الكبيرة مفروشة على الطبلية ونحن نتحلقها فى حوش الدار ومن حولنا بط وأوز ودجاج ومعيز وخير كثير ، فرأيت أختى « سلمى » و « مندوهة » و « سعدية » و « هندية » قــد صرن حريما بمعنى الكلمة ، أى قد صرن فى حاجة الى ظل رجل يحميهن من طمع ذوى النفوس الوسخة . ارتعد قلبى والله ياخال وانتفضت الملعقة فى يدى فتساقطت الشوربة على ثوبى ، لمجرد تخيلى لرجل من المطاريد معدوم التربية يقتحم دارنا هذه لخلوها من الرجـــل ويستبيح كل هذه الكنوز الغالية : أيجيئك قلب يا حسن لتترك هذه الجواهر الملعلطة تنوء بها أمك وحدها ؟! « سلمى » و «مندوهة» و « سعدية » و « هندية » يهون عليك فتتركهن شهورا أخرى وربما سنوات ؟! كيف ياولد فكـــرت فى هذا من الأول ؟! الا قاتل الله الفقر . استحليت البقاء لمصلحة رجوليتى قبــل مصـــــلحتهن ، استرحت لهذا فأكلت بنهم حتى شبعت وانجعصت متكئا على مسند صلب وجعلت أدخن السيجارة باستمتاع شديد وأمى متربعـــة جوارى ، أختى « سلمى » تسوى الشاى على ركية نار متبقيـــة من الكانون ، جاءت « سعدية » بصينية الشاى عليهـــا البراض والأكواب الزنك فوضعتها أمامى فأخذت أمى تصب لى الشـــاى الثقيل فى الكوبة قائلة : « بالهنا والشفا ياخويه » ، جعلت أرشف . .

ميلت أمى على أذنى وهمست : « أرأيت نورك كيف ملأ الدار ؟ قلت مداريا دمعى الوشيك : « انت صاحبة كل فضل يا أم » . قالت « لماذا لم تحدثنى عن احوالك يا ولدى ؟ » . قلت : « بخـير والله ياأم » الولية لم تصدقنى فى هذه الكلمة ! لم تصدق أن حالى بخير ، قالت وهى تربت على كتفى : « أعرف انك تتعب ياقلب أمك!» قلت محاولا اعتقال دموعى : « كله يهون من أجلك أنت واخـوتى

يا أم ! فمن لكم غير الله وغيرى ؟ من أجلكم اقطع من لحمى وارمى فى حلة الطبيخ » . ربتت على كتفى مرة أخرى ومرات ثم بـــدات تتثاءب وانخرطت ترقينى وتملس على جسدى بورقة : « رقيتك من عين الحسود يندب فيها عود ومن عين المرة تنقلع بشرشرة ومن عين الراجل تنقلع بمناجل ومن عين كل اللى شافوك ونضروك وماصلوش على الحبيب النبى » . وجاءت أختى « سلمى » بمنقد فيه البخور يتصاعد دخانه ذو الرائحة الزكية وصارت تلف يديها بالمنقد حـول راسى حتى صرت انا الآخر اتثاءب ، ووضعت امى الورقة التى كانت تملس بها على جسدى فى نار المنقد وتركتها تحترق على مهل ثم قالت لى : « شف يا ولدى ان كان القرش يجيئك فى الغربة من حلال فالغربة محتملة الى حين اما ان كان القرش يجىء فيها من .. » . فقاطعتها مرتشعا : « أقول لك الحق ياأم ؟ ان الحلال فى الغـربة غير مباح ! يا أم لا تندهشى ! ان البلد التى كنت فيهـا يسـمونها القاهرة اى انها تقهر الناس من سكانها وكل من يلجئون اليهـــا فى طلب ! تقهرهم على فعل الحرام عينى عينك وفى كل خطوة ! ومن لم يقدر على فعل الحرام تمرغ انفه فى الطين وتفضـح خرمته !. صدقينى يا أم ان الحرام الذى كنت تدفعيننى لارتكابه هنـا اخف بكثير من الحرام الذى يغرق أهل ذلك البلد ! ان حرامنا بســيط لن يحاسبنا الله عليه يا أم ! سوف يغفره لنـا سبحانه على أسـاس انه لعب عيال ! نحن هنا نفعل الحرام الصغير فتقشعر ابداننـا خوفا من الله من عذاب يوم القيامة أما أهل القاهرة فانهم يفعلون الحرام الكبير دون أن يشعروا انهم يرتكبون الحرام ! لو قلت لك انهم يتفاخرون ويتفشخرون بفعل الحرام تقولين كذابا !! » ..

أخذت أمى تفك الطرحة وتعيد لفها حـــول راسها عديد من المرات ، فتخيلت كأنها ترمم دماغها خوف الانهيار ، قالت كأنهـــا تختم الصلاة : « على كل حال جئت فى وقتك ! الدار هنا محتاجة لك تنتظر دخلتك يديمها الله علينا ، وراحت تصب لى الشاى الدور الثانى . فيما ارشف الشاى كانت هى شاردة سارحة فى الملكوت ولكن ظهر على وجهها أنها تدخر لى خبرا اشعر انه شغلها بل انه هو الذى جعل مسالة سفرى او بقائى فى المرتبة الثانية من اهتمامها. بعد برهة ميلت راسها صائحة : « أذهبى ياسلمى ونيمى البـــط والفراريج .. وانت يامندوهة قومى تربى للمعيز واحبسيها .. وياسعدية أذهبى فنيمى هندية وحمود » . لما اطمانت الى أننا صرنا

وحدنا ميلت على قائلة فى غبطة : « صابر ولد صفوان ابو عدس تعرفه ؟ » . قلت : « طبعا » . قالت فى نبرة مرعوشة بالبهجة : « ما قولك فيه ؟ » . قلت : « لى عشر سنوات لم أره ياأم » . قالت : « انه معك فى مصر .. هذه البلد التى كنت تحكى عنها الآن .. يسرح فى الشوارع يبيع الفانلات والسراويل والملايات ومعه قرش ومبسوط وكل بضع سنوات يجىء ليشترى قراريط الارض ! » . قلت : « ما خبره ياأم ؟ » . قالت : « يدور على أختك سلمى ! يرسل نسوان دارهم ليخطبوها منى ! سيعيشها فى مصر ويستتها ! سيشترى لها قرطا وكردانا ومشخلعة وخلخالا وينغنغها فى العز ! » . سرح خيالى برهة فى اللاشيء وما لبثت حتى ارتعش قلبى من الفرح ياخال او من الخوف لا اعرف ، لكننى قلت : «مارأيك انت يا أم ؟ » . قالت : « الذى اراه أن الولد شارى ! بعث لنا ثلاث مرات وجاء بنفسه مرة ! وطلب منى أن ابعث لك جوابا لتحضر او اعطيه عنوانك فى مصر ليقابلك ففضلت الا يراك فى بلاد الغربة وكنت ساكتب لك جوابا بالمجىء ولكن الله ارسلك ! انه سبحانه يعرف بخت البنية ولسوف يعجل بسترها ! » . قلت : « على بركة الله ياأم ! على بركة الله ! انه طول عمره ولد طيب ابن حلال وجدع » . قالت امى كأنها تعلن موافقتها النهائية : « ربنا يكتبها من نصيبه ! » .

المسألة جاءت سهلة يابوى ومثل العسل ، لم تستغرق والله شهرا قرانا فيه الفاتحة وعقدنا القران وسافرت أختى « سلمى » الى مصر فى زيطة وزمبليطة كبيرة ، وكنت معها وانا وأمى واخوتى حيث اطمأنت نفوسنا وتأكدنا أن لابنتنا دارا وعفشا وسترا ، وعدنا الى الصعيد بعد يومين اثنين .

صرفنا القرشين وبقينا كما خلقتنى يارب ترزقنى . سبحان الله يابوى ، ففى نفس الشهر جاءنا من يخطب « مندوهة » ، هو الآخر ولد يعيش فى مصر منذ بضع سنوات ويشتغل نفس الشغلة ولكن فى وكالة البلح ، حيث يجلس بعربة يد صغيرة يصنع منها دكانا متنقلا يتسع بكثرة تصريفه فى البيع اسمه « نصر الأقرع » واعرفه ولدا اجدع من سابقه ، فقلت : « على بركة الله » . عقدنا القران فى انتظار ان ينتهى العريس من بناء شقة يتملكها على أرض يضع يده عليها فى منطقة مهجورة خلف صحراء المماليك من

جبل المقطم . فى شهر واحد لعلعت فى دارنا الزغاريد مرتين واضيئت شموع الفرح مرتين وجلس على كرسى الكوشة عروسان مزوقتان احداهما سافرت والأخرى على وشك السفر .. « عقبال سعدية وهنومة يارب ! اللهم أرزقنى عمرا حتى أراهن جميعـــا فى بيوت ازواجهن وامسح لهن جميعا دماء شرفهن وخلاصـــــهن وغائط اولادهن ! اللهم اسعدهن ! اللهم استر عرضهن ! وبلغهن كل امانيهن! اللهم أرض عنك ياحسن ياولد بطنى ! » ..

هكذا راحت امى تبتهل بصوت مخيف راعش ، رافعة وجهها نحو السماء باسطة يديها . أخذت والله احبس دموعى حبسا .

الثانية - بصـــرة بالبنــت

قلت لأمي في لحظة صفاء : « يظهر أنه مكتوب لنا لقمة عيش في مصر ياأم ! ولابد منها ! » . قالت : « يفعل الله بنا ما يشــاء فنحن أولاده وهو مسئول عنا ! وليس هو سبحانه بالذي يفرط في المسئولية ! حاشا لله ياولدي ! لا تكفرنا ! » . رحت أتفكر في أمر العودة الى القاهرة ، مخففا وقع الأمر على نفسي بأن الله قـد ساعدني من حيث لا أدري فخلصني من نصف المسئولية ولا بأس من الغربة سنين اخرى ، فاذا بأمي تقول : « من غد تتوكل على الله يا ولدي فتبحث لنا عن رزق نعتمد على الله وعليه مدة سـفرك الى ان يكرمك الله وتبعث لنا بالحوالة » . قلت : « فعلا ياأم ! صدقت ! غدا يحلها الحلال الذي لا يغفل ولا ينام » ..

الليل بطوله وأنا مفنجل العينين ياخال ، مخي يضرب يقلب ، هاتف جواني يقول لي : قم الآن يامغفل وأسرح في هذه الفلسـة قبل خروج المصلين من صلاة الفجر وأنت ونصيبك فالله لن يردك خائبا !! وهاتف لعله من السماء يزعني قائلا كيف بعد ان صرت رجلا محترما يوقرك الناس تفعل افاعيل كهذه ؟! افرض أن الطوبة جاءت في المعطوبة وضبطوك متلبسا فماذا تفعل أمام فضيحة بجلاجل ؟! وهاتف ثالث يقول لي تعقل ياحسن فأنت غائب عن الصعيد لك مدة كبيرة وقد صرت كالغريب أعمى ولو كنت بصيرا .. الله اكبر نطق بها صوت المؤذن فدوى من خلفه صوت أمي زاعقا يرج الأرض من شدة ما فيه من ترج واستعطاف : « الله أعظم والعزة لله .. لا اله الا الله محمد رسول الله » . فتأكد لي والله يابوي أن الله لابـد قد تأثر من ضرعة أمي هذه بصوتها هذا الذي يفتت الحجر . تقول كافر لو قلت لك أنني قد رأيت الدهول ينشق في دماغي فجـاة بشرخ سرعان ما أتسع وبرزت خلاله دموع تتساقط من عين مجهولة في العلو على خد يشبه سحب السماء الصافية ! ..

سحبت جلبابي الكشمير فارتديته ومضيت نحو الباب . تقلبت أمي ، قالت : « رايح فين ياحسن ؟ » . قلت : « أصلي الفجـر

يا أم » . قالت كأنها قد أحست أن صلاة الفجر هذه مجرد اسم لمشوار آخر أنوى القيام به : « الله معك ياولدى ! ادع لنا بالستر ! » . قلت : « يصل باذن الله » ، وخرجت ، فقامت هي وأغلقت الباب من ورائى بالترباس .

شققت طريقى الى المسجد الذى لم اكن دخلته فى حياتى من قبل رغم أنه على مبعدة ذراعين من دارنا . خلعت صرمتى القديمة ودخلت فتوضأت واندسست بين صفوف المصلين فجاءتنى راحة كبيرة ، هبط الغليان فى صدرى ، تيقنت من أننى قد وكلت الله حقا فى التصرف فى أمرى . الله وكيل يابوى مافى ذلك شك ابدا . فونحن نختتم الصلاة لاحظت أن رجلا محترما يطيل النظر الى من تحت لتحت يتأملنى حتى اوشكت على الخوف منه ، فلما سبق من يجاورنى الى الانصراف تزحزح هو جوارى حتى حاذانى ومد لى راحة يده قائلا : حرما ، فلامستها براحتى قائلا : جمعا أن شاء الله ، وقبلت راحة يدى. قال الرجل: « السـتحسن ولدأبوضب؟». قلت : « صدقت » . قال : « فكيف لاتعرفنى ياولد ؟» . قلت : « العتب على النظر » . قال : « انا الحاج دعدور صاحب الجناين » . صحت قائلا : « يه .. يه .. يه .. ابى كان يخفر لك ماكينة المياه » . قال : « والجناين كلها .. رحمه الله كان شديد الحب للعمل » . قلت : « خلف لك طيلة العمر .. لقد كنت أيامها طفلا صغيرا فاعذرنى » . خرجنا معا من المسجد وقد بدأت انتشى لظهور شدة الشبه بينى وبين أبى رحمه الله . كلمة منى وكلمة منه ، انت فين واخبار الشغل ايه ، وحمد الله على السلامة ومبروك ما عملتوا . لم نكد نصل الى نهاية الشارع حتى كنا قد اتفقنا على أن أخفر له الجناين لموسم العنب فى مقابل ثلاث تلاليس من الذرة العويجى ، خلاف كسوة واكل وشرب لمدة ثلاثة اشهر . بالصلاة على النبى طلعنا من المسجد على الجناين فتسلمتها وتممت عليها وعلى المكان الذى سأبيت فيه وفهمنى أن من بين عملى الى جانب الخفارة أن اجلس امام الجناين بفرش كبير يضم اقفاصا مملوءة بالعنب الفرط المطلوب بيعه وأكله فورا قبل فساده .

الجناين قديمة ، لكن المبانى زحفت عليها حتى باتت الجناين كأنها فى وسط البلد . قصادها مباشرة دار صغيرة محندقة فيها فتاة جميلة تقول للقمر قم لأجلس مطرحك ، ويقول لى قم فلا تجلس ابدا . ذهبت بعقلى ياخال ، تقول سحرتنى ! برجلتنى ! لخبطت

غزلي ! انستنى الخفارة وكل شيء ! الملعونة بنت الملعون تقف أمامى تتركنى ابصبص لها فاعلا بعينى الافاعيل ! ولربما ينبهنى المارة الى أن المعيز والدواب الفاتنة قد حودت على أقفاص العنب ونزلت فيه أكلا على راحتها فيما انا المنسحر مسمر فى مواجهة الفتاة الملعوب ذات الوجه الوردى والبدن المتلعبط كالبلطية تحت ثوبها الواسع ! كانت تتعمد برجلتى واللعب بمخى اذ هى تكثر من المرواح والمجيء على الدوام تتقصع تتلوى تشد كل العروق فى مفاصلى ، فأروح أنادى على العنب واضعا فيه كل الصفات الحميدة أبثه لواعجى واشواقى أعتب عليه تعذيبه لى وثقله على وتأريقى فى انصاص الليالى .

المضروبة لم تهدأ . فوجئت بها ذات عصرية تدخل على الحاج « دعدور » حاملة قفة كبيرة . ظننت والله انها دخلت تدس فى حقى لديه وتشكونى ، فتسللت وراءها بصنعة لطافة وتلكأت بجوار الحاج دعدور . فاذا بالبنت تطلب من الحاج دعدور أن يبيعها خمسين رطلا من العنب على أن تدخل هى وتنتقيه . قال لها الحاج « دعدور » وهو يضع النقود التى أخذها فى محفظته : « ادخلى فانتقى كيف تشائين ولكن هل تجيدين قطف العنب ؟ والا انفرط منك » . قالت البنت : « ابعث معى بهذا يقطع لى » ، وأشارت الى ، فرقص والله قلبى من الفرح ووقفت انتظر ، فصاح الحاج دعدور : « ادخل معها ياحسن وخذ معك المقص الحامى » . قلت فى امتنان شديد : « حاضر ياحاج » ، وأشرت الى الفتاة أن تتبعنى . ظللت أمشى داخل الجناين أكثر من ثلاثة كيلو مترات ، اختفى الحاج دعدور وصرنا وحدنا لا عين ترقبنا سوى عين الله . توقفت الفتاة عند تكعيبة مثقلة بالطيب الناضج وقالت : « أقطف لى من هنا .. واقطف لى من هنا » ، فأشرعت المقص ورحت انتقى من التكعيبة أطايب العناقيد فأقطفها بحكمة وارصها فى القفة وهى واقفة ترقبنى وتكتم ابتسامة شقية بين شفتيها . صدقنى ياخال أننى لم أعرف حتى الآن سر هذه الخيبة التى حطت على ! لقد كنت انشال وانحط فى سبيل أن تحن على بكلمة أو تنفرد بى لحظة فى مكان ! فما بال ولد خالك يقف هكذا كاللوح اللطزان بعد أن جاءته الفرصة وصار معها فى خلوة بعيدة ! . كل ما أدريه أن سهم الله قد أصابنى فشل حركتى وأعجز لسانى وحول عينى فاندمجت فى قطف العنب ورصه بحماس وجدية ، فلما امتلأت القفة امسكت بطرفها وشيلتها،

فما استوت القفة على دماغها حتى نظرت لى نظرة فيها الهزء كله والسم كله ، فانخفض بصرى الى الأرض ، فاذا هى تلفظها ، تلك الكلمة اللعينة التى لم أكن أتوقع أن تنطقها : « ... أمك » ، ثم دفعتنى بيدها دفعة واحدة تهاويت منها متطوحا أتساند على الهواء . لحقت بها جريا وانا أصيح : « الله .. الله .. طب حقك على .. تعالى .. تعالى بس » ، لكنها لم تلتفت الى ومضت تتبختر تحت القفة الثقيلة ومضيت اجرجر اذيال خيبتى ولو كان معى مسدس فى تلك اللحظة لأطلقت كل رصاصه على نفسى . منذ تلك اللحظة انزرعت هذه البنت فى قلبى ولم تفارقه ليلا أو نهارا كأن بينى وبينها ثأرا لابد من تصفيته !.

انتهى موسم العنب يابوى ، واوشكت التلاليس على الانتهاء هى الأخرى . هم يضحك وهم يبكى !! تصور اننى وقد صرت عاجزا عن شراء ورقة دخان لف أفكر فى خطوبة هذه البنت ؟! يظهر اننى من لخمتى وصلت متأخرا ، الأيام التى مرت لم تكن طويلة ، لا تزيد عن جمعة ، غبتها فى مشوار أحصل من ورائه لقمة عيش ، حيث قد لجأ الى نفر من المطاريد فى أن أساعدهم على بيع زريبة مسروقة قوامها جاموسة وبقرتان عشار . وفقنا الله بفضله وفضل العبد لله فى تسريب البيعة الى بلد بعيد بسعر مربح للطرفين ولى بطبيعة الحال ، أخذت حقى من الطـرفين ورجعت عامر الجيب والقلب تداخلنى ثقة فى اننى سأجرؤ على تخطى عتبة دار الصبية لأجلس فى حوشهم طالبا القرب من ابيها ، ومكسبى من السريقة المباعة ليس بالذى يمكننى من قراءة الفاتحة وابتياع هدية ثمينة للعروس والوعد بما لذ وطاب لكنه كان مجرد عتبة اتخطاها ولسوف أعود من أجل خاطر عيونها الى مصر راغما صاغرا وعلى قلبى أحلى من العسل . لبست جلبابى الكشمير واللبدة الجديدة والمركوب الوردى اللون ، وزودت علبة دخانى بكيف يزن أوقية ، وذهبت أخطر نحو دارها آملا فى تلقفها وتبليغها انى قادم لخطوبتها فعليها أن تمهد لى الطريق الى أبيها . لكننى فى ذلك اليوم لم أصادفها فى الشارع . تلكأت فى كل مكان ظننتها تتواجد فيه ، كدت والله أطرق البـاب وانادى عليها بصوت عال وبلا حياء صائحا : افتحى ياحنة — ذلك ان اسمها « حنة » — بل كدت والله ادفع الباب وادخل كما فى المواويل قائلا انا قتيل المحبة ...

تنطعت متوقفا جوار باب دارهم تحت شباكهم كأننى انتظـر

رسولا منهم وكانني في نفس الوقت أقف في شارع الله الذي يحق لكافة الخلق الوقوف فيه . لففت أكثر من خمس سجائر دخنتها في عجلة وعصبية ونسيان ، اذني قد غادرتني وتربعت . صحن دارهم من الداخل لعلها تلتقط لي من بين الأصوات صوتها فلم يبلغني طوال وقوفي اي صوت ، وعيني منتزعة من مرقدها تحت جبهتي وراحت تمتد في كل مساحة خالية تبحث عن طيفي فكأنما نظراتي اشعاعات كشاف ترنحه الرياح ، فلما لم يعلق بها طيفها انطفأت خزيانه خسيرة . وهكذا اغمضت عيني واشعلت سيجارة واخذ دماغي يسترد نفسه ليفكر بهدوء في الأمر . دهمني والله احساس مفاجيء بأن الشؤم قد حالفني اليوم معها ! اذ انني لم أكن أصدق ان تختفي فجأة هكذا يا خال ، وهي التي كانت تروح وتجيء في الدقيقة الواحدة ستين روحة وجيئة وكانت تبقي موجودة في الشارع كله حتي وهي داخل دارها . جاءني احساس بأنها الآن لابد أن تكون في خلوة مع أحد ، ففار دمي فورانا ، واوشكت أجري في الخلاء بنبوت أشج به راس كل من يلقاني . لم يسعفني الا طفل صغير من ابناء جيرانهم رأيته يلعب بجواري ، لاطفته سرحت به ، عرفت منه ان « حنة » انتقلت هي وأمها برفقة ابيها الى بلدة « اولاد الياس » المجاورة حيث ستبقي هناك طويلا الى أن يعود العمدة ! ..

سبحان الله يابوي . خطر في بالي أن « حنة » هي ابنة «أبو سكين» الخفير الخصوصي والمرافق للعمدة أينما ذهب . والعمدة له زرع عريض في النجع القريب منا ، يحلو له أن ينقل محل اقامته الى هناك ليكون ساهرا بحق على رجاله . لما تذكرت ذلك خفت لبرهة ثم حمدت الله أن نزل على سهم الله حين انفردت بها في الجناين . ثم قلت : ما من بد ، فلا بد ان أراها ، ولآخذن معي واحدا من صحاب عمري القديم أو بالأحرى من صحاب أبي ونقصد الكريم الى دارهم ..

في الصباح بحثت عن أحد يذهب معي فلم أجد . فاغتظت أيما غيظ : فلأذهبن وحدي بنفسي من أجل نفسي الست رجلا يملأ العين ؟ وقد كان .

ادركني الضحى على الطريق وانا اتنسم ريح « حنة » وعطرها كلما اقتربت من حدود « أولاد الياس » . الى أن امتلأت خياشيمي برائحتها النفاذة ، فتلفت حولي ، فاذا بـ « أبو سكين » الخفير يخرج من غيط القطن المجاور لي ، والعمدة يتحنجل أمامه متقافزا فوق

الزراريق منفوخا يكاد الكبر يفرتكه ، وكان الشر باديا عليه حين ارسل نظرة سيئة الى جوارى فنظرت فاذا بولد صغير قد سرق ملء حجره قطنا وها هو ذا يقف مشلولا بسريقته يتلبسه الذعر . انقض عليه العمدة فأمسكه من كتفه وهزه بعنف ولعن آباء الذين خلفوه ، رمى به الى « أبوسكين » الخفير . ضربه « أبوسكين » بالكف على وجهه ونزع ما معه من قطن ثم تركه نظرت فى الولد فعرفته وعرفنى ، انه ولد غلبان وعلى قد حاله ولكن يكفيه صيتا أن « عبد الرحمن ملك الموت » عمه لزم ..

عم الولد اسمه « عبد الرحمن » على اسم سيدنا عبد الرحمن عزرائيل الذى يقبض الأرواح بأمر من الله جلت قدرته . ولأن عبد الرحمن كان قويا كحصان فتى عملاقا كمئذنة ضخما كفيل شرسا كحوت فانه كان اذا ضرب واحدا براحة يده فقل عليه يارحمن يارحيم فما بالك لو ضربه ضربا حقيقيا ؟ اذا نزل فى عركة فلن يجرؤ مخلوق مهما كان جعيصا أن يقف قبالته . كان منظره يفض الخناقة فى عزها ، يكفى أن يعلن انحيازه — ولو بكلمة — لأى طرف ، فعلى الطرف الآخر ان يجمع رجاله وحطام خسائره ويفضها. « عبد الرحمن ملك الموت » كان جبارا مكارا خبيثا غبيا ، يبيع نفسه بيعا وعلى المكشوف ، ياويلك لو خلفت معه اتفاقا تم بينكما باللسان لن يجدك أهلك ذات لحظة بكل بساطة ، واذا كانت الحكومة شاطرة تجىء بأى أثر لأى جريمة . وقد عجبت والله يابوى كيف نسى « أبو سكين » كل هذا فى هذه اللحظة ؟! كيف تهور وضرب الولد على وجهه بقسوة ؟! قلت فى عقل بالى : حقا ان الخادم المذعور من سطوة سيده يبقى سلاحا اعمى فى يد سيده . عذرت الرجل لما رايت سحابة خوف وندم تمر على وجهه ، وقلت : ربنا يستر .

ألهمنى الله بكلمتين طيبتين هدأت بهما العمدة وانتهزت الفرصة فسلمت عليه وعلى الخفير فكرتهما بأعمامى الفقهاء ومضيت خلفهما حتى ماكينة مياه العمدة تحت مجموعة متكاثفة من أشجار التوت والجميز والصفصاف والكافور ، حيث جىء بكرسى من حظيرة منزوية جلس فوقه العمدة ، واقعى الخفير « أبوسكين » تحت قدمى العمدة على الارض . رميت السلام وشرعت أنصرف فقال العمدة على سبيل المجاملة : « اقعد اشرب الشاى ياأبوالعم » . قلت فى امتنان : « تشكر ياعمده كلك واجب » . وقال « أبوسكين » فى

ود صادق : « استرح ياابوالعم فالطريق طويل » قلت : « ابوالله حق الله » ، ثم أقعيت بجوار الخفير تحت قدمى العمدة منكسا راسى فى الأرض صامتا . صرت كالغريق فى بحر ياخال ، عقلى يقول لى تكلم ياعبيط هذه فرصتك جاءت لحد عندك ومن حسن حظك ان العمدة حاضر ومحضره قد يجىء خيرا لك . لكن عقلى يرجع فيقول لى اعقل يا ولد ! فضك من شغل الحب والغرام ولعب العيال ! امك شىء حتى تتشملل وتجىء لتخطب ! وابنة ابوسكين الذى يستطيع بقربه من العمدة أن يضرك ويمشيك على هواه ؟! وعلى فرض أنه وافق فمن يضمن لك أن ظروفك ستعينك على تنفيذ ما تتفق عليه مع الرجال ؟ احمد الله أنك لم تتكلم ولم يصدر عنك شىء يفضح صفر عقلك ! ..

لحظتها ياخال ، زحف امام عينى المنكستين طيف على شكل ظل ملأ الدنيا برائحة اللقاح والبذور ورائحة الحنطة ! فى أسفل الظل كعبين مستديرين كالريال الفضة يتسحبان على الارض وتختفيان مع ظل الطيف ، الا والعمدة يقول : « كتر خيرك يا حنة » انتفضت كالطفل الصغير يسمع زمارة بائع الحلوى ، ورميت بعينى فى كل اتجاه لعلنى أراها ، لكنها كانت قد اختفت . خفت أن أكون فضحت نفسى فنكست راسى من جديد فاصطدمت عينى بصينية الشاى النحاسية عليها كوبات الشاى ..

يمين بالله ياخال ماكدت اضع كوبة الشاى على شفتى حتى سمعت دبيبا عفيا فوق الارض ارجف الكوبة بين اصبعى ، فرفعت راسى ، فتلبسنى الذعر فى الحال ياخال ، اذ رايت « عبد الرحمن ملك الموت » مقبلا يمسك بنبوته الشهير يجر خلفه الولد الذى انضرب . الناس فى بلدتنا اذا رأوا « عبد الرحمن ملك الموت » ماشيا بنبوته ايقنوا أن طلعته لن تخيب ابدا ولابد أن تسفر عن قتيلين او ثلاثة فى لمح البصر ! ..

دخل « عبد الرحمن ملك الموت » نحونا فكأن الدنيا قد غيمت قال فى اريحية وبكل ود وطيبة : « السلام عليكم يا عمدة » ، ثم أقعى بجوارنا ، ونظر لولد اخيه المضروب قائلا بابتسامة تشجيع : « شوف ياولد من فى هؤلاء ضربك » واشار نحونا . كيف تم كل ذلك فى لمح البصر يا خال ؟ يعلم الله كيف ولكننى فوجئت بنفر من ولد أخ « عبد الرحمن ملك الموت » قد صاروا واقفين بالنبابيت حولنا من كل جهة . اشار الولد الصغير الى « ابوسكين » الخفير وكانت

البندقية الميرى لا تزال معلقة فى كتفه ، فاذا بالنبابيت تنهال عليه كالمطر ياخال . فلفص الخفير وانطلق يجرى فى الطريق والولدان يجرون خلفه يلاحقونه بالنبابيت كلما طالوه ، الى أن سبقهم بمسافة واستدار رافعا البندقية فى وجوههم ثم أطلق عليهم الرصاص فأوقع بثلاثتهم على الأرض قتلى غارقين فى دمائهم .

« عبد الرحمن ملك الموت » رأى جثث ولد اخوته مجندلين على الطريق فانتفض واقفا يبغى اللحاق بالخفير ، فاذا بالعمدة — وكان هو الآخر غبيا كبغل استرالى — يطبق فى « عبد الرحمن ملك الموت » يطوقه بذراعيه بكل قوته فصارا يهزان بعضهما كجبلين ملتحمين والخفير واقف منهما على مقربة لا يعرف ماذا يفعل ، العمدة يصيح به : « اقتله ! اقتله هو الآخر ياعبيط » . وكان « عبد الرحمن ملك الموت » قد بهدل العمدة واوشك يمرمغ به الأرض ، وكل منهما يدور بالآخر فى دوامة ، والخفير يصوب ماسورة البندقية فى جنب « عبد الرحمن ملك الموت » ويضرب ، فتخرج الرصاصات من الضلع الآخر مخترقة صدره بالعرض . وهنا تركه العمدة فوقع ، لكنه نهض فى الحال ، اندفع يجرى خلف الخفير والدم ينزف من جنبيه ولا اعرف كيف التقط نبوته ثانية واغلب الظن أن نبوته هو الذى طار اليه ، وكان العمدة يجرى خلفه ليحول بينه وبين الخفير الذى تعثر فوقع فى المصرف . بحركة بهلوانية استدار « عبد الرحمن ملك الموت » مرتدا فى قفزة واحدة حيث هوى نبوته على رأس العمدة بضربة واحدة سقط العمدة بعدها وشظايا من مخه تتناثر فى الهواء كزبل الحمام . ثم أن « عبد الرحمن ملك الموت » قفز قفزة اخرى نحو المصرف مباغتا الخفير بضربة اخرى فوق اذنه ، وكان لحظتها يحاول تخليص البندقية من طين المصرف فسقط واياها فى الطين جثة هامدة ، فوقها سقطت جثة « عبد الرحمن ملك الموت » هامدة ، أما نبوته فكان من عزم الضربة وانفكاك اليد قد طار بعيدا ليصيب العمدة بضربة اخرى — عفوية هذه المرة — فى صدره !! ..

واه يابو ..و..ى.: واه ، ست جثث مرمية على الطريق وفى المصرف الراكد تنتظر قدوم النيابة اربعة أيام بخمس ليال تضرب فيها الشمس حتى تعفنت . يمين الله ياخال ان الرائحة الكريهة بقيت كاتمة على انفاسنا جميعا بسنين طويلة ، والخوف

كله بات ساكنا عند ماكينة مياه العمدة وعفاريت القتلى تتسلق الاشجار والحظيرة تكيد للبشر ليل نهار ! ..

اندفنت الجثث ، والنيابة التى يهمها التصريح بدفن الجثث لم يعد يهمها الامساك بأحد ممن يعتصمون بالجبل ، كأنما الجبل يخرج عن حدود مسئوليتها ، والواقع يابوى أنه يخرج عن حدود طاقتها وقوتها . وكان العمدة قد تكفل بتهريب زوج الخفير وابنته . أهل الموتى دفنوا موتاهم فى صمت كأن شيئا لم يكن ، حتى بدا كأنهم سلموا أمرهم الى الله بعد سقوط زعيمهم . سبحان الله يا خال ، على خطورة هذا الحادث الكبير فانه مر كما يمر أى حادث ، نسيه الناس فى بحر أيام قليلة ! ..

ما أدرى الا والعمدة الجديد ابن عمه يبعث خفيراً محترماً فى طلبى أتيت بقلبى من بين ساقى وقلت لابد انه ينوى أن يستشهد بى ويجرجرنى فى محاكم ونيابات وانا جسدى متلبس بها من حاله فلا يطيق منظرها . فكرت أننى لابد لى من الهرب يابوى ! أيضيق بى الصعيد هو الآخر واضطر للهروب منه ؟! لم يعد امامى أنا الاخر سوى الجبل أعتصم به ! ولكن هل أنا قد الجبل ؟ طب وامى واخوتى يابوى من يرعاهم ؟! وما لزوم الجبل ؟ وما لزوم الهرب ؟! الصراحة حلوة ! الكلمة الطيبة أحسن ! أحلى ! كلمة حاضر ليس أريح منها ! قل حاضر لمن يلح عليك وافعل ما يحلو لك بعدها فى السر أو فى العلن فلن يعترض أحد !! ..

بحلقت فى عينى الخفير فلم أجد فيهما عكارة تشى بأن فى الامر ضررا ، فتوكلت على الله وذهبت معه . خير يا عمده ؟.

لدهشتى سلم على يدا بيد وقال : « اجلس »

فاقعيت على الارض بجوار الكراسى الخالية ..

قال : « ياحسن ياأبوضب » ..

قلت : « نعم ياحضرة العمده ؟ » ..

قال : « مابقى فيك من لبن أمك ؟! » ..

قلت : « كله بعون الله ياعمدة » ..

قال : « أعرف والا مابعثت لك ! » ..

صار قلبى كالمشبوك فى خيط مطاط يلعب به صبى . لكننى استطعت ان أقول : « ملك يمينك ياعمده » ..

قال : « بحثت فى البلدة كلها عمن يكون قد بقى فى بدنه شىء من لبن أمه فلم أجد فبعثت لك .. هات شايا ياخفير » ..

قلت لنفسي أهلا وسهلا ، وتوقعت أن يكلفني بقتـــل أحـد الاشقياء ، وبدأت افكر فى حيلة اخرج بها من المزنق . دخل الخفير بالشاى فى الحال ، للعمدة ولى . .
وقال العمدة وهو يشفط : « شف ياحسن .. الحكاية وما فيها أننى ابحث عمن يخفر لى ماكينة المياه طول الموسم .. وكل من عرضت عليه الأمر يخاف من عفاريت الجثث !! » ..
قلت باسما وقد هان الأمر على نفسى : « معهم حـــق ياعمده فماكينة المياه مسكونة » . قهقه العمدة ضاحكا وقال مشـوحا فى وجهى : « عفاريت ايه يارجل ! انت رجل ميت القلب وابوك أحسن من خفر المكن .. اسمع .. لسوف اجعلك مبسوطا على الآخر طوال الثلاثة الأشهر مدة الموسم » ..
فى هذه اللحظة يابوى ، الله وكيل يابوى ، طقت الفكـــرة فى دماغى لا اعرف كيف ! قلت له : « رقبتى فداؤك ياعمده لكن لى طلب واحد فقط لو نفذته لى .. » . فهز راسه فى قبول حســــن وقال مشجعا : « قل عليه » . قلت : « أريد أن أتزوج حنه بنت ابو سكين » ..
انقلب وجهه فى الحال يابوى ، وظهر عليه الغضب الكبير حتى خلت انه سيرفسنى فى وجهى بقدمه ، الا انه تلطف فى الحـــال قائلا : « زواج ماذا يابوالعم ؟! نحن فى جناز ! هل هـــذا وقته بذمتك ؟! » . خجلت من نفسى والله ياخال ، ومادت بى الأرض ، فقلت : « معك حق ياعمده ! كان يجب أن أميز ! » . قـــال : « سأعطيك فى الثلاثة الأشهر ثمانية تلاليس من الذرة ! » ..
ثمانية تلاليس يابوى ، كمية كبيرة والله يا ابو العم ، اربع وستون كيلة تستر جوعنا وعرينا زمنا طويلا ، فقلت : « موافق ياعمده ! وربنا معى باذن الله ! » . فنادى على خفيره أن يرسل فى أعقابى اربعة تلاليس من الذرة العويجى الى دارنا مقدم اجرة أحصل على باقيها قرب انتهاء الموسم .

الثالثة ـ عصـــف الريـــح

الليالى طويلة ياخال ، والشجر أشباح مقيمة تضاعف من عمق السواد الكاحل ، وقلبى واقف بين جنبى ياخال ، فلا ارى الا شبح « حنة » محفوفا بعفريت عبد الرحمن ملك الموت الذى يتمها فى ضربة متهورة غشيمة ، أهو الشؤم أم قلة البخت ؟ أم أنه موعظة من الله يسوقها لى كى اتعظ واصرف نظرى عن « حنـــة » ؟! وهل الامر بيدى يابوى ؟! لو كان غيرى فى مكانى لضرب هذه البنت بالصرمة القديمة ورفض الزواج منها ، لقال أنها سهلة المنال ترمى نفســها تحت أقدام من يرغبها وليس بالضرورة أن ترغبه !! عقلى يقــول لى هذا الكلام دائما ، وارد عليه مصدقا له ، مع ذلك ما أن تخطر « حنة » على بالى فجاة حتى ينتفض قلبى كعصفور معلق فى خيط من المطاط . تقول عنى كاذبا مجنونا لو قلت لك أنى دخلت الحظيرة التى كانت تعيش فيها « حنة » قبل الحادث فتنسمت رائحتها قوية نفاذة مريعة ياخال . قل عنى ما يحلو لك لكننى لم يكن يهنأ لى نوم الا فوق مصطبة تخيلت انها كانت تبيت فوقها !!

انتهى الموسم على خير وبركة ، ورزقنى الله بحفنة جنيهات بعت بها سواقط من زرع العمدة ، وعمرت الدار بخزين يكفيها شـــهورا ، وعمر جيبى بمدد يكفينى للسفر ..

رات أمى أن تعد لى لقمة طرية آكلها فى الطريق أو بعد وصولى ، ما كان لها لزوم ولكن هل اقدر ان أقول هذا لأمى ؟! .. بالأمس أجلت سفرى حتى تغسل لى ثيابى ، واليوم تؤجله حتى تصنع لى لقمة ، وغدا يعلم الله اى سبب جديد يطرا عليها فتؤجل السفر من أجله !!.

قمت أمشى فى البلدة قليلا املأ منها خواطرى قبل أن أودعها . كنا فى الضحى والجو كئيب ملىء بالرياح المتربة رايت جماعة من الرجال يجلسون على مصطبة بجوار دكان الخياط . سلام عليكم ، عليكم السلام .. جلست جوارهم . كان الراديو يرفع عقيرته بالغناء الحماسى ، وكل الأغانى تقول : مصر مصر مصر مصر وكلاما كثــيرا

غريبا . قلت : « ما هذه الاغنيات ؟ » . قالوا : « مالها ؟ » . قلت: « فيها جر شكل كبير » . قالوا : « سمعنا الراديو منذ برهة يقول ان ثلاث دول كبيرة هى فرنسا وبريطانيا ومن تسمى باسرائيل قد هجموا على مدينة بورسعيد ــ الباسلة ــ وان الله نصر ابو عبد الناصر عليهم » . وكان صوت « أم كلثوم » يغنى قائلا : صوت السلام هو اللى كان واللى حكم !.. قلت : « يه .. يه .. يه مصر اذن بخير يعنى أم لا ؟ » . قالوا : « العلم عند الله » . قلت : « مسافر انا اليها فى الغد» . قالوا : «سلم لنا علىّ على ولد ابو عبدالناصر». قلت كأننى سأفعل : « يوصل » . ثم خفت يا بوى ، قلت لابد ان طيبة قلب أمى هى التى عطلتنى من أجل فائدة لى ! فهل من المعقول ان ينتصر « عبد الناصر » على ثلاث دول ؟! أما اسرائيل هذه فلم اكن سمعت عنها من قبل يابوى . واما فرنسا وبريطانيا فأعرف اننا كنا واقعين تحت احتلالهم حتى مجىء « أبو عبدالناصر » الجدع الأمير ! هو صحيح جدع وأمير وبطل ، ولكن هل من المعقول أن يحقق مثل هذه المعجزات يابوى ؟!.

عصفت الريح فجأة وأهالت علينا تلاليس تراب ، فأحسست والله أن الجو ينذر بالخطر . مر اثنان من عائلة « عبد الرحمن ملك الموت » يضعان يديهما فى فتحتى الجلابيه، وكانا مسرعين يبدو عليهما الاضطراب والبرجله ، لم يلقيا السلام علينا ، فنظرنا الى بعضنا وقلنا : « استر يارب » ذلك أن مشيتهم ذكرتنا بمشية « عبد الرحمن ملك الموت » . بعدها بقليل فات علينا اثنان آخران من نفس العائلة يمشيان نفس المشية السريعة الملهوجة ولكن فى الاتجاه العكسى . فى أعقابهما فاتت امرأتان تتدثران فى ملسين أسودين ولا يبين من جسديهما اى شىء ، وكان يبدو من شكلهما انهما غريبتان عن البلدة .

تابعناهما بعيوننا حتى اختفتا فى حودة الشارع . كفت الاغنيات فجأة وخرج من الراديو صوت « ابو عبد الناصر » بذات نفسه يهدر بكلام كثير حلو فهمت منه انه يوجد فى مدينة السويس قناة حفرها آباؤنا وكانت فرنسا تضع يدها عليها وتبيع المرور فيها لخلق الله بأموال طائلة وان « ابو عبدالناصر » الجبار اخذ منهم هذه القناة قائلا : جحا أولى بلحم توره . فصفقت والله لهذا الكلام ولما فهمونى معناه على الحقيقة تفجرت صياحا مع هدير السامعين ، هتفت : يحميك !.. يحميك يا ابو عبد الناصر يا جمال ..

الا وصياح شديد يجيء من يميننا ويقترب ، اذ نحن كلنا وقوف ننتظر . واذا برجل يجرجر جسد امراة على الارض وخلفه بضع رجال وأطفال يصيحون ويزأطون ويجعرون فلما اقتربوا منا تبين لنا أن المراة المجرجرة على الارض هى احدى المراتين اللتين مرتا علينا من قبل ، وأن الرجل الذى يجرجرها هو أحد رجال عائلة « عبد الرحمن ملك الموت » الذى مر علينا من قبل ، وكان يصيح من اعماقه : قل انا امراة يا ابن الكلب . والله ياخال لم تمض دقيقة حتى امتلأ الشارع عن آخره بناس من عائلة « عبد الرحمن ملك الموت » وأقاربه، راح كل منهم ينزع عن هذه المراة شيئا حتى عروها كما ولدتها أمها فاذا بالصياح يرتفع ساخرا مستنكرا واذا بنا ننظر رجلا كامل الرجولة واذا هو « عجرود » ابن العمدة كان متنكرا ليهرب من البلدة قبل أن يفكر ولد عم « عبد الرحمن ملك الموت » فى اصطياده ، ولم يكن يعرف انه خرج من جحر الدار الى المصيدة نفسها . و .. يا زين صلى !!..

مجزرة يابوى ؟ جهنم الحمراء انطلقت ؟ فئوس وكريكات وبلط وسكاكين ومخارط ومناشير ، غير العصى والنبابيت .. كل ذلك راح ينهال فوق جسد « عجرود » ابن العمدة الوحيد ورفيقه الذى كان متنكرا فى رحلة الهرب .! الناس الناس يابوى رات المنظر هكذا فأخذت تنصرف من كثرة البشاعة ، حيث سقط جسد « عجرود » المسكين على الارض رأسه مفتت كراس الذبيحة . جاءت نساء من عائلة « عبد الرحمن ملك الموت » يجرين نحو الجثة ، ملن عليها ورحن يشربن من دمها كما يشربن عصير القصب ، ويقمن يمسحن الدم عن شفاههن ، ونساء أخريات مررن فوق الجثة سبع مرات ، ثم انهالت السكاكين والبلط تقطع فى لحم عجرود ورفيقه وترمى للكلاب التى تكاثرت وانسعرت . ووالله لم يتبق من جثتهما سوى بقايا عظام وأظافر ، وحصيرة دم راحت الكلاب المستضعفة تلعقها فى سأم !!..

كل ذلك ونحن جلوس فى اماكننا يابوى . فى العصر جاءت عسكر الحكومة واستجوبت من لقيته من الناس ، فلم يفتح احد فمه بكلمة ، فانصرف العسكر دون ان يقبضوا على أحد مروا فى طريق عودتهم بدار تنبعث منها الزغاريد العالية والطبول والدفوف الراقصة ، ولو سالوا عن الدار التى ينبعث منها هذا الفرح لقيل لهم انها دار « عبد الرحمن ملك الموت » ، ولو فكروا فى الفرجة على هذا الفرح

لراوا صيوان العزاء قد اقيم وبدأ الرجال يرشون الارض ويرصون الكراسي ويعدون الميكروفون .. فاليوم فقط يحق لهم تقبل العزاء فى فقيدهم .

امتلأ جو البلدة بالغبار المسود ، ولم تتمكن أمي من صنع لقمة طرية او فعل شيء بعد الذى رأيناه رؤية العين فى قلب شارعنا فى قلب الظهيرة والشمس مخترقة سقف السماء . وجاء خبر الحرب فى بور سعيد فكسر مقاديفي يابوى وصور لى مصر القاهرة كأنها ماسورة مدفع كبير . قل ان يدى تطاولت على أجرة السكة ، أخذت منها ثمن ورقة دخان لف ، وفى ثاني يوم ورقة ثانية ، وثالثة فى ثالث يوم . آخر قرش اشتريت به سيجارتين مكن فرطتهما ولففت خمس سجائر رفيعة وجلست فى حوش دارنا افكر فى « حنة » . قلبى هذا العلق اللعين يريد أن يربطني بمصيرها ! لا يريد أن يبرح البلدة ويتركها ! اجد نفسي جالسا فى عز الليل وحدى أقول لنفسى ما الذى ستفعله هذه المسكينة الغلبانة التى لم يعد لها أحد فى هذه البلدة ؟! هل يعوضها العمدة المنكوب فى أعز مخلوقين لديه ؟! هل يستطيع اى عوض ان ينسيها بشاعة ما حدث لأبيها ؟ صدقت ياخال اذا قلت لك أننى الوحيد الذى يستطيع أن ينسيها لو أخذتها معى الى مصر بعيدا بعيدا وأريتها من فنون العشق والجنـون الـكامن فى مصر ما ينسيها أهلها وحتى اسمها . آه ــ فقط لو أراها !!.

الأيام تجر بعضها ومزاجي معكر يابوى ، ليس فى جيبى سيجارة ودمى السخن يمسكنى عن طلبها من أى خسيس . دخل علينا شهر رمضان ، أهلا وسهلا شهر مبارك ، هو ونصيبه . أول يوم كنت جالسا ساعة العصر افكر فى ما عسى أن تكون أمى قد أعدته لنا فى الافطار . فى شهر رمضان عند الافطار تخرج الصواني من دور كل فروع العائلة لتمتد فى المندرة ، حيث يتجمع رجال العائلة ويستقدمون معهم من يلقونه فى الطريق او من يعزمونه من قبل أو من يشدونه عنوة للافطار من ابناء السبيل . دارنا هى آخر دار فى الصف منعزلة قليلا لكنها ــ شأن بقية دور العائلة ــ متصلة بالمندرة ، فاذا كنت جالسا فى مندرتنا ساعة الافطار تلاحظ ان للمندرة بابا داخليا يفتح على دهليز مستطيل كأنه شارع داخلى تحفه الجدران وتفتح عليه أبواب الدور على الجنبين ..

تخيلت نفسي جالسا فى المندرة بين الرجال ارقب الصينية القادمة

من دارنا اتخيل منظرها وما سيكون عليه من تعاسة . توهت نفسى بعيدا عن شارعنا ، عامدا متعمدا ، حتى ادركنى آذان المغرب فى جامع فى ناحية اخرى من البلد .. فامسك بى رجل كنت اعرفه من زمن ولم أكن قابلته منذ سافرت الى المخروبة مصر !. راسه والف سيف ان اذهب للافطار معه . ذهبت يابوى ، فاذا بالرجل يقدم الصينية امامى عليها فضلة خيرك اربع فردات من الحمام السمين وسلطانية الشوربة التى لا مثيل لها فى تعمير الدماغ . بالهناء والشفاء أكلنا وشربنا الشاى والذى منه ثم اتكلت على الله مروحا الى دارنا ..

ثانى يوم فى رمضان عدى على خير هو الآخر واستقضيته كلشنكان . ثالث يوم فات هو الآخر لا اعرف كيف . رابع يوم كان يوم اثنين وهو يوم سوق بلدتنا . فى يوم السوق لابد أن تشتعل الكوانين فى كافة الدور حتى دور الفلاية والأرامل ، فالشحاذ نفسه لابد أن يستقضى فى هذا اليوم لحما ويطبخه ، والبلدة كلها من اجعص جعيص لأفقر فقير لا تأكل اللحم الا فى يوم السوق هذا اللهم الا بعض الايام المفترجة وهى لحسن الحظ معدودة على الاصابع كل عام ، وفيما عدا ذلك من أيام فلا أحد يذبح او ينصب سيبة لحم..

فى الضحى دخلت على أمى : « « معك نقود لنشترى لحما يا أم ؟ » ..

قالت : « لا .. ولا مليم » ..

انكسفت وسكت ، ثم خرجت . صليت العصر وضيعت وقتا عند دكان الخياط ، الا وصاحبى الذى عزمنى على الافطار أول يوم مقدما لى الحمام يلتقى بى وجها لوجه على غير انتظار . اندفعت بحماس أعزم عليه أن يتفضل اليوم للافطار عندى ، شددت فى العزومة فاستنام مرة واحدة ولم يترك لى فرصة للتراجع ، بل مضى جوارى نحو دارنا . تركته وحده فى الحوش ودخلت على أمى ، وقعت فى عرضها :

ــ « دبرينى يا أم .. أحفظى لى ماء وجهى .. الرجل جالس فى الحوش بالفعل ولا مفر من تناوله الفطور معنا ! » ..

لوحت أمى بكفيها فى يأس ، قالت فى شفقة :

ــ « ربى اقطعنى .. والله يا ولدى ما أحتكم فى دارى الا على سمن وبيض .. أن شئت ملأت لكما الطاسة بيضا مقليا فى السمن

مع جبنة قديمة ولفت وفجل وجرجير » ..
أمسكت بطوق جلبابي استعدادا لشقه من فرط الشعور بالعار، قلت وأنا على وشك البكاء :
ـ « بيض ولفت ؟! الرجل يؤكلني حماما .. وأنا أعزمه على بيض ولفت ؟! يا للهوان ! » ..
قالت أمي بكل بساطة :
ـ « كل واحد على قد حاله يا ولدى »
شددت طوقي حتى تمزق بالفعل مقدار عقلة أصبع ، وصحت صيحة مكتومة من الغل :
ـ « اليوم سوق ! وكل شحاذ يطبخ اليوم لحما ! وأنا اقدم لضيفي بيضا مقليا ولفتا ؟! اين أضع وجهى يا أم ؟! » ..
تحيرت أمي ، وفى تسليم بالهزيمة فكت عقدة منديلها المحلاوى الصدىء عن أثنى عشر قرشا حلفت بالختمة الشريفة أنها لا تحتكم من حطام الدنيا سواها كانت تدخرها لأمن ذى خطر . لهفت القروش منها وجريت متشمما أنفاسى ، معى ثمن رطل من اللحم نحمد الله عليه فضل وعدل . يممت نحو السوق فلم أجد سوى بقايا عظام وفضلات فروشات الباعة . عدت كاسف البال ياخال . لففت على دور الشارع دارا دارا أسأل صاحبة كل دار :
ـ « عندكيش حمام يا خاله ؟ » ..
ـ « لا والنبى يا ابنى » ..
فعدت الى الدار أجرر ساقى . جلست بجوار ضيفى كأنى فى محزنة اتلقى العزاء ، فتارة يخيل لى أن جلبابي مثقوب من فوق مؤخرتى بالضبط ، وتارة يتخيل لى أننى قد تبولت على نفسى فجأة ، وتارة ثالثة أتخيل أن ضيفى قد رأى كل شيء وأحس بكل شيء . الارض راحت ترتفع امام عينى وتنخفض يابوى ، وتلف ، فرأيت من مكانى فى الحوش نسوان الدار وقد انتهين من المندرة ووضع المساند وتجهيز الطبالى وطشوت الغسيل والأباريق النحاسية والفوط جوارها وصوانى القلل ، والشمس صرفت لونها الأصفر ولبست الأحمر المشتعل وهاهى ذى قد بدأت تتفحم وتذبل جمرتها المتقدة ، واخذ ضيفى يبسمل ويحوقل فى انتظار صلاة المغرب . خلاص يعنى ؟ ساقع فى هذه الوحلة يارب !.. تخيلت نفسى ساحبا ضيفى داخلا به المندرة على الرجال والحيرة تفرقنى تلخمنى لا أعرف

من شدة الحرج على اى طبلية أحود لنتطفل عليها معا متجاهلين طبليتى !! .. فكادت الدموع تفر من عينى ، وسمعت صوت الطشطشة فتيقنت أن امى قد سيحت السمن وطقشت البيض وقلبته فيه . شيء الهى ذكرنى بابنة خالتى « نميسه » وهى امرأة تحبنى وتعزنى كثيرا لاننى أحمل شبها من امهـا المرحومة ، وهى متزوجة فى قبلى البلد وكلما راتنى عزمتنى على الافطار وهددتنى بالغضب أن لم الب دعوتها ، وكنت ـ تهربا من الحاحها ـ قد حلفت لها لأحضرن ذات لحظة طالبا الافطار بنفسي ..

الله وكيل ! ما ان تذكرتها حتى رأيت ابنتها الصبية مقبلة علينا توسع وربة الباب بردفها وتدخل صائحة: «سالخير يا خالتى». فنهضت مسرعا اليها . كانت تحمل على راسها سلة كبيرة من البوص مفطاة بشاش ، ميلت نحوى قائلة : « أمى تسلم عليك وتقول لك ما دمت لا تريد أن تجيء لتفطر معنا فافطارك يجيء لحد عندك ». وتركت السلة فى يدى وانصرفت . قلت : « ياما انت كريم يارب »، ودخلت أجرى الى أمى . رفعت الشاش فرأيت حلة كبيرة ، فتحتها ، وجدت فضلة خيرك لحوما وطيورا وازرا فأخذت السمن المقدوح من يد أمى ودلقته فوق الشوربة وقلت لها : « جهزى الصينية يا أم »، وعدت الى الحوش وقد أحسست أن قامتى قد انعدلت يا خال ، وجرت الدماء فى لحمى الناشف ، وقلت لضيفى بكل ثقة : «تفضل معى الى المندرة » ، ومشينا فى الدهليز المستطيل نحو الندرة أكاد اقول يا ارض اشتدى ما فوقك قدى .

فى تلك الليلة ظللت ساهراً حتى شروق الشمس يا خال ، غير انها اشرقت على فى الطريق وانا متوجه الى مصر بدون نقود لتذكرة وبدون اى شيء . وكنت واثقا والله ياخال اننى سوف أصل بسلامة الله ، كيف .. لا ادرى .

الجهـــات أربعـــة
الأولـة - فـى الليـل البهيـم

شريط السكة الحديد يخترق بلداننا يفصل الغرب عن الشرق. الغرب فى بلادنا أقوى من الشرق ، لكن الشرق اغنى من الغرب . السبب ان أهل الشرق مجاورون للنيل مباشرة ، يزرعون الارض اكثر من زرعة ، وهي أجود أرض فى الناحية كلها ، طما ، باقور ، ساحل سليم ، المطيعة ، أبوتيج ، النخيلة ، شو ضب ، أولاد الياس، البارود ، المعصره ، العصاره ، البدارى ، كوم المغربى تحت الجبل الشرقى ، وغيرها يابوى أراض يحلف الزرع بحياتها ، وأهلهم كلهم مبسوطون وعال العال . الدور والباقى على أهل الغرب مثل : صدفة ، ادرونكا ، الزاوية ، المسـعودى ، الزرابى ، المشـايعة ، الدوير ، كوم سفحت ، أبو حجر ، كوم سعيد ، الوعاضل سلمون، الشنـاينة ، النجع، الرياينة، البرية، العامرى، العزايزة ، الغنايم ، دير الجنادلة ، كـردوس ، بنى فيز ، القطنـه .. بلاد كلهـا يكثر فيها الفقر كلما كثر عدد الرجال وما أشد ما يكثر يوما بعد يوم ، فكل بضع سنوات تمتلىء البلاد برجال جدد ، بلا عمل ولا أملاك ولا اى شيء ، فمن اين تأكل يابوى !؟

أراضى الشرق وملاكها يستخدمون البعض بتراب الفلوس انفارا وتملية وخفراء ورزايبيـة ، وباقى الرجال يعيشـون على الخطف والنهب والسرقة والاغتصاب . شيء فظيع يا خال ، لم ينقذ بلادنا كلها من جحافل الصعيد الزاحفة سوى بدء السـفر الى البـلاد العربية ، حيث هاجر الى السعودية والـكويت والامارات وليبيا والعراق أعداد لا حصر لها من المتعطلين الذين يشيبون ليالى الصعيد ويهزونها . كانوا يثيرون الرعب المتواصل فى عز الظهر الأحمر لكنهم ـ صدقنى ـ كانوا يؤنسون وحشة الليل . آلاف المتعطلين المجرمين تقذف بهم البطون الخصبة والدماء الساخنة فى الصعيد ! بلادنا تحب سيدنا محمد وتريده يتباهى بهم يوم القيامة بحق !. وان

شاء الله يوم تقوم القيامة الحقيقية يا خال فسوف تكون فى مصر !!
فمنذ طفولتى وأنا متأكد أن الناس ستأكل بعضها بعضا فى يوم قريب
صار على الأبواب ! مثلما حدث ذات يوم فى بلدة « بنى فيز » ،
حيث تقاتل رجالها حتى أفنوا بعضهم فناء تاما !! ..

يبدأ موسم الخطف حينما تكبر الذرة فى الغيطان . كل واحد
يخطف له خطفة واحدة كبيرة يعيش عليها بقية العام الى أن يدبر
لخطفة جديدة . تجيء له جواسيسه من الشرق قائلة له أن فلان
الفلانى من ذوى الأملاك سوف يخرج فى الساعة الفلانية فى اليوم
الفلانى متوجها الى المكان الفلانى . لا يقع تحت طائلة الخطف الا
الناس المهمون التخاين ، الذين يجيء من ورائهم خير كثير مضمون .
يكون الرجل ماشيا فى حاله تحت جنح الظلام أو رداء القمر لا يهم ،
فاذا بالأشباح تخرج له من بين عيدان الذرة منقضة عليه ممسكة
به تحت وابل من الرشاشات الهوائية المرعبة . ان كان فى حراسة
أحد فان مصيره معلق بنفاد الذخيرة من أحد الطرفين ، وان كان
وحده فانه سيسلم نفسه حتى لو أصاب رصاصه . يتكلون به
على الله الى مخبأ بعيد . يرسل الخاطف واحدا من طرفه يبلغ عائلة
المخطوف بشكل ملفوف ، كأن يكون هذا المرسال بائعا سريحا مثلا
ويقول امام رهط من القوم انه سمع كذا وكذا فى البلدة الفلانية .
أهل المخطوف ما أن يسمعوا الخبر حتى يتكتموه ويكفون فوقه
ماجورا ، واذا ما سألهم أحدهم عن مخطوفهم فانهم يزعمون انه
مسافر فى مشوار وسوف يعود ، انهم بالطبع لا يجرأون على تبليغ
البوليس ، لأن الخاطف بمجرد ما يبلغه جواسيسه أن الخبر وصل
الى الحكومة يكون عليه العوض فى المخطوف ، سوف تختفى جثته
فى مكان لا يعرفه أحد . ومن هنا فأول شيء يفعله أهل المخطوف
أن يبدءوا فى البحث عن أحد يعرف الخاطف لكى يتفاهم معه . كل
مخطوف على قدر مستواه تقدر ديته .. مطلوب الف ، الفان ، ثلاثة
عشرة .. يأخذها الخاطف حتى يطلق سراح المخطوف ، فى لحظة
يختارها الخاطف ، يفاجأ أهل المخطوف بمخطوفهم يدخل عليهم
الدار ذات لحظة ، وان سألوه فلن يستطيع أن يصف لهم أى شيء
عن المكان الذى خبىء فيه ولا وجه أى أحد ، لأنه من لحظة اختطافه
للحظة الافراج عنه يظل معصوب العينين مكتوف اليدين يدخل له
بالطعام والشراب أطفال صغار مجهولون فى أماكن مجهولة ، وقد

يحدث الانفاق على الافراج فى بلدة غير التى تم الخطف فيها ، وقد يتم الافراج فى بلدة اخرى بعيدة فى ساعة دامسة الظلام !..

مثل كل الامهات فى بلدتنا كانت أمى تحفزنى دائما للمشى مع هؤلاء الولد ، تقول لى :

ـ « قم فامض معهم مشوارا أو مشوارين بدلا من قعدتك هذه يكرمك الله بالعشاء »

ولم أكن جربت المشى معهم من قبل يا خال . وكنت أمشى قاصدا المحطة أركب منها القطار الى مصر ولم يكن معى نقود اركب بها لكن عشمى فى الله كان كبيرا ، أن أنحشر فى الزحام ، ففى الزحام تتحرك يدى بكل حرية والناس ملهية فى كتمة الزحمة . دخلت محطة القطار، إنحشرت بين الواقفين امام شباك التذاكر كأن معى ثمن التذكرة . لمحت رجلا عفيا يمسك بيده جنيها كاملا ، يدفع الناس بقوة لطيفة يزيحهم من أمامه يتقدم نحو شباك التذاكر يكاد يلامسه التصقت به مباشرة يابوى كأننى بقيته ، ما كاد يصير أمام فتحة الشباك حتى ناداه ولد عمه من بعيد ، وكانت ذراعه لحظتها قد تسربت بالفعل من فتحة الشباك رامية ورقة الجنيه على الرخامة فى حين استدار هو ليتكلم مع ولد عمه الذى راح يأخذ ويعطى معه فى الكلام . لحظتها كنت قد صرت أمام الشباك مباشرة وراسى الصغيرة تطل على موظف التذاكر من خلال الفتحة ، الذى نظر لى وللجنيه المرمى أمامه قائلا : « فين ؟ » قلت بسرعة : « سيوط » ، فقطع التذكرة وجاء ببقية الجنيه ازاحها أمامى فأخذتها وزرقت من بين الأفخاذ والأرجل وانطلقت أجرى كالريح . وكان الزحام قد لفظ صاحب الجنيه فصار يحاول الدخول فيه من جديد والوصول الى الشباك ثانية ، فيما يصيح جاعرا : « تلاته سيوط يابيه وبقية الجنيه ! تلاته سيوط يابيه وبقية الجنيه ! » . قلت لنفسى : فرجت ياولد، وفتحت رجلى فى المشى متدحرجا نحو سفح الطريق .

الثانية ـ الوقوع فى عرين النار

غصبا عنى وجدتنى بحذاء الجبل . كنت خرمانا فاشتريت ورقة دخان وتشوقت لكوبة شاى ، فقلت للـرجل الذى باعنى الدخان : « الا يستطيع المرء أن يشرب كوبة شاى فى هذا الطريق القفر ؟ » . فنظر فى عينى مباشرة وراح يتفحصهما ، ثم قال بهدوء العاهر : « يستطيع ! طالما فى الطريق ناس فانك لابد أن تجد فيه ما تحتاجه ! » . قلت : « ربنا دائما يوقف لنا أولاد الحلال ! » . قال : « تفضل ! لف وادخل ! » ..

وكنت اظن ان العشة المربعة التى يجلس فيها على الطريق ويبيع السكر والشاى والدخان وابر الوابور والخيط والحلوى هى مجرد هذا المربع الصغير ، فلما لففت فى الاتجاه الذى أشار لى عليه وجدتنى فى دار أخرى يا بوى ، بل وجدتنى فى مملكة : مثلث كبير من الارض فى منحدر خادع ، مسور بالحديد والسلك أرضه تأخذ فى الانحدار شيئا فشيئا حتى تفوص تماما تحت فتحة سرداب تبدو عالية واطئة فى نفس الوقت فى نفس النظرة غير انها تأخذ فى العلو كلما اقتربت منها . فلما دخلتها خيل لى أننى أدخل تحت الطريق فى سرداب متصل بالجبل الشرقى يمر من تحته لمسافة طويلة لابد انه يكون من شق الفراعين انفسهم ولا أحد سواهم يفوت فى قلب الصخور هكذا. ثم فوجئت بأننى فى مفارة محفورة فى جذر الجبل على شكل فسقية مهولة تصلح أن تكون سامرا تحت الارض وتصلح أن تكون مدفنا للقوم كلهم . عشرات الرجال والنساء رايتهم يجلسون جماعات أو اثنين يشربون الشاى والقهوة والقرفة العطرية ويدخنون الحشيش على الجوزة ، وثمة من يقوم بخدمة هؤلاء جميعا من ولدان متحركين نشطين . ما هذا المولد يابوى ؟ . الرجل الطيب ظن بى خيرا ، لابد أن منظرى خدعه فتصور اننى اريد ما يريده هؤلاء ! اين انا من هؤلاء يابوى ؟!.

استقربت صخرة مربعة جلست فوقها ، رحت اتأمل فى هذا الخلق الذي لم اكن رايته من قبل ابدا يا بوي ولم اكن اعرف انه

موجـــود فى هذا المكان . جاءنى احد الولدأن : ساالخير يااابو العم مساء النور أهلا وسهلا . تشرب ايه . قلت : كوب شاى من فضلك واحسانك . ما مرت دقيقة الا وجاءتنى الصينية عليها براد خارج لتوه من صهد الرمل تفوح منه رائحة شاى طازج ومعه كوبة مع قطع من السكر . وضعت القطع فى الكوبة وصرت أدلق من البزبوز فى الكوبة فوق السكر واعود فأدلق فى البراد واكرر حتى صار الشاى مربوبا مرغيا وآخر حلاوة . صرت اشربه وادخن ونفسى مفتوحة لنفسين من الحشيش الذى بدأ يدخل فى نخاشيشي وينملها . شفطة شاى والثانية رأيت ظلا يقف علي دماغى ويصيح : « حسن ولد أبو ضب » فزعت ناظرا اليه ، قلت : « خدامك .. أهلا وسهلا .. يا ثلثمائة مرحبا » . جلس بجوارى . منظره جدع محترم ، يلبس الكشميرة والصديرى الشاهى ، من الواضح أن جنبيـــه منتفخان بالمســـدس وخريطة الذخيرةوالمحفظة ، عمامة كبيرةبشال ناصع البياض حولطاقية بيضاء ، جبين عريض مبيض وجهم ، شارب مستنفر على الدوام باصبعين يحركهما فوق شفتيه الرفيعتين باستمرار قلت :

ــ « من الكريم ؟ »..

قال :

ــ « تهت عنى يا حسن يا ولد ابى ضب ؟! » .

قلت :

ــ « العتب على النظر ! لا تؤاخذنى ! » ..

ــ « محسوبك زناتى » ..

صحت فيه مقاطعا :

ــ « ولد مخيمر ابونا هيه »

تبسم قائلا :

ــ « براوه عليك » ..

قلت :

ــ « اجاويد بنى فيز » ..

قال :

ــ « الله ينور عليك .. كيف حال الجماعة ؟! » ..

قلت كأننى الماكينة :

ــ « بخير »

ثم تذكرت أن الجماعة الذين يقصدهم هم أولاد عمى الكبير ، اذ أن « زناتى » هذا ولد عم زوجة عمى لزم ، صببت كوبة شاى

قدمتها له : « تفضل الشاى » . فأمسك الكوبة بيد كبيرة تلمع فى اصابعها الخواتم الذهبية وقال : « تشكر يا ابوالعم » ، ثم شفط وهز يده الكبيرة باسما فيما يقول :

ـ « لكن كيف وصلت الى هذا المكان يا ابو العم ؟! انك اذن لشقى خطير !! » ..

رفعت كفي مشهدا الله صائحا :

ـ « مظلوم والله .. انما حودت لاشرب كوبة شاى وهذه أول مرة اخطو هذه العتبة ! صدقنى يا ابو العم ! » ..

قال ضاحكا :

ـ « طبعا طبعا .. والا كنا رايناك وعرفناك !! » .. ففهمت انه من أعيان هذه القعدة ، واخرجت علبة دخاني وقدمتها له قائلا : « لف لك واحدة » ، فتناولها ، ولاحظ أن شيئا كان لصيقا بها قد وقع منها على الارض بجواره فمال واخذه ، فاذا هو تذكرة القطار . نظر فيها وقدمها لى قائلا :

ـ « كنت مسافرا سيوط ولا ايه يا ابو العم ؟ » ..

خفق والله قلبى يا خال ، قلت بلجلجة :

ـ « لم يحصل نصيب يا ابو العم .. قطعت التذكرة وجريت لكن القطار كان أسرع مني وما نابنى الا ان انطرشت فى الارض !. فحلفت الا اسافر اليوم ! » ..

قال مشوحا بيده فى بساطة :

ـ« ولد عمى عمل اليوم مصيبة من اجل تذكرة كهذه .. كاد يروح فيها قتيلا لولا أن ربنا سلم ! » ..

زلطة خشنة انحشرت فى حلقى يا بوى ، وانا احاول أن اندهش قائلا فى استنكار :

ـ « اليوم اليوم !! » ..

قال :

« منذ دقائق !.. جاءنا الخبر انه يتعارك فى المحطة .. جئنا نجرى .. لم نجده .. لكننا وجدنا جثة وهبه افندى موظف التذاكر بالسكة الحديد .. ممددة على رصيف المحطة مشجوجة الراس متورمة الوجه تئن تتاوه بين الحياة والموت .. وبعض رجال آخرين من زملائه منهم من تهشمت اضلاعه ومن تكسرت اسنانه ومن جدع انفه ومن انفتح حاجبه !! .. سالنا ما الامر ياناس ؟ .. قالوا ان ولد عمى أعطى جنيها لوهبه افندى وطلب ثلاث تذاكر لاسيوط ويزعم

وهبه افندى انه لم يعطه شيئا .. كلمة من هنا وكلمة من هنا ..
هاج ولد عمى واشتغل ضربا فى الجميع ونط هاربا نحو الجبل ..
فظننت انه ربما يكون قد جاء الى هنا فجئت اسأل عنه !! » ..
غاص قلبى فى ضلوعى يا خال ، صغر وتلاشت دقاته ، قلت فى
صوت مرتعب فى ولوله :
ـ « يه .. يه .. يه .. لا حول الله .. له فى خلقه شئون » ..
وصرت أتصيد عين محدثى باحثا عن شىء فيها يكون قد وشى
بى ، فلما رأيته يستغفر معى فى واد بعيد عنى وجدتنى أقول :
ـ « امن المؤكد انه قد يجىء الى هنا للآن !! ام تراه يهرب فى
مكان بعيد !؟ »
قال ناظرا الى كأنه يستعبطنى ولكن بلطف :
ـ « لا مكان للهرب سوى هنا يا ابو العم ! » ..
قلت برعدة خفيفة :
ـ « نحن آذن فى قلب الجبل الآن !! »
قال كرجل يعلم ابنه خطوط الطريق :
ـ « نحن الآن فى مقهى الجبل .. هذا هو المكان الوحيد الذى
يعيش فيه المطاريد حياتهم الطبيعية بعيدا عن الاعداء !.. هذا المكان
الذى يشبه الفسقية بسراديبها هو الخلاء الذى يعيش فيه المطاريد
بحريتهم .. هو مكان اللقاء المضمون بين المطاريد وحريمهم وعشيقاتهم
ومصادر دخلهم وتموينهم .. أصحابه المطاريد انفسهم وكل الولاد
المشتغلين ها هنا من أبناء المطاريد ولدوا هنا وربما القيت بذرتهم
ها هنا أيضا ذات فجر بعيد !! .. وليس لغريب أن يقتحم حصار
هذا المكان مهما كانت قوته ودباباته وطائراته ، لأن المكان له عشرات
السراديب السرية لا يعرفها الا عدد محدود من عتاة المطاريد المعتقين
فى الجبل ، وليس كل من يعرفها يستطيع او يجرؤ على السير فيها
وحده لأن بعضها يشبه بطون ثعابين خرافية متعرجة لا نهاية لها !.
بعضها موصل الى خلاء بين سفوح وبعضها موصل الى عنق زجاجة
مسدودة حيث لا سبيل للتقدم أو للقهقرى !. واما ادارة المكان
فيتولاها عشرة من عتاة المطاريد يصرفون على مونتها ويتقاسمون غلتها !.
يراسهم عن جدارة ذلك الرجل صاحب كشك البيع الذى دلك على
هذا المكان !.. لقد أرسلك وهو واثق انك صيد ثمين لأتباعه الجالسين
ها هنا !! .. فكل من يجلس أمامك وحواليك الآن هم من عتاة
المطاريد !. رجالا ونساء !.. هذه الحورية الملفوفة فى جلباب أسود

وطرحة سوداء اكبر مهربة مخدرات فى الصعيد الجوانى وهاربة من احكام تصل الى قرابة مائة عام !. وهى تعيش حياتها ها هنا على اكمل وجه وتدير املاكها وريع اراضيها على اتم ما يكون !. لا ينقصها من متع الدنيا اى شىء !. وبعد قليل سوف تنصرف من هنا الى عشة مجهولة بين سفوح الجبل الشرقى تفوق سرايات الحكام فيها مراتب والحفة ووسائد وأسرة ودواليب وارائك واطباق وحلل ونار ولحوم ودواب !.. وهؤلاء رهط من رجالها أما زوجها فعضو فى البرلمان يزورها كلما أكله ايره !.. وكل من يجلس هاهنا بينه وبين الحكومة ثارات لا تنتهى !.. حتى انا نفسى كما لعلك تعرف لى بين المطاريد مكانة سوف تلمسها ، فلقد هربت من السجن ثلاث مرات بثلاثة جرائم قتل وفى كل هروب قتلت حارسا !.. أمك والله داعية لك !.. لعله كرم اعمامك الفقهاء هو الذى القى بى فى طريقك قبل أن يكتشف أمرك ها هنا فيجردونك من كل شىء ويحكموا عليك بالسجن فى الجبل مدى الحياة يسخرونك لخدمتهم تحت حراستهم فان تمردت قتلوك أو توهوك فى الجبل شريدا لا تعرف لك رأسا من ذنب حتى تأكلك الوحوش والطيور الجارحة والحشرات السامة او يلتف حولك ثعبان من ثعابين الجبل المتوحشة !! » ..

اعطنى عقلك يا بوى ، فان عقلى قد ذهب . لا ادرى كم لبثت من زمن غائبا عن الوجود يحملنى صوت « زناتى » يشيلنى ويحطنى ويبعثرنى فى شعاب الجبل تدوسنى أقدام ثقيلة تطحننى ضروس بعد تمزيق أنياب . لكن « زناتى » حين لكزنى فى كتفى بعلبة دخانه المعدنية الثمينة شهقت كأننى استرددت نفسى وعدت روحا فى جسد. ضحك « زناتى » وغمزنى بالعلبة آذنا لى أن الف لنفسى سيجارة ، وكان يضحك قائلا فى سخرية :

ـ « هم يضحك وهم يبكى .. واحد يقتل من اجل تذكرة قطار .. وواحد يرمى بنفس التذكرة نحن ندفع عمرنا ثمنا لتذكرة كهذه قد لا توصلنا الى أى جهة .. على الانسان أن يمضى فى هذه الحياة بغير تذكرة !. لا فى القطار ولا فى الهباب !. حين يزنقك الحق ادفع وتخلص من الزنقة والسلام !. ما بال الواحد منا يضيع وقته فى قطع تذكرة !. المهم أن تلحق بالقطار يا ابو العم !. وما تنفع التذكرة من فاته القطار ! » ..

وجاءنا براض شاى جديد لم نطلبه . اخذت أتلفت حوالى كأننى اخشى مقدم الموت . وحقا نطق المثل : من خاف من الذئب يطلع له ، فاذا بالعملاق الذى سرقت جنيهه يدخل علينا كالهول .

الثالثة - المطاولـــــــــة

نهض « زناتى » فاستقبل ولد عمه العملاق . اما أنا فلم اقو على النهوض يا خال ..

تخشبت مفاصلى ، صرت ارتعش كأنى فى مهب ريح عاتيـــة يا خال ، أتوقع أن يهجم على يبرمنى كما يبرم المرء لقمة من رغيف ويحشرنى فى حنكه يفرمنى بأسنانه . على أنه جلس بجوارنا وجعل ينظر فى وجهى متفرسا كالمتوجس ، ووجدتنى أقول له :

ــ « هدىء أعصابك يا خوى .. الدنيا لم يعد فيها ذمة ولا ضمير !! » ..

فشوح فى غضب صامت كأنه يقول : « دعنا من هذا الامر » ومال على ولد عمه ، فعرفه ولد عمه بى ، فنظر لى من تحت جبينه مقتصبا ابتسامة مرهقة وقال : « اهلا وسهلا بيك » ، فقلت بحماس شديد : « يا ثلثمائة مرحبا » ، وهززت يدى جـوار رأسى ونحـو صدرى عدة مرات فى امتنان شديد .

نظر « زناتى » الى أحد الولدان بطرف عينه ، فلم تمض دقيقة حتى جاء بالجوزة والحجارة المرصوصة بالدخان المعسل . اخرج زناتى من جيبه قطعة حشيش وراح يوقع منها بابهامه فوق الحجارة ، والولد يسقينا ، ما هذه الأبهة يا ولد ؟ وما هذه الحلاوة وهذا الروقان ؟ هكذا رحت أسأل نفسى وأردد مستعبرا : صحيح والله قوله تعالى ورزقكم فى السماء وما توعدون . ولقد والله تخيلت أننى صرت ملكا يجلس على صخرة العرش . مال « زناتى » على ولد عمه وقال مشيرا الى :

ــ « مكتوب له لقمة عيش فى مشوارنا » ..

خفت وانبسطت فى نفس الوقت . وقال ولد عمه :

ــ « كل شىء نصيب » ..

فقال « زناتى » :

ــ « لقد ساقه الله الينا .. ما عليك الا أن تتفرغ لقطع الطريق الى البلد ! » ..

جاء الولد بحجارة جديدة ونار جـديدة وجوزة جـديدة فكف « زناتى » عن الكلام واخذ يرص الحشيش ، واخذنا نشرب فى صمت، ومخى سارح فى خبر هذا الكلام الذى سمعته الآن من « زناتى » . فلما انصرف الولد ليغير ماء الجوزة والحجارة ويجدد النار مال « زناتى » نحوى وقال :

ــ « فيك من يكتم السر ؟ » ..

قلت :

« فى » !.

قال : « اعرف انك رجل ولد رجل » ..

قلت : « تشكر .. من أصلك ! » ..

قال : « أوراءك شغل من هنا لحد الغد ؟ » ..

قلت : « من هنا ليوم القيامة ! » ..

قال : « حلو » ، ثم تمهل برهة واضاف :

ــ « مشوارنا فى بلدة أبو حجر .. نريد ان نخطف قسيسا فلاحا !.. هو تقريبا اغنى قسيس فى البلدة ! » ..

قلت :

ــ « البلدة كلها قسس .. وكلهم اغنياء ! » ..

قال :

ــ « القسيس بنيامين اغنى اغنيائها » ..

صحت قائلا :

ــ« بنيا .. و .. ي .. ين .. يه يه يه .. أما وجدتم غير بنيامين تخطفونه يا ابو العم ؟! .. انه حويط جدا يا ابو العم .. لا يخرج من البلدة أبدا .. ليلا أو نهارا .. واذا مرض فالطبيب يجىء لحد عنده !! » ..

قال زناتى : « لكنه يخرج ويتحرك داخل البلدة » ..

قلت وقد هالنى والله قوله :

ــ « كيف ياأبوالعم تخطفونه من شـــوارع بلدته ؟! أن البلدة كلها من الاقباط فردا فردا .. ليس فيها مسلم واحد .. حتى مواشيهم وكلابهم ودوابهم هي الاخرى تدين بدينهم وتحمل شكلهم وطبيعتهم !! صحيح انها بلدة تعيش بمفردها معزولة وسط دائرة كلها من المسلمين .. ولكن ما تنسى يا أبو العم انهم أقباط اقوياء !. عندهم سلاح كبير وذخيرة كثيرة وكهن اكثر ولؤم شنيع !! » ..

ابتسم « زناتى » وقال :

ــ « غدا أنسب يوم لتنفيذ خطتنا .. فـرجال البلدة كلهـم

يسرحون الى الغيطان لجمع القطن ولن يبقى فى البلدة طول النهار سوى الحريم والعجائز تخيفهم بضع طلقات !! » ..

ميلت رأسى على خدى ورحت افكر فى كلام « زناتى » ، ولم أكن وصلت الى شاطىء أستقر عليه بعد حين عاجلنى :

ـ « معنا باذن الله يا حسن ؟ » ..

خفت التردد ، وايقنت انه قد يقتلنى اذا انسحبت من الموافقة ، فقلت :

ـ « الله معنا جميعا باذن الله » ..

ولقد شعشع والله الحشيش فى دماغى وصور لى أن « طلعة » كهذه تجىء لابد بمبلغ كبير محترم . دخل فوق المساء مســـاء جديد ، وفوق السهرة سهرات الم واعمق حيث امتد امامنا خير ونعيم كثير من ماكل ومشرب وتفكير فى الخطة المرسومة مرات ومرات نعدل فيها ونعدل التعديل ثم نعود فنلغى التعديل من اساســه ثم نعود فنعتمده بعد تعديل بسيط . كنا سبعة رجال : اثنان بالمدافع الرشاشة على مدخل البلدة ، اثنان فى الشارع العمومى بالمدافع الرشاشة أيضا ، ثلاث بالمدافع الرشاشة يهجمون على دار القسيس « بنيامين » الفلاح ، مهمتهم انتزاعه منها بالحيلة أو بضغط السلاح اذا اضطرهم !! ..

القسيس « بنيامين » الفلاح عجوز زكى ، قصره محاط بحديقة ذات سور مبنى تحتوى على حظيرة كبيرة للمواشى والدواب ، وهو يخرج من القصر ليتمشى فى الحديقة الواسعة يعنى بشئون مواشيه يقلم الأشجار يروى الزرع والورد ، لا يقترب من باب سور الحديقة الا ليفتح الباب لأحد من خدمه أو فلاحيه ، ولا يفتح الباب الا بعد أن ينظر من خرم دقيق فى حديد الباب السميك ويطمئن الى أن الحارة كلها أمامه خالية الا من الطارق الذى يعرفه ، ولن يفتح الا اذا عرف من تصادف مروره بالحارة لحظة الطرق وقد لا يفتح الا بعد أن تفرغ الحارة تماما الا من الطارق ، ثم انه لا يخرج من الباب الا مخفورا بحراسة أشد من حراسة العمدة ، أما الذين يعملون فى معيته فكلهم من المقربين اليه جدا وممن تربوا على يديه وآمنوا بالمثل القائل : من يأكل من خبز اليهودى يضرب بسيفه ، وبعض هؤلاء يحمل فى جيبه نسخة من مفتاح باب سور الحديقة المطل على الحارة !!..

ذلك ما كنت أعرفه عن القس « بنيامين » وسمعت من «زناتى»

ورجاله ما عرفني به أكثر . ألهمني الله بفكرة طيبة يا خال ، قلتها لـ « زناتي » :

ـ « سمعت من ناس كثيرين في بلدة ابو حجر ان امراة خفير القسيس تدخل الحظيرة صبيحة كل يوم لتحلب الماشية .. وتفتح باب سور الحديقة بمفتاح تحتفظ به مربوطا في ضفيرة شعرها .. فعلى أحد منكم ان يتصيد امراة الخفير هذه وهي خارجة من دارها في الصباح فيكتفها ويكمم فمها ويأخذ منها المفتاح ويخفيها هي في مكان بعيد !! » ..

وصمت ناظرا فيهم لأرى وقع الفكرة على وجـوههم ، فاذا بي أرى اعجابا واستنكارا معا في نظرة واحدة ، وابتسم « زناتي » وقال :

ـ « فكرتك حلوة يا أبو العم ولكن فيها معيلة عدم المؤاخذة ! .. المرء لا يبدأ العملية بالضرب من أولهـا والا جلب على نفســـه الخطر وباظت عمليته ! .. نحن يا ابو العم لا نريد الطخ واصـــل .. نحن لا نطخ الا عند الاستغباء .. انما يا أبو العم دعنا نحلي فكرتك هذه .. فنرسل النداهة من هنا لزوجة الخفير !! » ..

وقف شعر رأسي ، قلت :

ـ « النداهة !! الجنية ؟! » ..

قال ببساطة واثقة :

ـ « نعم .. النداهة التي يخيفونك بها !! »

قلت ببساطة :

ـ « أعندكم ها هنا نداهة ؟! »

قال مشوحا نحو الفراغ الممتد في سقف الجبل :

ـ « عندنا كل عفاريت الارض !! »

اعتدلت في قعدتي قائلا :

ـ « عال ! عال ! منصورة باذن الله ! »

واعتدل « زناتي » هو الاخر وقال :

ـ « النداهة تذهب بعد دقائق الى دار الخفير وتنـادي على زوجتـه باسمها .. تدحلبها وتخدرها وتسرق المفتاح من ضفيرة شعرها وتلففها بعض أماكن غريبة وتعود بها الى دارها فتبقى نائمة حتى العصر نكون قد انتهينا من شغلنا !! » ..

استحسن الجميع الفكرة ، وواصل زناتي موجها الكلام الي أنا:

ـ « ونجيء لك بثوب كثوبها .. تلبســه وتدخل الحظيرة كأنك

هى .. تبدأ فتحلب الماشية.. وحين يجيء القسيس بنيامين ليتمم على الحليب تمسك به وتكتفه وتسلمه للثلاثة الواقفين بالباب يدا بيد!».

تململ ولد العم ونطق بعد صمت طويل لكن فى ضجر :

ــ « مادام المفتاح يصير فى يدنا .. ما الداعى لمسالة أن يدخل الحظيرة ويحلب المواشى ؟! .. فلندخل عليه ونمسكَ به من قلب فراشه ونتكل على الله !! » .. لكزه « زناتى » فى جنبه بقوة ، وقال :

ــ « مجانين نحن ! نرمى باجسادنا فى مخدع الذئب ! من أدرانا ؟ انه لابد مستعد لأن يغلق علينا الباب فنأكل العلقة المودية الى الموت ! الأفضل يابو العم أن يفعل حسن ما قلناه بالحرف الواحد ! » ..

ومن فوره قام ، استقضى لى ثوبا نسائيا أسود وشالاأسود ، وفى الحال ذهبت « النداهة » الى ماكينة القس « بنيامين » التى يسهر خفيره عليها طول الليل ، فاغرته بنفسها حتى اندلق على صدرها ، فخدرته وتركته سطيحة تحت تعريشة تبعد عن الماكينة بمسافة هائلة . ثم ذهبت « النداهة » لدار الخفير فنادت على امرأته وأخبرتها أن زوجها يطلبها الآن لأمر ضرورى يتعلق بخير جاءهما يريدها أن تحمله معه الى الدار . فخرجت معها الولية فعلا ، فصارت تسليها بالكلام وتشممها المخدر حتى وصلت الى ماكينة المياه جثة تتطوح فى الهواء . نيمتها « النداهة » بجوار الماكينة وفكت المفتاح من ضفيرة شعرها وعادت به الى « زناتى » والشمس لم تطلع بعد.

الرابعة - المحاولـــــــــة

انطلقت اجرى بالمفتاح ومن خلفى ـ على مبعدة قليلة ـ الثلاثة المدججون بالسلاح ، الذين سيقتحمون الدار لدى صيحتى. وصلت الى دار القسيس « بنيامين » ، فتحت الباب ، تسللت الى الحظيرة، ولكن ما كدت اقترب من المواشى لأحلبها حتى ضجرت منى ونفرت وصارت تكسكس كلما لمستها وتنزاح هنا وهناك وتلفظ بالنعير ، وكنت اعرف ان هذا سوف يحدث لأن المواشى تشم رائحة من يعتاد حلبها ولا تحن الا اليه ، الا اذا كان الآخر حريفا ، لكننى لم اكن اتصور ان هذه الحركة البسيطة سوف تلفت نظر « بنيامين » ، اذ اننى رايت خياله يقترب من باب الحظيرة قبل ان المس الماشية بيدى ، ثم اذا به يتوقف فى الحال عندما سمع صخب الماشية المعبر عن عدم ترحيبها بى مما اكد لـ « بنيامين » ان شخصا غريبا قد اقتحم الحظيرة ، ورايت خيال يده وهو ينكسر ممتدا فى جيبه وخيال كتلة « المسدس » تعبر فوق الارض مسرعة لتستقر بجوار قدمه ، فانكمشت على نفسى تحت اقدام الماشية آخذا وضع الاستعداد لأى شىء . رأيت دماغ « بنيامين » يميل عن المحتجب وينظر داخل الحظيرة متلصصا ، وقعت عينه فى عينى مباشرة فاصابه الهلع واستدار على الفور يجرى . اندفعت اجرى وراءه محاولا اللحاق به . كان اسرع منى يا خال ، فدخل القصر واغلق الباب وراءه ، واذا بمن يخفرنى من الخلف ينشن على قفل الباب بطلقتين اصابت احداهما القسيس فصرخ فى حين تهتك مكان القفل واتفشخ الباب ورأينا القسيس جريحا يجرى متقافزا على السلم الخشبى العريض ممسكا بموضع الجرح بيده وباليد الأخرى يستدير خطفا ليطلق تجاهنا بعض الطلقات حتى نفدت ذخيرته ، وفوجئنا به يتسلل عبر شرفة السلم فى الدور الثانى ليحتمى بدورانها ، فحاصره رصاصنا داخل هذه الشرفة ، وطلقات الرصاص ترد علينا من جميع انحاء البلدة على سبيل التهديد ، واراد القسيس ان يعبر الشرفة من الخارج الى شرفة الحجرة المجاورة ولها هى الأخرى افريز من الحديد

المشغول ، قفز ، كاد يهوى ، امسك بحديد الافريز وصار معلقا فى الهواء ، فاندفعنا اليه وجذبناه من قدميه بقوة فهوى بين صدورنا ، فانطلقنا نجرى به تحت وابل من الرصاص المتطاير من اماكن مجهولة. وكانت الركائب فى انتظارنا على اول الشارع فاقلتنا مسرعة فى اتجاه مكان مجهول من الجبل حيث اختفى « بنيامين » وافقت على اننا قد عدنا نجلس فى المغارة ضاحكين كأن شيئا لم يكن . وفى عز الليل أعطانى « زناتى » عشرة جنيهات بكاملها وقال لى : « اتكل على الله انت .. لا شأن لك بما حدث ولا بأى شىء آخر » ..

فعرفت انه يأذن لى فى الانصراف ، فمضيت حين احسست انه يريد أن ينصرف الى شأن من شئونه الكثيرة . وكنت فرحا غاية الفرح ، ليس بالجنيهات العشرة يابوى ، ولكن للعملية فى حد ذاتها يا خال . وكنت أود البقاء مع « زناتى » فى هذه المملكة الساحرة ، ولكننى، مع ذلك سمعت صوتا بداخلى يقول لى اننى لابد من سفرى الى مصر قبل ضياع هذه الفرصة . واتخذت طريقى نحو محطة السكة الحديد .

فى عين العدد خمسة
الأولة ـ صورتان ليستا على الحائط

عند مزلقان محطة الزيتون سألت عن قهوة المعلم « دحروج السنطاوى » الشهير بظريف ، فدلونى عليها ، فاذا هى أشبه ماتكون بزنزانة غرقانة فى ارض حتى الحزام ، ومدخلها من وراء سورالمحطة خبط لزق .

يه .. يه .. اهذه هى قهوة ظريف ؟ يمين بالله ان عشة النقطة الثابتة التى يبيت فيها الخفير النظامى على مفارق الطرق لأحسن منها . غير انه الصيت ولا الغنى .

جعلت اهبط الدرج وقلبى منقبض والله يا بوى ، كاننى ادخل فسقية للدفن . وقد عجبت والله لناس محترمين كالمعلم « فرهود رمضان » ورجاله كيف يجدون هنا راحتهم . مقاول غير الذى اخبرنى عنه « شندويلى » ، يلعب فى زكائب من البنكنوت ، كيف يجعل من هذه المقبرة مقرا له ، يلتقى فيه برجاله وأنفارهليقبضهم اجورهم ويوزع عليهم العمل ؟.. وانا مالى يا بوى ؟. فليجلس حتى على كوم السباخ ما دامت المياه البنكنوت تجرى فى يمينه وشماله . هذا ملك نظمه سيده سبحانه وتعالى ، فاللهم اكتب لنا لقمة عيش من يد المعلم « فرهود رمضان » مثلما كتبته لولد عمى واهل بلدى ، كل واحد قابلته قال لى : عليك بالمعلم فرهود ! وكل عاطل من بلدياتنا يقولون له : اجرى الى المعلم فرهود لا تعود خائبا !.. قلت : فلأجرى انا الآخر اليه ولابد أننى واجد شغلا لديه ، اذ هو يأخذ مقاولات كثيرة من الجيش المصرى ومن الأهالى ومن كل الشركات والهيئات والوزارات ، فالشغل عنده اذن لا يتوانى وكل طالب نوعا من الشغل يجده عنده .

بالصلاة على النبى خير باذن الله وفيهاعيش. هكذا قلتلنفسى حينما لمست قدمى قطعة خبز مرمية على الارض بجوار العتبة ، ملت

عليها فالتقطتها فقبلتها ثلاثا ملامسا بها جبهتي فى كل مرة ثم وضعتها فى جيبى .

النصبة كانت فى مواجهتي مبنية بالقيشانى ورخامتها نظيفةلامعة وكذلك الحوض والصنبور النحاس والاكواب التى انكفات . خلف النصبة لم يظهر أحد . أما المقهى فمستطيلة من الداخل تتسع لمائتى شخص بالراحة ، والترابيزات العتيقة بعوارضها الخشبية الكالحة، الطقاطيق الملتوية الاقدام المهيضة المفعصة ، الكراسى المصنوعة من الخشب والقش متساندة من فرط التهالك على الحوائط وعلى بعضها البعض ، كلها كلها متناثرة هنا وهناك وليس من أحد يوحد الله اللهم الا قطة شقيانة كحيانة رقدت على كرسى فاردة جسمها عن آخره ومستغرقة فى نوم عميق .

رقص قلبى يا خال وانتفض بشدة ، فقلبى دائما يرقص وينتفض هذه الانتفاضة التى لا أعرف ان كانت فرحا أم خوفا ، عندما أجدنى فجاة فى محل ناس آخرين وليس معى أحد ، اذ يشرع دماغى فى الحال فى التنشين على اثمن شيء موجود يمكن ان الهفه بسرعة واختفى فى الحال قبل أن يدركنى أحد . تطايرت بصاتى مبحلقة فى كل شيء بسرعة رجفانة ، أخذت الرعشة تمشي فى ساقى كالعادة . لم يكن ثمة من شيء هاهنا يستحق أن يسرق على كل حال سوى بعض الأكواب والبراريض ، أما الحوائط فكانت عارية الا من بياض الجير الكالح الخشن ، وعلى الحائط الخلفى للنصبة صورتان مما يباع مع المجلات بالألوان واحدة للرئيس ابو عبد الناصر والاخرى للمشير ابو عامر ، الرئيس ينظر نظرة ناشفة مرعبة لشخص مجهول لعله العدو الصهيونى البريطانى الذى يحكون عنه فى الراديو والجرانين ، شاربه تحت انفه المستطيل يتكتم بين شفتيه سرا شنيعا .. اما المشير فانه يبتسم ابتسامة سبهللة وفى عينيه نظرة دبلانة نائمة متساهلة مليئة بالود المشكوك فيه يا خال كأنها تقول لك افعل من وراء ظهرى ما تشاء وابسط نفسك كيف تشتهى فأنا عارف ومتغامض لكن اذا استغفلتنى مصيبتك سوداء . خيل لى والله ياخال أن سعادة المشير يكاد ينطق قائلا لى : الهف ما تشاء واجر وان لم تجد امامك شيئا يستحق اللهف فابحث تحت النصبة لعل وعسى . كدت افعل والله يا خال لكن نظرة أبو عبد الناصر كانت تسمرنى فى مكانى وترعشنى وتكاد تنطق هى الاخرى قائلة لى : اياك اياك وبتاع الناس فاحترم نفسك وابق بادبك تاكل عيشا بعرق جبينك أو فانصرف

محتشما بدلا من التهزىء وقلة القيمة .
اما عقلى فقد قال لى يابوى : ياولد انت قادم تبحث عن لقمة عيشك فلماذا تفكر هذه الافكار التى تغضب الله ؟ اللهم اخـــزك يا شيطان .. ثم صحت : يا أسيادنا ياللى هنا ! يا خلق ! يا ملايكه ! فاذا بصوت يرد فى جفاء وخشونة :
ــ « عايز ايه يا جدع انت ؟ »
ارتعت يا خال ، لففت حول نفسى باحثا عن مكان الصوت فلم اجد أحدا . قلت لنفسى : ليس من المعقول ان الملائكة هكذا تقول شكل للبيع . وقلت مازحا :
ــ « اظهر وبان عليك الأمان »
عاد الصوت مرة أخرى يرن رنينا عميقا :
ــ « عايز ايه وبلاش غلبه ؟ »
آثار النوم كانت عالقة بالصوت . جلست على أقرب كرسى وقلت :
ــ « عايز واحد شاى »
فاذا انا بمارد يتمطى متسللا من تحت النصبة يدعك فى عينيه يتثاءب بصوت كالعواء . سحب السخان الكبير من فوق الرمالة ، عدل كوبا وضع فيه قليلا من السكر وصب فوقه الشاى ، اشار لى بذراعه الطويلة قائلا : « اتفضل » ، ولكن بلهجة من يقول : « اطفح » . نهضت واقفا وذهبت الى النصبة لآخذ الشاى فنظرت الرجل جيدا فرأيته طويلا نحيفا ، وجهه مستطيل ملىء بالأخاديد المشحونة بالقهر والشقاء وكبر السن ، لكن فى عينيه طيبة شديدة وبكتم بين شفتيه الرفيعتين خفة دم ظاهرة .
لامست الكوب بأصابعى فوجدته ساخنا فتركته منتهزا الفرصة للوقوف مع الرجل . كان معى سيجارتان معوجتان فعدلت واحدة وقومتها وأعطيتها له ، ووضعت الاخرى معوجة فى فمى . قلت له :
ــ «مش دى قهوة المعلم دحروج السنطاوى برضه ؟ »
اشعل ورقة من تحت الرمالة أشعل بها سيجارته ثم قربها منى قائلا من خلال الدخان :
ــ « انا المعلم دحروج السنطاوى يلزم خدمة ؟ »
ضحكت كأننى لا أصدقه :
ــ « المعلم فرهود رمضان يقعد هنا ؟ »
قال :

ـ « عايز منه ايه ؟ »
قلت :
ـ « عايز أشتغل »
قال مشوحا بكوب الشاى كأنه يطردنى :
ـ « تجىء له هنا بعد صلاة المغرب »
جعلت أشرب الشاى فى غيظ . قال الرجل بعد برهة كأنه صار من الآن مسئولا عنى :
ـ « عندك مكان تبيت فيه ؟ »
قلت على الفور :
ـ « لا والله يا أبو العم .. أنا من الغنايم قبلى وقادم لتوى ولا اعرف أحدا هنا »
هز راسه فى ياس من سمع هذه القصة آلاف المرات ، ثم شخط فى صائحا :
ـ « ماعلينا .. ماذا ستفعل ؟ »
شوحت قائلا فى ضيق :
ـ « أرض الله واسعة يا ابو العم .. ومن يقصد الكريم لا يضام »
صب لنفسه كوبة شاى صغيرة كالكستبان شفط منها شفطة ومن السيجارة شفطة ، رفع ذراعه اليمنى مشيرا الى اتجاه المزلقان خلف المقهى :
ـ « هنا شادر بطيخ صاحبه الحاج رفقى وهو طيب وصعيدى مثلك من قديم الأزل ! ينام عنده ولد عمك وبلدياتك الصعايده وكلهم ممن لا اقارب لهم ! ستراه قاعدا أمام شادر البطيخ حتى الصبح ! قل له انك تشتغل عند المعلم فرهود واعطه خمسة قروش فيدعك تدخل وتنام داخل الشادر ! وان دفعت له قرشين اثنين يدعك تنام بجواره فى الخلاء ويحرسك هو حتى الصبح » .
أحببت الرجل يابوى ، شكرته على هذه الخدمة الكبيرة ورحت اشرب الشاى على مهل طامعا فى خدمة أخرى كهذه تقع من الرجل امامى فانتفع بها . لكن طفلا صغيرا صاح من اعلى السلم طالبا ستة شاى فى الأجزخانة . فاستدار المعلم « دحروج » وصب الشاى فى الاكواب الستة . فبسرعة قمت أنا بسحب الصينية ورصصت فوقها الأكواب ثم ملأت كوبين بالماء ووضعتهما على الصينية قائلا : « أوديهم أنا » . فابتسم قائلا : « انت قهوجى ؟ »

قلت : « تعلمت من المعلم شندويلى » . قال : « بتاع مصر القديمة ؟ » .
صحت فى فرح شديد : « تعرفه ؟ » . قال فى فرح أشد :
ـ « عشرة عمر ! اشتغلنا سويا فى الفاعل وفى كل بلوى »
قلت :
ـ « عال ! عال ! كسبنا صلاة النبى ! »
واحسست باننى سيكون لى عشرة طيبة مع المعلم « دحروج » فسحبت الصينية بالأكواب وشرعت أمضى قائلا : « فين الأجزخانة » .
قال : « هنا » ، وأشار الى جانب المقهى ، فحملت الصينية ومضيت حتى أوصلتها الى الاجزخانة وعدت ، لأجد المعلم « دحروج » يلف سيجارة وضح لى انه يحشوها بالحشيش ، ففرحت كل الفرح يا بوى ، قلت له : « مساء الفل يا معلم » . بص لى من تحت جبهته المنكسة قائلا : « تشربه ؟ » . قلت : « أشربه » . فأشعل السيجارة وجذب منها نفسين عميقين ثم قدمها لى ، فسحبت نفسين أعمق ، واعدتها اليه ، وهكذا راحت تتنقل بيننا الانفاس العطرة حتى انتهت السيجارة بنفمشة فى تلافيف مخيخى فعرفت أن المعلم « دحروج » حشاش قرارى وصاحب قرارى أيضا . قضيت معه أحلى عصرية ، دار بيننا الكلام الطلى لا يقطعه الا خروجه لتوصيل طلب ، عرفت المعلم « دحروج » كأننى تربيت معه وهذا أحلى ما فينا يا مصريين يااولاد العرب : المعلم « دحروج » له اربعة ولدان صبيان موظفون فى الدولة أحدهم وكيل وزارة العمل وامين وحدة الاتحاد الاشتراكى عن الحى ، وخمس بنات متزوجات من كبار التجار وكبار الموظفين ، له أربع عتبات ملكا ، كل عتبة تفتح على خمسة ادوار وسبعة ادوار وكل دور يفتح على أربع شقق وخمس ، كما أن له ـ فضلة خيرك ـ ارضا زراعية فى بلاد الأرياف نواحى بلدته السنطة فى الوجه البحرى.
عرفت بين ما عرفت أشياء كثيرة عن الحاج « فرهود رمضان » اشهر مقاول عمومى فى هذه الناحية كلها : هو فى الأصل لم يذهب الى مدرسة ، اشتغل عتالا فى ميناء « اثر النبى » أيام كان قائما على شط نيل مصر القديمة ، اشتغل مع « الأورنس » فى « كامب الانجليز » مورداً للانفار ثم قائما ببعض العمليات الصغيرة من بابها ، جمع مالا كبيرا وخبرة واسعة ، صار يأخذ عمليات كبيرة للجيش البريطانى ، بناء ثكنات عنابر مكاتب ، مصنوعات ومفروشات وأدوات وكل شىء تطلبه منه ينفذه لك وكله بحسابه . فلما قامت الثورة كان الحاج

« فرهود » قد صار كبيرا يابوى ، صارت لديه شركات كثيرة للنقل والشحن والتوزيع والبناء والتخطيط واستصلاح الاراضى ، كل ذلك والحاج « فرهود »لايعرف أكثر من فك الخط بامضاء عاجزة لكنها بصمة لا يمكن تقليدها ، يشتغل عنده ناس من كبار القوم يا بوى مصروف عليهم ثقلهم ومن أرباب المراكز العالية يذهبون الى مكاتبه كل يوم بمرتبات كبيرة ينخض منها السمع، ويلبسون الملابس بالشيء الفلاني ويركبون الأوتومبيلات ذات الأجنحة كالطيارات ، أما هو فلم يخلع الجلباب يا بوى ، لا ولا العباءة والعمامة الصعيدية الكبيرة حتى اليوم ، وكل يوم يجيء بنفسه الى قهوة المعلم « دحروج » ليحاسب العمال بنفسه ويوزعهم على العمل . لكنه ان دخل على أتخن تخين فى البلاد ينتفض له قائما يقدم التحية والاحترام ، مرسال منه الى قسم البوليس يفرج عن المتحجز فى التخشيبة ، كارت باسمه له اعتباره عند وكلاء النيابة ومديرية الأمن ، تليفون منه الى شخص تتحرك البضائع المتعثرة فى جمارك الموانىء والمطارات وتنفرج كثير من الكروب عن كثير من الرجال هنا وهناك ، ربنا يعطيك ويعطينا فهى الدنيا ان أرادت تعطى قالت خذ عندك وما عليك الا ان توسع لها، قيراط حظ ولا فدان شطارة يا بوى . اعطنى حظا وارمنى البحر بدون عوم . انما الحاج « فرهود » مع ذلك شاطر قوى يا بوى ، مفتح وشهم وجدع يعجبك ، راضع من بز امه لا احد يستطيع الوقوف قصاده ، لكن كله بالطيبة والأخلاق وحسن المعاملة .. والأهم من هذا وذاك دعاء الوالدين .

ازددت يقينا باننى ساجد شغلا وراحة لدى الحاج « فرهود » فما كاد المساء يغمر جو المقهى مبكرا حتى أضيئت لمبات النيون كالعصى الممدودة على الحيطان وفى السقف . بدات قوافل الأنفار تجيء فترمي بخلقاتها على الارض بجوارها وتنحط على الكراسي بوجوه كالحة معفرة بالتراب مجفرة متشققة ، لكن أصواتهم الحبيبة ملأت المقهى دفئا حيا وحلوا يا خال ، عملت زيطة وزنبليطة كأنها الفرح ، هم ولد بلدى يا بوى يحل الفرح اينما حلوا ، الفرح فى اعقابهم اسرح من طلقة رصاص الثار .

لقليفة كبيرة يا بوى شملت الدنيـا ، عراك ما تدرى فرح ما تعرف ، واصل الحكاية انهم يتحدثون فحسب ، ينادون بعضهم بعضا يتفقون يتعاتبون يتواعدون . ثمة من يقوم فينضم الى طابور صغير أمام حوض الحنفية ليسلم راسه ويديه ورجليه للماء يتوضأ

ويعود ماسحا اطرافه فى اطراف ثوبه وما يلبث حتى يقيم الصلاة فى ركن مفترشا منديله المحلاوى او لاسته او تلفيعته . المعلم « دحروج » يصيح فى هذا ويشخط فى ذاك بأعلى صوت ، فيردون عليه بصوت أعلى مشوحين بأذرعهم السرحة المعروقة فى الهواء وعروق رقابهم تنتفض حتى لتكاد تطرقع ، وما الأمر فى النهاية الا مجرد زعيق .

الطريف يا بوى أن المعلم « دحروج » كما لاحظت كان فى أشد السعادة بهذه الزيطة . أقطع بأن زعيقه المتواصل هذا ، وشخطه فى كل من صادفه ، ان هو الا تعبير عن فرحته يا خال ، فهؤلاء هم مصدر رزقه الوفير . يوم الجمعة من كل أسبوع يتولى هو محاسبة الحاج « فرهود رمضان » نيابة عنهم ليحتجز حقوقه طرفهم . هكذا قال لى قبل مجيئهم ، واخبرنى انه فى الصبح يصنع فولا مدمسا شهيا لا نظير له فى مصر القاهرة كلها ويقدم معه بصلا اخضر وجرجيرا ومخللا بالمجان للآكلين . وفى المساء يقدم وجبة عشاء قوامها عدس وبصل أحمر ومخلل . من جمعة لاخرى يجدد العشوة بطبق من المسقعة أو البصارة الطيبة . انه يا بوى يتحدى أن يجلس مخلوق أمام طعامه دون أن تنفتح شهيته ويأكل اصابعه ، وهو ينسى طبعا يا بوى أن الذين يجيئون للأكل عنده يكونون فى الاصل واقعين من الجوع ، والجوع غموس كما قال سيدنا « عبد الرحيم القنائى » طيب الله ثراه وأرضاه .

أحلف اليمين يابوى أن « دحروج » كان صادقا فيما ظننته يسرح بعقلى كى اندب انا الاخرمثلهم فاسلمه يوميتى على ذمةآكل، كلهأونطه فى اونطه ، وهل انا عبيط يا بوى حتى أعطى الأمان لأبناء المدينة حتى ولو كانوا من أبناء الريف سابقا ؟ صنف أصحاب المحلات الذين يبيعون الناس أكلا مطهوا جميعهم خربو الذمة لا يكلفهم الطبق مليما ويبيعونه بخمسة وعشرين ، مالى انا والاكل المطهو ؟ ابن ذوات انا يا بوى ؟ ما عيب الرغيفين والبصلات مع طبق من الفول اشتريه انا من عربة جوالة مملوء لحافته لو كان عند « دحروج » وأمثاله يقسمه على أربع أطباق ويسمى كل منها واحدا .. هذه الأكلة فى الصباح ودمتم على ذلك حتى صباح اليوم التالى اذ اننى جئت الى هنا كى ارسل الحوالة البريدية لأمى كل بضعة أيام لا لكى يجزرها المعلم « دحروج » أو غيره من الدحاريج الاخرى بجميع انواعها .. عبيط انا يا بوى ؟!

صدق من سماه « دحروج » ، اذ انه تدحرج الى قلبى شيئا فشيئا حتى تملكه وتمكن من الضرب فى قلعة مخى المنيعة الصلبة العنيدة ، عزمنى على العشاء بالمجان ، أى والله يا بوى غير اننى لم اكن أظنه يقصد ذلك حقا فى أول الأمر . ذلك اننى فوجئت بسيدة شابة من بنات الحارات الفاتنات تلبس فستانا أسود يظهر شدة بياضها الآسر ، ويظهر جسما مخروطا على قالب ملىء بالأبراج العالية والقباب تطير عليه كل ابراج الدماغ قبل الحمام ، واه يا خال ، حافية القدمين بكعبين كريالين من الفضة وسمانتى قدمين كشهدتين طائبتين ، ممتطة الجذع بارتفاع صدرها الناهد مع ذراعيها وكتفيها تسند بيديها حلة كبيرة . ثمة من يتطوع ليحمل عنها الحلة قبل وصولها السلمة الأخيرة ، وهى تصيح فيه بصوت كالفنج اللآهب : « حاسب ! حاسب أحسن دى سخنه » . الكل يريد التطوع بسند الحلة للاحتكاك بالمراة ما أمكن ، مداريا نواياه الخبيثة بطيبة مفتعلة فى قولهم : « على مهلك يا أم حنفى ! كيف حالك يا أم حنفى ! وحشتينا يا أم حنفى » وهى لا تنى ترد على كل واحد بلهجة بين الجد والمزاح لكنها الى الجد أميل بحدة ، مما دلنى على انها فى جوانيتها التى لا يعلمها الا الله امراة بحبوحة هازلة الى حد كبير يابوى وانها تخشى ضياع هيبتها تماما بين الناس فتفقد بذلك لقمة عيشها : « يسعد مساك يا خويه ! ماتشوفش وحش يا ضنايا ! ربنا يعطيكم الصحة والعافية ويقدركم على شقاكم ! » .

عرفت بالفهلوة يا بوى أن « أم حنفى » هى التى تتولى طبخ العشوة لحساب المعلم « دحروج » فى منزلها وتأتى بها الى هنا فى يوم معلوم . قلت لابد انها تقوم أيضا بتدميس الفول عندها وتجىء فى الصباح تملأ به «قدرته» النحاسية اللامعة . وقد صدق حدسى يا بوى ، وهمس لى ولد من بلدياتى بأن « أم حنفى » هى الساعد الأيمن ـ والأمين ـ للمعلم « دحروج » منذ سنين بعيدة مضت ، وكل شىء يتم فى منزلها الكائن فى حارة سد ضيقة من حوارى حلمية الزيتون ، اذ كان زوجها بوابا لعمارة كبيرة واسعة مبنية فى بواكير نشأة الزيتون . للعمارة منور كبير واسع تطل عليه أبواب ثلاثة من غرف البدروم كان صاحب العمارة يستخدمها مخزنا لبضائعه من زيوت طعام ومواد غذائية بجميع أنواعها الى حبوب ومحاصيل وخمور وما شئت ، لذا فقد لزم أن تكون غرفة البواب هى الباب الرابع المطل على فسحة هذا المنور الكبير الذى تسقط اليه الشمس

والامطار عابرة عشرة طوابق من الشبابيك الصغيرة وبسطات سلم الخدم الحلزونى الذى لا يستخدمه أحد . وقد خدم البواب ــ « أبو حنفى » لدى الزيات ــ صاحب هذه العمارة ــ مايزيد عن عشرين عاما حتى مات بفعل الشيخوخة والمرض ، مخلفا «أم حنفى» وخمسة عيال زغب الحواصل هم « حنفى » واربع بنات » .

الولية صعيدية يا بوى ، محكومة ، شابة لا تزال ، لكن اكل العيش مر ، والشاطر من يحلى مرارته ، يحليها بالشقاء الزائد والتعب والعرق ، أمال يا بوى ، بدلا من التفريط فى الشرف وتعريض النفس لسؤال اللئيم . كل شىء فى الدنيا قد يتضح أنه عيب الا الشغل عداه العيب وسافر . اشتغل يا بوى واشتغل تذوب فى حنكك مرارة المالح وتجد نفسك فى نهر الحياة مرتويا بالعزة والكرامة والمهابة . هذا ما صرت أقوله لنفسى يا بوى مقتديا بهذه الولية الغلبانة الجدعة « أم حنفى » . التقطها المعلم « دحروج » ــ كما يزعم ــ بنية أن يساعدها على المعايش ويوفر لها رزقا . وواقع الأمر يا بوى ــ يقول ولد بلدى من حولى ــ انه يستغلها أشنع استغلال يا بوى ، يتخذها خادمة تقوم وحدها بما يطلب من مجموعة عمال ، خلاف استغلاله لمنزلها ، الذى هو عبارة عن غرفة واحدة تنام فيها بأطفالها تزاحمهم فيها أجولة الفول والعدس وبراميل الزيت . ولولا أن سكان العمارة كلهم يتعاطفون معها لضايقوها .

« أم حنفى » غابت ثم ظهرت ثانية فى فراغ الباب تحمل صندوقا كبيرا جدا ، ما ان وضعناه على الارض حتى تبينت فيه تلالا من الاطباق البلاستيك والألمونيوم الصغيرة ، يتخللها اكوام من البصل الاحمر وصفيحة ملآنة بالباذنجان تفوح منه رائحة تقول لك كلنى انا وحدى فى التو ، نفس الكلمة التى يقولها لك جسد « أم حنفى » بمجرد ما تراه ، خاصة اذا طلع صوتها بالغنج الذى لا افتعال فيه. تطافسنا فمددنا أصابعنا خلسة لتخرج بنسيرة من الباذنجان نلتهمها والمعدة ترقص . شخطة المعلم « دحروج » هى التى أوقفتنا عن التهام الباذنجان كله . مرة ثالثة ظهرت « أم حنفى » تحمل طاولة عليها تلال من الخبز الساخن ، تركتها على رخامة النصبة وانصرفت. تقدم المعلم « دحروج » وصار يتناول الاطباق فيملأها بالعدس مرشوشا على سطحها حفنات التقلية . وولد بلدى يتزاحمون عليه ، وكل من حصل على طبق مال نحو الصندوق فانتخب بصلتين كبيرتين وانتخب باذنجانة كاملة ثم عرج على طاولة العيش فانتقى ثلاثة او

اربعة أرغفة . خلال ذلك عادت « أم حنفى » بطاولات جديدة من الخبز عدة مرات متلاحقة . حتى اذا ما انقلبت المقهى كلها الى ناس منكفأة فوق الكراسى وعلى الارض ، والأيدى كلها متصلة بين أطباق عديدة من العدس والخبز وبين الأفواه ، مكن شغال يقرقش البصل يطحن فى لذة وانشغال عظيمين مهيبين يابوى كانهم يؤدون أعظم واقدس عمل فى الوجود يا بوى .

كنت الوحيد الذى لا يشترك فى هذه العملية ، أجلس وحدى فى ركنى هذا منذ بداية تفريق الاطباق ، اذ اننى فى الحق لم اكن انوى أن أدفع « خمسه تعريفه » فى واحد عدس كهذا فوق قرش للرغيفين الذين أحددهما لنفسى فى الطقة الواحدة ثم ان كل ما معى من قروش لا يسمح لي بهذه الرفاهية ، ربما لا ينفع ثمنا لهـذه العشوة وحدها فانا لم أشتغل مثلهم بعد ولم يجر القرش فى يدى . راقبت المعلم « دحروج » وهو ينظر خلفه فى انتظار أن يتقدم منه أحد يطلب طبقا ، شمل الجميع بنظرته تأكد من انهم جميعا مندمجون فى الاكل ، مسح يديه فى خرقة مبللة ثم جفف يديه فى جوانب جلبابه البوبلين الكالح ذى الياقة والأساور المشمرة ، مضى يجر ركبتيه نحو النصبة ، ما أن وصلها حتى صب لنفسه كستبان شاى ثم اشعل سيجارة نفث دخانها فى الهواء ناظرا هنا وها هنا ، وقعت نظرته على فيما انا متكور فى ركنى أقول يا أرض انشقى وابلعينى ، أحاول ابعاد عينى عن الآكلين بأى شكل ايقافا لريقى الجارى مع مضغهم ، كسرت عينى هربا من نظرة المعلم « دحروج » ، لكن بعد ان تأكدت من انه رآنى يا خال ، تأكدت أيضا من انه قد فوجىء وقد اندهش ، ففرحت وارتبكت معا يابوى ، خفت أن يجرنى فى السؤال حتى يضطرنى الى الاعتراف أمام الذى يسوى والذى لا يسوى بأننى لبس معى نقود ، ورحت أدبر كلاما أرد به اذا ما سألني : لماذا لا تتعشى ؟ لكننى احسست به يرشف الكوبة كلها بسرعة ، وبظله يخرج عن حدود النصبة يتجه الى حلة العدس الكبيرة فيكشف غطاءها ، يتناول طبقا من الصندوق ، بالمغرفة الكبيرة راح يقلب العدس المتبقى فى قعر الحلة ثم جعل يغرف ويضع فى الطبق عدسا تخينا يتصاعد منه الدخان ورائحة التقلية ثم يتناول طبقا آخر ، رشقه بين أصابع نفس اليد ثم انتشل من الصفيحة أربع باذنجانات كبار سليمة وضعها فى الطبق ، ووضع فوقها اربع بصلات كبيرات ، وعرج على الطاولة فانتخب تلا من الخبز يزيد عن ثمانى ارغفة حلوة

التقاطيع حمراء الخدود خفيفة الدم ، اى والله يا بوى هكذا بدت لى ساعتها . ما ادرى الا والمعلم « دحروج » مقبل نحـوى بهـذه الوليمة العظيمة ، ثم تربع على الارض متأوها ، رص ما معه على الارض ، شور لى نحو الارض قائلا : « انزل يا ابو العم » . وأنا ما كان مرادى أن يصل الامر الى هذه اللحظة لكن صوت الرجل كان حادا قاطعا وبسيطا فى نفس الوقت ينذرنى بالقطيعة ان تمنعت يعلن على الخسَّة ان نشفت مخى يا خال ، وعلام نشفان المخ يا بوى ! لكننى ربت على صدرى قائلا : « كتر خيرك يا ابو العم ! تشكر تشكر ! الف هناء وشفاء ! » . شخط بحدة كأننى عبده الذى يشتغل عنده ويأمر بقوة : « انزل يا بو العم قلت لك ! » ، واحسست انه يعلق ابو العم هذه ويمطها بغيظ كما لو كان يذكرنى بانه يتفضل على بهذه اللفظة والمفروض أن ينادينى بسواها ، وتأهبت لأغضب واعملها زعلة ولكننى الهمت أن لا داعى لتنشيف المخ اكثر والا انكسر وتفتت ، غير أننى ارتبكت يا بوى ، صرت اردد الفاظا من قبيل : « اصل .. انا .. كنت .. الخ الخ » فى حين لا اقول شيئا ، فبدا على وجه الرجل تصميم ينذر بفضيحة لو أننى سقت الدلع أكثر من هذا ، كدت أميل على أذنه هامسا : « أصلى ممعييش فلوس ! » . لكنه كان اسرع منى ، اذ شور لى ناظرا فى قلب عينى نظرة جادة : « انزل انزل ! على حسابى ! » ، تململت قليلا ثم نزلت متربعا قصاده وفى نيتى ان أتنقق بمضغ لقمة او لقمتين اكراما للرجل ، فما كدت امد يدى واسحب الرغيف حتى لامس ركبتى باصابعه علامة تنبيه . فنظرت فيه باهمية فنظر فى باسما يقول : « بس العزومة دى الليلة دى وبس ! اوعك تاخد على كده ! اللى اوله شرط آخـره نور يا بو العم ! » . ثم ضحك وضحك الجميع فضحكت معهم مضطرا . لكن ، ما كدت أشرع فى تغميس اللقيمات بالعدس والباذنجان والبصل حتى فقدت الوعى والله يا بوى ، فصرت اطوح فى فمى بلذة فائقة والرجل ينظر لى من حين لحين مبتسما كأنه يذكرنى بتحديه السابق عن مذاق اكله .. لا اذكر عدد الأرغفة التى مزقتها وبرمتها وطوحتها فى بالوعتى ، لكننى اذكر ان الرجل جاء بتل آخر من الأرغفة واعاد ملء الطبق مرتين وهو يقول : « معلهش ! غلطتى واستحق التربية ! ما كان مالى ! ما اللى دهانى فدعانى لأن اقطع املك فى تذوق طعامى مرة ثانية بدون نقود ! » ، وحين أخرج امامى آخر بصلة ونفض

آخر ما فى الحلة صار يعشمنى قائلا : « لا تصدقنى يا ابو العم ! لسوف تأكل عندى وقتما تشاء دفعت أو لم تدفع ! » .
ثم انه اتجه الى النصبة فملأ براض العمال ولقمه بالشــــاى وصف الأكواب منعدلة فيما هو يدخن بلذة فائقة . ثمة خاطر يحول فى دماغى باننى سأكون حتما من زبائن الاكل عند المعلم « دحروج » ، واننى لا محالة تارك له يوميتى يجزر منها الحساب الذى يحدده هو وذمته ! .. صار يصب الشاى فى الأكواب ويزيحها بعيدا وكل واحد ينهض فيجىء ويأخذ كوبا ويمضى . قمت بدورى فاخذت كوبا ، فنظر لى قائلا : « على حسابى برضه ؟ » . قلت : « لا .. على حسابى أنا ! والأكل أيضا على حسابى ! عزومة هذه الليلة بالذات على حسابى يا ابو العم ! ويبقى لى عندك عزومة ! » . ارتفعت اصوات الشفط فصنعت جوا لطيفا ، راح المعلم « دحروج » يفر فى دفتر ممزق سحبه من تحت النصبة ، بقلم جاف أخذ يدون حساب كل واحد منهم ، ثم صاح تجاهى ويده على صفحة جديدة بيضاء : « اسمك ايه يا ابو العم ؟ » . صحت قائلا : « حسن ولد أبو ضب » . كتبه ، ولا أدرى ماذا كتب أمامه من أرقام ، لكننى فى الحال فتحت دفترا فى دماغى وكتبت فيه ما اخذته اليوم بالمليم .
الا والحاج « فرهود رمضان » داخل علينا ، حوله أربعة رجال أشداء وجهاء بعمائم صعيدية كبيرة وجلاليب من الصوف المعتبر وعباءات من الجوخ على أكتافهم . كانت شخصية الحاج فرهود أوضحهم ، يتقدمهم ، قصير القامة نوعا ، عريض الكتفين ، ممتلىء الوجه بالدماء والعافية ، غليظ الملامح ، تخين الصوت أجشه ، يرتدى مثلهم نفس الثياب ولكن العز والفخفخة ناضحان عليه ، ومن فتحات الثياب تتدفق النعمة فى ملابس داخلية ثمينة ، من الواضح انه يستحم ويحلق ذقنه كل بضع ساعات ، وبيده العصا الأبنوس العوجاية .
كل من معه تأففوا من الكراسى ونفضوها بأطراف ثيابهم الا هو جلس على أقرب كرسى كيفما اتفق . فلما اندهشت اخبرنى ولد بلدى انه على هذه الحال منذ ما يزيد على عشرين عاما ولم يشأ أن يغير عاداته بعد أن أكرمه الله وصار من الأثرياء ، بل فضل أن يظل يباشر عمله الاصلى فى المقاولات البسيطة بنفسه ، تاركا شركاته الكبيرة لموظفيه الكبار يديرونها بالطريقة التى يعلمونها تحت اشراف وحراسة ابنائه وهم أفندية كبار متعلمون ..

ثمة رجال آخرون كانوا خارج المقهى بالمئات صاروا يتدفقون علينا . فبعضهم جعل يقبض أموالا كبيرة سيقضى بها مصالح عاجلة، وبعضهم يقبض أموالا صغيرة ، والبعض الثالث يتلقى بعض الاوامر والتوصيات وينصرف . فوضح لى أن الرجال الأربعة الجالسين هم أربع رؤساء كل واحد منهم مسئول عن حوالى مائتين أو ثلاثمائة نفر يعملون فى عملية معينة فى مكان ما تبع الحاج « فرهود » . فلما لاحظت أن الزحام بدأ يخف ويتلاشى تقدمت من الحاج « فرهود » وقلت له : « اتمسى بالخير يا حاج » . قال : « مسا النور .. تحب تشتغل فى ايه ؟ » . قلت والبشر يطفح منى : « أنا أحب ان حضرتك تشوف لى شغله على قدى ! » . نظر فى متأملا ثم قال : « انت كنت بتشتغل ايه قبل كده ؟ » . قلت : « سماك .. وقهوجى » . أعاد النظر فى وزام مفكرا ثم قال : « أما السمك فلم نشتغل فيه بعد ! وأما القهوة فأمر فيه نظر » . قلت محننا قلبه : « ربنا يخليك ! ويزيدك من نعيمه » . أعاد نظره فى ثانية وقال : « انت منين يا ابو العم ؟ » . قلت بسرعة : « من الغنايم قبلى ! كوم سعيد ! من ولد ابوضب ! أعمامى المشايخ الكبراء ! يمكن تسمع عنهم ! » . انبسط وجهه فجاة قال : « بقى انت ولد ابو ضب ! دا الشيخ ابو ضب الكبير كان الفقى بتاعى يا ولد ! كنت تلميذا فى كتابه وانا طفل صغير ! ووالله ما نفعنى فى الحياة حتى اليوم سوى ما تعلمته منه فى ذلك الزمن ! رحمه الله ! » . اتفشخت يا بوى على الآخر وكبرت قامتى امام الخلق ، ونظر هو الى واحد بجواره وقال: « ياريس حمدون ! خده معك الى المعسكر باكر ! فاننا نحتاجه ! »، ثم نظر لى قائلا : « باكر قبل طلعة الشمس تكون هنا منتظر الريس حمدون لتركب معه وتروح المعسكر الهايكستب ! » . قلت بقليل من التوجس : « حاشتغل ايه فى الهايكستب يا حاج ؟ » . شوح قائلا : « باكر ساريك ما تفعله » . ثم حول نظرته عنى مرددا فيمن حوله : « حد تانى عايز اى حاجه منى ؟ » . فلما لم يتقدم أحد بحاجة نهض متكئا على العصا قائلا : « توكلنا على الله » . فنهض الجميع فساروا خلفه وانصرفوا .. فحل بالمقهى هدوء شديد شديد خفتت له الاضواء فى اللمبات .

الثانية - سقف العراء !

شادر البطيخ كبير جدا يا بوى ، يشبه دوار اكبر عمدة فى البلاد كلها . يتهامس ولد بلدى قائلين العجب : هو ثروة كبيرة فى يد صاحبه الحاج « رفقى » ، الذى استولى على هذه المساحة الشاسعة بوضع اليد منذ سنين طويلة ثم أجرها من البلدية ثم آلت اليه ملكيتها فى النهاية بثمن بخس طلع عليه مصاريفا نثرية . شادر البطيخ اسم فحسب يا بوى ، والبطيخ كله لا يزيد عن كومة صغيرة مرصوصة فوق بعضها على باب الشادر . أما الشادر نفسه ـ الممتد على مساحة فدان أو اكثر ، والمبنى بجدران طينية ومسقوف بمشمع الخيم ـ فانه ملآن بعربات اليد الصغيرة مجنزرة باقفال فى صفوف طويلة من أول الشادر الى آخره ، وبقية من أرضه ملآنة باجساد مرصوصة جوار بعضها ، منهم المغطى ببطانية جيش قديمة ، والمغطى بحرام صوفى عتيق ، والمغطى بجوال مخرق ، والمغطى بجلباب قديم متهرىء . أما الحاج « رفقى » نفسه فانه ـ تحلف اليمين ـ لا يساوى تعريفه ، كرش هرمى قاعد على الارض ، له ما يشبه راس الانسان، فتحة طوق جلبابه مفشوخة وفتلة من الدوبارة المتينة مربوطة فى عروة الصديرى وطرفها الآخر مربوط فى محفظة جلدية كبيرة جدا ومنتفخة فى جيب الصديرى ، وجهه كالبطيخة بالضبط يا بوى ، لونه ـ تحلف اليمين ـ بين السواد والخضار ، منتفخ العينين يملأ العماص جفونه ..

رحت وجئت من أمامه عدة مرات ومرادى أن أكشف عن زاوية بعيدة منه أرمى فيها جثتى سواد الليل دون أن أدفع شيئا ، فعراء بعراء وخلاء بخلاء ولا داعى اذن للخسارة قرشين . كنت اظنه لا يلحظنى يابوى ، لكن اللعين شعر ـ وهو فى مكانه ـ بملامسة جدى لجدار الشادر المخفى عن نظره ، اذ ما كدت اتقرفص مركتنا للحائط كأننى سأستريح برهة وجيزة حتى سمعت نحنحة بصوت عال وبنغمة ذات معنى . وما كدت أتمدد واضعا ذراعى تحت راسى حتى جاءنى صوته راعدا كصوت العواء المقبض : « أنت يا جدع

انت ! هي وكاله ولا ايه ؟! » . فنهضت فى الحال جالسا ، اظهرت نفسى مقبلا نحوه : « ساالخير يا حاج رفقى » . وضع كفه كالتندة فوق عينيه صـــاح بغير ود : « سا النور ياخويه ! انت من اللى بيترموا تحت الجدران ولا ايه ؟! » . تبسمت رغما عنى قائلا : « لا ! أنا من رجالة الحاج فرهود ! وراجل اعجبك ! بس الزمن هو اللى قاسى ! » . اغتصب ابتسامة خشنة ، قال : « طب وماله ! . بس تيجى تمسى علينا الأول واحنا نشيلك على راسنا ! » قلت : « عاوز أبات للصبح ! » قال : « جوه ولا بره ؟ » . قلت : « جنبك هنا ! » . قال : « نص افــرنك » . قلت : « والحــاج مالوش اكرامية ؟ » . شوح قائلا : « الحاج قدام نص افرنك ؟ دا حتى يبقى عيب ! » ثم أشاح عنى كأنه أنهى المقابلة . مددت له يدى بالقرشين والفيظ يفرينى ، وقلت لنفسى : صحيح انهــا مصر أم العجائب ! عشنا وشفنا من يبيع لنا النوم فى العراء بقرشين ! حار ونار فى جتته .

استرطبت بقعة مجاورة له تماما وتمددت طاويا ذراعى تحت راسى . وقلت له قبل أن استفرق فى النوم : « والنبى تصحينى بعد صلاة الفجر على طول ! » . قال « طيب » . غفوت ، ثم صحوت ، ثم غفوت ثالثة ،وكلماصحوت لأعتدل على الجنب الآخر رأيت صف الأجساد المتمددة بجوارى يصل الى آخر جدار الشادر من كل ناحية .

الثالثة ـ نهـــارك أبيـــض !

من شاهدني لحظة عشوة العدس بالأمس لا يشـاهدني صباح اليوم ، وقد اندمجت فى الرجال حول قدرة الفول ورحت أصيح مثلهم بلهفة واستعجال : « شوية زيت حار هنا ! بصلة يا معلم ! بدنجانه تانيه ! » . أكلت حتى امتلأت صحة وصرت بفعل الفول والبصل يا بوى مستعدا لضرب الحديد بقبضتين .

تسلطنت أمام كوب الشاى الساخن وكان معى سيجارة مكن هليود قطمتها نصفين شبكت أحدهما فوق أذنى وفرطت الآخر فى ورقة بافرة برمتها وأشعلتها وتأملت لون الدخان فرأيته أرتوازيا فى لون نصباح أبيض القلب يا خال . كنت قاعدا على الرصيف خارج المقهى فى انتظار الريس « حمدون » . وقعت عينى ـ سامحها الله ـ على نافذة بيت فى مواجهتى على الرصيف الآخر تشبه طاقة مستديرة مغطاة من الخارج بشبكة سلكية ، وثمة وجه آدمى يحاول النظر من خلالها من الداخل . كانت الحائط من الخارج مبلولة بالرطوبة وفيها مواسير للمياه مما جعلنى أفطن الى أن هذه النافذة فى حمام البيت يابوى . فأصابنى هياج كبير يابوى ، وأنا ما كان مرادى أن أنظر يا بوى لكنه الشيطان قاتله الله ، هو الذى أقامنى من قعدتى فعبرت الطريق الى الرصيف ، وفى ظنى أن الذى يحاول النظر من النافذة من الداخل لابد أن تكون امرأة ، لعلها « أم حنفى » أو من تشبهها ، ولابد أيضا أنها تطلبنى لشىء أو ترغب فى مساعدة ، والا ما بقيت تواصل النظر هكذا يا بوى ولابد كذلك أن الله جعلنى انتبه اليها يا بوى لمصلحة لها أولى . ما أن وصلت الى النافذة حتى توقفت مرتعبا وقلبى ينتفض . شببت على أطراف أصابعى ، فتبينت الرأس المشعر واقفا لا يزال خلف الشبكة السلكية . ثم قفزت فى الهواء أمام النافذة ملقيا بصرى فى الغرفة فاصطدم بظلام دامس . مخ صعيدى يابوى صدق من أسماه . صممت على رؤية هذا الشخص والتأكد من أنه امرأة تنادينى من خلف الحجاب لتتواعد معى على شىء ووعد النساء دائما بهيج يا خال .

في قفزة عالية قلت للراس الواقف خلف الشبكة : انا خدام . في قفـــزة ثانية قلت : آمرى وأنا انفذ . قفزة ثالثة قلت : اى خدمة . في قفزة رابعة سقط جسدى بين أيدى ثلاثة من الرجال الأشداء ، كتفوني ، وخد عندك .. فين يوجعك : زغد وتلطيش وتشليت وسب أم وكل ما لا قلبك يحبه . اذا بهم مخبرون سريون، واذا بهذه الغرفة هى غرفة الحجز التابعة لقسم الشرطة الذى يطل على الشارع الجانبي . اخذونى الى القسم يا بوى وأنا أصيح لله ما يغيثني حتى تحطمت قواى قبل أن يبدأ النهار ، فياله من نهار شؤم كانت بدايته نافذة السجن يا بوى .

ولد أعمامى وبلدياتى لعنونى ، فصاروا يضحكون يصيحون فيما انا واقف أمام الضابط والضرب شغال على قفاى . سألنى ما الذى كنت افعله مع المساجين ؟ فلم أعرف جوابا قط سوى قولى : والله ما اعرف انه سجن . الذى طلع على ساعتها قولى : والله ما أعرف انه سجن . الا والريس « حمدون » مقبل علينا كالأسد يضحك . نهض له الضابط وسلم عليه باحترام كبير ـ طبعا يا بوى . قال الريس « حمدون » : عمل ايه الولد ده ! عملت ايه يا ولد ؟ » . قال احد المخبرين : « ضبطناه ينط على منور الحجـز ويتكلم مع المحتجزين . رحت ابكى وأبكى ، قلت : « ابدا والله ! انا كنت العب شوية رياضة وعمال اتنطط » . قال مخبر آخر وهو يركز بصره فى عينى : « يا رجل اتق الله فى دينك ! بطل كدب ! » . وضحك الريس « حمدون » وقال : « تتنطط ليه يا ولد ؟ انت مجنون ولا ايه ! داهيه تسمك ! » ، ثم لطشنى هو الآخر كفا تخينا على صدغى حتى اصطدم خاتم فى اصـبعه بضرس فى فمى فصرخت فـزعا . قال الضابط : « حضرتك تعرفه ؟ » . قال الريس « حمدون » وهو يبدو عليه انه تاثر من ضربى : « ايوه دا من انفارنا ! دا ولد عبيط وغلبان وابن ناس طيبين ! يلا قدامى يا ولد ! » . نظرت الى الضابط، فأشار لى بيده قائلا : « غور من هنا واوعى اشوفك تانى ! » . فاندفعت أجرى الى المقهى ، لأجد ما تبقى من الزملاء يضحكون ولكن فى شعور بالخوف والشفقة على حالى يا بوى . فلما لحق بى الريس « حمدون » أشار قائلا : « يلا يا ولد اركب انت وهو ! » .

كانت عربة اللورى واقفة تشبه عربات الجيش او الشرطة الخالق الناطق غير أن هذه مكتوب عليها : « فرهود » . ركبناها ، وركب الريس « حمدون » بجوار السـائق . مضت العـربة فاخترقت

« عين شمس » حتى وصلت الى آلهايكستب فانفتحت امامها البوابة فمضت فى الداخل مسافة طويلة حتى انتهت بنا الى قرب محطة تسمى « المصحة » هى آخر محطة للقطار الذى يصل من باب الحديد الى هذه المنطقة وجنود الجيش يخرجون من المعسكر اليها بعد مشى طويل ليأخذوا منها القطار الى باب الحديد عند سفرهم فى الاجازات ، وبالطبع ينزلون فيها عند العودة .

توقفت العربة عند بنايات متقابلة بسقف جملون ، وقيل انزلوا. فنزلنا ، ساقنا الريس « حمدون » خلفه فمشينا بين هذه البنايات الظليلة وقلبى منقبض غاية الانقباض ياخال . لست والله أعلم السبب ، ربما كان بسبب الضرب الذى نلته اليوم على ريق الصباح، وربما التشاؤم من تنطيطى امام غرفة السجن بكل سعادة وغشم ، وربما يا بوى كل هذا ولكن السبب الذى كنت احسه قاطعا فى نفسى هو منظر الرءوس المطلة من شبابيك هذه البنايات وفوقها الكاب الأحمر والاخضر والازرق ، ومنظر النجوم والضبابير اللامعة وهو مشهد يلقي الرعب فى قلبى وحده يا خال ، لست احب مشاهدته ابدا ، اذ أن أمى طول عمرها كانت تسعى لاعفائى من الجهادية بأى ثمن ، ولولا رهافة قلبها لفعلت بى ما يفعل غيرها بابنائهم اذ يكسرون له أصبعا أو يختلقون فى جسده تشوها لكى يسقط فى فرز النظارة ولا تأخذه الجهادية . لكن امى طول عمرها ونحن كلنا طول عمرنا نكره هذه الكابات وهذه الضبابير والنجوم والشرائط كراهيتنا للانجليز فكيف أجىء لهم بقدمى يا بوى ؟! ندمت والله على أننى وافقت بالأمس على المجىء الى هنا ، كان الواجب ان اقول : لا ، حينما جاءت سيرة المعسكر والهايكستب ، لكنه قدر الله يا بوى . وعلى كل حال فلابد أن أتصنع النوم حتى يفقد الريس « حمدون » أمله فى شغلى فيستبعدنى عن هذه الفرقة وبعدها يحلها الحلال يا بوى . انهم بالطبع يعرفون اننى اكلتها اليوم ازواجا وافرادا ، ولابد انهم سيصدقوننى ان زعمت المرض .

انفصلنا عن البنايات وصرنا نمشى فى عراء الشمس مسافة طويلة الى أن صادفتنا بنايات اخرى على صفين متقابلين لكنها متهدمة . عندها توقف الريس « حمدون » فتوقفنا . لحظتها فقط انتبهت الى أن الانفار كلهم يحملون معهم فئوسا وكريكات ومقاطف وقصاعا واشياء من هذه الا محسوبك لا يحمل شيئا . قلت : حلو ، سوف يكتشف الريس « حمدون » هذا فيزجرنى ويطردنى فاتكل على الله

الى محطة « المصحة » عائدا الى باب الحديد ومنها الى باب الله . الريس « حمدون » شاهدنى ولكنه لم يفعل شيئا ، وقف يوزع الانفار على الجدران المخرقة ليحولوها الى هديم وانقاض . ذلك أن هذه هى ادارة المطار الذى دمرته طائرات العدو ، سوف نعيد بناءه من جديد على نسق آخر . هكذا قال الريس « حمدون » . كان ثمة عسكرى كالحارس يجلس على مقربة من الهديم وبجواره راديو ماركة صوت العرب مفتوح عن آخره وصوت « محمد عبد المطلب » يصدح مغنيا : يا سايق الغليون عدى القنال عدى .. وقبل ما تعدى .. خد مننا وادى .. ده اللى فحت بحر القنال جدى .. عدى .. عدى .. ياسايق الغليون . تلاشى صوته تحت صوت أم كلثـــوم يغنى : صوت السلام هو اللى ساد واللى حكم . ثم تلاشت هى الاخرى ودخلت المجموعة تصدح بجعير يفزع القلوب حماسة : الله اكبر ! الله اكبر !..

قلت فى نفسى : ما للاذاعة اليوم زائطة هكذا والكل عمال يدخل فى بعضه يريد أن يغنى فوق الآخر بالعافية . اذا بولد من بلدياتى يسمعنى ، وكان من قديم فى مصر القاهرة فمال على اذنى قائلا : « أما علمت » ؟ قلت بلهفة : « ماذا » ؟ قال : « هجم علينا ثلاث دول هى انجلترا وفرنسا واسرائيل » . قلت : « هجمت علينا كيف يا ابو العم ؟! » قال : « على بور سعيد ! ودار القتل فى الشوارع والبيوت وطال الضرب مصر القاهرة من الجو وهذه نتيجة الضرب هم يهدمون ونحن نبنى » . صرخت فيه : « لماذا فكرتنى بالضرب يا شيخ ! لعن الله الضرب والضاربين حتى يجربوا عذاب المضروبين !» حينئذ لكزه زميله ، فتركنى وجرى بفاسه ومقطفه .

كل الانفار توزعت وبدأ الشغل فى الحال الا أنا يا بوى ، ظللت فى وقفتى ميهضا انتظر المصير . فلما اطمأن الريس « حمدون » الى أن الشغل يمضى على بركة الله ، استدار نحوى كأنه فوجىء بى . يبدو أننى صعبت عليه يا بوى . تذكر الكف الذى رزعنى به ، فاذا هو يضع يده برفق شديد على كتفى ويربت ، واذا هو يستدرجنى فى المشى بجواره واضعا يده على كتفى كأنما ليصالحنى ، واذا هو يقول : « تقول انك فى الاصل قهوجى ؟ » . استدركته مصححا : « أقول أننى اشتغلت قهوجيا ذات يوم » . قال مبتسما : « يعنى عندك فكره » . قلت : « عندى وأفهم فى هذه الصنعة جيدا » . ربت على ظهرى قائلا : « حلو ! الناس بلدياتك هؤلاء طول النهار

بودهم لو يشربون الشاى عاملين الشاى حجتهم فى القريفة خصوصا بعد الغداء ! وهذا معسكر ! ليس فيه كلام من هذا ! ما رأيك لو جئت لك بوابور وعدة ونصبت هنا نصبة شاى وقهوة جنب الأنفار وربنا يرزقك من ورائهم ! أما المعسكر فليس لك شأن به فلن يتعرض لك أحد ما دمت أنت فى منطقة بعيدة عن الخطر ! هم أيضا يحبون شرب فنجان من القهوة وواحد شاى عند العصارى ! سترزق من ورائهم أيضا » ..

لم أدر والله يا خال الا وأنا منهال على يدى الريس « حمدون » بالتقبيل والشكران . تفاءلت خيرا بهذه الشغلة التى لم تكن تخطر لى على بال يا خال ، حيث لا يتحكم فى أحد ولا يثقل كتفى حمل . قلت للريس « حمدون » :

ــ « هذه الشغلة هي عين المرام ! ولكن أنا ما معى نقود الآن اشترى بها العدة والمونة فما يكون الرأى ؟ » ..

قال : « أنا أعطيك سلفة تشترى بها لوازمك وعندما يكرمك الله ردها لى » . وفى الحال نقدنى خمسين جنيهـــا بالتمـــام والكمال اهتز من لمسها بدني كله ورقص قلبى ولولا خوف من رهبة الريس « حمدون » وقوة الحاج « فرهود » لأخذتها ووليت عائدا الى الصعيد وبارك الله فيما رزق ، الا اننى كنت قد نويت لله خيرا واستقامة ، ووجدتنى أقول فى غبطة : « وهل أنا ســـأقدر على رد هذا المبلغ يا ريس حمدون ؟ » . شوح بخاتمه فى وجهى قائلا : « يا خى .. بكره تسقينىبيهم شاى وقهوة » .

قلت : « أبدأ من غد » ، وكان قد مضى خطوات فاستدار صائحا : « بل من الآن ! فما وراءك اليوم ؟ » . قلت : « كيف يا أبو العم والمواصلات كلها .. » قاطعنى : « عربات المعسكر طول النهار رائحة جائية انزل فى واحدة وارجع فيها أو فى غيرها المهم أن تشعل نارك اليوم وتسقينا شايا بعد الغداء ان الرزق يحب الخفية يا بو خاله ! » . ثم تركنى ومضى . قلت والله لأفعلن .

تسلقت عربة جيش نازلة . القت بى فى الزيتون، وأوصيت السائق أن يمر على فى قهوة « دحروج » ليشرب شايا ويأخذنى فوافق وأوصانى بدوره أن أشترى له علبة سجائر ورطل موز فوافقتا .

المعلم « دحروج » فرح لما أخبرته الخبر ، تمنى لى كل خير ، زودنى بالنصائح عن أسعار السوق وفـن الشراء ومن أن أجـود

الوابورات ألبريموس واجود الكوبات باسين واجود الشاى البنت الفلاحة واجود السكر الخرز يفرط معك ويحلى . كل ذلك فيما هو واقف معى على الباب . دعوت له بالستر ومضيت ، قصدت المحل الذى وصف لى مقره ، اشتريت منه الأدوات كلها من ابرة الوابور حتى البراريض والملاعق ، وفناجين بأطباقها للضباط والكابات المزينة بنسور ثقيلة . لف البائع لى كل ذلك لفة واحدة فى صندوق كرتونى كبير متين مبطن بالقش والورق حملته فوق رأسى ومضيت . قصدت دكانا آخر وصفه لي المعلم « دحروج » أيضا فاشتريت منه شايا وسكرا وبنا وينسونا وحلبة وكراوية وكركديها وكبريتا . هو الآخر لف لى كل ذلك فى رباط متين حملته فى يدى ومضيت الي مقهى المعلم « دحروج » . مررت بقسم الشرطة فوجدتنى أتلكأ فى السير أكاد أزحف كأننى أكيد له أريه الى أى حد أنا رجل محترم ومعى نقود تشترى أشياء كهذه . أمال يا بوى . بجوار المقهى حودت على كشك للسجائر فابتعت منه علبتين هليود صغيرتين واحدة لى والاخرى للعسكرى سائق العربة . ولم يكن قد بقى من الثروة كلها سورى ورقة بعشرة جنيهات صحيحة صعب على أن أكسرها بشراء الموز ، والقروش المتبقية معى تكفى للنوم على باب الشادر وتذكرة قطار كوبرى الليمون . استدرت فوجدت العربة واقفة على مبعدة والعسكرى جالس على باب المقهى يشرب الشاى فى انتظارى . فلما رأى منظرى بالشيلتين وحرصى على شراء السجائر شفط الكوب كله ونهض يحمل عنى فأعطيته الصغيرة ومضيت بالكبيرة فوضعناهما فى أرض العربة واستدرت صائحا : « الشاى عندى يا معلم » . رد قائلا : « ماشى يا بو العم » . فانتشى فؤادى وفهمت مزية أن يكون لك دفتر حساب عند الناس وأن يستروا كرامتك أمام الناس فى لحظات كهذه . ركب السائق وأدار المحرك وزعقت العربة عدة زعقات متوالية كأنها تنذرنى بأن أتذكر شيئا أكون نسيته قبل الرحيل . وكنت أرى الموز على مقربة منى لكننى اعتمدت على أن زعقات العربة استعجلتنى فقفزت شابطا فى الباب المجاور للسائق ودلفت جالسا بجواره جاذبا الباب معى فى نشوة أنست ضلوعى وجع الصباح المؤلم . مؤخرتى يا خال كانت هى الاخرى تنضح بألم الشلاليت تقرصنى كلما حاولت الجلوس . احتوتنى شلتة الكرسى فغفوت لمدة جزء يسير من الثانية ، أى والله يا بوى ، تحلف اليمين

انني ماذريت بشيء البتة ، الا أنني فتحت عيني فجأة فوجــدت العربة معتدلة على الطريق الطوالى نحو المسكر . فدب فى أوصالى الانتعاش وفنجلت عيني كأنى صحوت بعد نوم طويل وها قد أصبح الصباح فاذا بي على غاية واضحة ومستقبل فيه العشم الكبير .
قال السائق : «صح النوم» . قلت : « صح بدنك يا وحش !»، واخرجت علبة السجائر فمـددتها نحـوه قائلا : « دى هدية مني لك ! ولكن لا تؤاخذنى نسيت الموز ! يظهر انك استعجلتني ! لكن ! » . قاطعنى : « لقد اشتريت » ، وترك عجلة القيادة مسنودة بطرف اصبعه ، وسحب سباطة موز نزع منها ثلاثة اصابع وماها فى حجرى قائلا : « قشر وكل ! » . ثم نزع ثلاثا أخرى رماها فى حجرى قائلا : « وقشر لى » . تراقصت من الفرح وقشرت له وقربت الاصابع من فمه فالتهم والتهم . وقشرت لنفسى والتهمت فنزل طعم الموز فى جوفى بردا وسلاما يا بوى ، صرت أدعو للولد بالستر اشكر الله على عظيم نعمه وفضائله ، فما انتهيت من مضغ الاصبع الثالث حتى كان الولد العفريت قد فك سلوفان علبة السجائر وفتحها ونزع منها سيجارتين قدم لى واحدة ووضع الاخرى بين شفتيه ثم أخرج مشط الكبريت فأشعل عودا صنع لشعلته بكفيه قبة تحميها من الهواء وقربه منى فأشعلت سيجارتى باستمتاع وأشعل لنفسه ورمى بقايا العود فى الهواء بعد ان أطفاه ثم أخرج من جيب صدره شلنا ورقيا رماه فى حجرىْ قائلا : « ثمن علبة السجائر » . قلت صائحا : « لا يا وحش ! هي هدية مني لك ! » ، ورددت الشلن لكنه ضغط علىَ يدى بعنف قائلا : « هديه ايه يا ابو العم ! انت رجل على باب الله تستحق المساعدة ! » ، وظل قابضا على قبضتى بأصابع حديدية حتى تألمت فصحت : « خلاص ! خلاص ! » ، وخلعت قبضتى من قبضته ووضعت الشلن فى جيبى وقد أحسست نحوه بمشاعر الأخوة والصداقة . انفتح له قلبى يابوى ، نسيت به كل وجع فى ، رحت أواصل الدعاء له بالستر وهو يتابعنى مرددا : « آمين يارب العالمين ! احنا وانت والسامعين ! » ، حتى صرنا فى قلب المعسكر .
استقبلنى ولد بلدى بزيطة كبيرة ، صار بعضهم يساعدنى فى فك اللفتين ، والبعض يصنع لى مركزا على مبعدة قليلة ، اذ جيء ببعض عروق الخشب المتخلفة عن الانقاض ، وبعض الألواح العريضة الكثيرة المتراكمة هنا وهناك ، والواح الصاج وأعواد الحديد . من كل ذلك

تشكل ـ فى دقائق معدودة والله يا بوى ـ كهف جميل راكع على الارض فاتح فكيه كاتمساح المحنط ، فان دخلته وجدته ممدودا ، وكلما امتد ضاق مجاله حتى يلتقى سقفه بأرضه فى انبعاجة وضعت فيها صفائح المياه الحلوة للشغل ، واقمت طاولة عالية ووضعت الوابور فى مكانه والأكواب فى مكانها ولم يبق أمامنا سوى اشعال النار . صار الجميع فى أشد الشوق لسماع صوت الوابور بل ان العساكر المراسلة جاءت من المبانى البعيدة تسأل اذا ما كان الوقت قد حان لفنجان قهوة على الريحة بسرعة .؟ .. غير أننى كنت كالأهبل فى الزفة . سامح الله المعلم « دحروج » ذكرنى بكل شىء الا شراء الجاز ، الا أن ولدا بحراويا من سلاح الاشارة غاب قليلا وعاد حاملا زمزمية كبيرة ملآنة بالجاز فاستبشرت خيرا . ان هى الا ثوان قليلة حتى صهلل الوابور وتوج راسه بالبراض العمال الكبير كعمامة الصمايدة لكن زرقاء . كانت أمتع لحظة أن رأيت الجميع مصطفا أمامى فى الكهف وخارجه ممسكين بالأكواب الممتلئة بلون غروب ذلك اليوم .

وكنت أشرع فى اطفاء الوابور وجمع العدة استعدادا لمغادرة المعسكر مع زملائى الأنفار حين جاءنى الولد البحراوى وقال اننى يحق لى المبيت ها هنا حيث انه قد جاء لى بتصريح من القيادة حيث أنهم رحبوا جميعا ببقائى فى الليل . قلت : فرجت . جىء لى بصندوق خشبى فارغ وكبير من صناديق الذخيرة قلبته على فمه جعلت من قعره سريرا . أما الأكل والشرب فميسور أمره فى المعسكر وأما الطلبات الاخرى فطريقها معروف وسيارات المعسكر لا تكف عن الرواح والمجىء ، ناهيك عن سيارات « فرهود » .

الرابعة - بل القراقيـــــش

طابت لى الحياة فى المعسكر يا بوى ، جرى القـرش فى يدى والاشياء صارت معدن وآخر فل بالصـــلاة على الحبيب النبى : هات واحد شاى يا حسن .. هات خمسة قهوه يا حسن .. يا حسن يا حسن يا حسن صرت اشهر واحد فى الهايكستب كله ، الضابط قد لا يعرف بعض جنوده لكنه يعرفنى حق المعرفة . صرت كـل بضعة أيام انزل الى المدينة لاتسوق المونة ، وكل من أراد طلبا من سكان المعسكر يؤجله لحين نزولي . قرش من هنا على قرشين من هاهنا تتجمد الجنيهات ، فقبل أن يذيبها دفء ضلوعى أرحلها الى البلد بحوالة بريدية لأمى .

فى ليلة من ذات الليالى كنت أتأهب لانزال الباب والنـوم ، وصوت الوابور كان يون فى بطء شديد لاهث يدعونى للتشـطيب بسرعة ، وكانت يدى قد وصلت بالفعل الى المحبس لافراغ الهواء حين دخل على عسكرى صعيدى يحمل لفة مستطيلة . ارتمى على الصندوق قائلا : « واحد شاى ياحسن قبل ماتطفى » . صببت له واحدا وبقى فى الكنكة قليل من الشاى ، فلما رايت الولد العسكرى يلوح بورقة سلوفان فيها عدساية افيون كبيرة افرغت بقية الشاى فى كوبة صغيرة لى قائلا للولد : « ليلتك فل » . اقتسم الولد عدساية الأفيون معى وجلسنا نشرب الشاى . الساعة فى معصم الولد كانت تشير الى الثانية بعد منتصف الليل . الولد العسكرى هذا يا بوى ، بلدياتى ، تعرف على منذ أول يوم ، فكرنى بنفسه وفكرته بنفسى وبان أننا كنا أصحاب أيام طفولتنا فى كوم سعيد فى الغنـــايم قبلى ، لولا هـذا ما كنت آمنت له . لم أكن أدقق معـه فى شىء ، مرة يحاسبنى وعشر مرات يشرب ويمشى ، لكنه بين وقت وآخر يفاجئنى بهدايا لطيفة ، حتة حشيش كبيرة ، عدساية أفيون ، علبة بولوبيف مبرشمة ، علبة سجاير أجنبية ، طبق من قطع اللحم المسلوق ، أرغفة صابحة مع طبق أرز . ذلك ان هذا الولد يا بوى ،

يشتغل فيما يسمونه بالكانتين وفوق ذلك هو ولد ملقط وابن زانية ، مفتح على الآخر ، جدع ، خفيف الدم مفعص الوجه له عيون مثل عيون الكلب ساجية على الدوام وسنتان بارزتان وفك طويل واذنان طويلتان مما يجعلنا نتصور أن أمه لابـد أن تـكون قد بنت بـكلب وانجبت منه هذا الولد واسمه « قرقوشه » .

كان من الواضح ان الولد « قرقوشه » مسطول على الآخر . قلت له : « انت جاى منين يا ولد ؟ » سقط الخبث من عينيه الى شفتيه فتهدلتا بابتسامة مرتجفة . كأنه أراد أن يخلص من النق عليه راح يدعبس فى جيب الأفرول ثم استخرج قطعة حشيش تصلح خمس ست سجائر بالراحة . أغلقت الباب علينا واشعلت الوابور لكى تفطى رائحة الجاز على رائحة الحشيش ورحنا ننسجم بشراهة كبيرة . فنجلت عين « الواد قرقوشه » فكان لابد أن اسأله :

ـ « الا قل لى يا واد قرقوشه ! انت بتجيب الحشيش والأفيون ده منين !؟ » .

قال ضاحكا :

ـ « من باب الله ! بيجينى لحد عندى من غير ما ادور عليه ! المعلمين الصعايده يا آبا ! قرايب صاحبك ! كلهم معلمين كبار قوى ! يعجبوك قوى قوى ! » .

اندهشت والله يا بوى ، قلت له :

ـ « وانت ايه اللى وداك حداهم يا قرقوشه ! ولا ايه اللى جابهم حداك ! دول ناس شياطين يا وله ! وانت راجل على باب الله زينا ! » .

ضحك الولد اللعون وشد نفسا عميقا تبعه بشفطة شاى وقال ببساطة :

ـ « هم كل يوم والتانى هنا ! ومنا عسكر كثيرون يشتغلون عندهم مراسلة وحرسا وكل ما شئت من شغل ! » .

اندهشت اكثر يا بوى ، تلعبك دماغى وزغولت بطنى وصرت اقول :

ـ « هم رتب فى الجيش !؟ » .

شوح بقبضته السوداء فى وجهى غامزا بشفتيه :

ـ « أنت عدوك أهبل !؟ كل واحد من اقـربائه هو الآخر له

محاسيب ! هى لعبة ولا ايه ! كله يا ابنى بتاعه هنا وهناك ! امشى وراه تكسب وتاكل الشهد ! » .

تحلف اليمين يا بوى أن صدرى تقاربت ضلوعه وكبست على انفاسى يا بوى . شىء الهى قال لى أن الولد « قرقوشه » وراءه سر غير طبيعى ، انه ولد واعر يا بوى ، ولا يصح أن تصدق من كلامه شعرة واحدة ، وكل من يتلصق فى كبير أو غيره من الكبار المهابين لابد أن يكون ـ من أساسه ـ نصابا محتالا ، أو يكون منصوبا عليه مثل ولد بلدى هذا ..

كنت لا أزال محيرا فى هذه اللفة التى جاء بها معه ووضعها بجواره على الصندوق ، الى أن نهض واقفا وقال :

ـ « مش عايز اى حاجه من البلد ؟ أنا مسافر فى قطار الصحافة ثمانية واربعين ساعة ! » .

قلت :

ـ « عايز سلامتك ! سلم لنا على البلد وكل من تراه » .

فمضى نحو الباب يتلصص ويقول مشيرا الى اللفة :

ـ « خلى دى بقى هدية منى ليك ! »

بسرعة امتدت يدى وأمسكت باللفة فاذا هى بندقية آلى ملفوفة فى خرقة . كدت أصرخ فيه يا بوى ، والذى دار فى دماغى ساعتها اننى يجب أن اصرخ والم عليه الدنيا تبراة لنفسى ، فلربما يكون وراءه من يراقبنا ، لكننى تذكرت أنه بلدياتى وولد جدع واننى لم افعل معه الا كل خير ، صحت فيه بفحيح يمزق القلب :

ـ « فى عرضك يا قرقوشه ! أنا راجل عندى عيال ! عيله كاملة فى رقبتى ! نريد ناكل عيشا فلا تودى بنا فى داهية ! الله لا يسيئك ! » .

الملعون ضحك ضحكا مكتوما وزغدنى فى صدرى برفق قائلا : « ما تبقاش صعيدى مقفول وعبيط ! » ثم همس قائلا :

ـ « خير تعمل شر تلقى ! الحق على أنا اردت خدمتك ! هذه يمكن أن تبيعها بمبلغ حلو ! خمسين ستين جنيها ! لست اطلب منك شيئا غير الكلمة الحلوة والعلاقة الطيبة ! » .

تحلف اليمين يا بوى أننى صرت كالفأر فى المصيدة ، انظر هنا وهناك ، افتح الباب واخرج واعود ، لأقول له :

ـ « أعمل معروف يا ابن الناس ! خذ هذه المصيبة وارحل عنى بعيدا ! الله الغنى ! » .

ابن الكلب لم يهتز حتى وهو يرانى أرتعش وأكاد أبكى . بل كان يبتسم والفجور يطل من بين أسنانه . ضغط بيده على كتفى حتى أقعدنى فى هدوء وراح يقول :

ـ « أنت تتفتش حين تخرج من البوابة ؟ » .

قلت :

ـ « لا يابو العم ! أنا الوحيد الذى لا يفتشه أحد على البوابة !»

اذا به يبتسم قائلا :

ـ « انهم يفتشونى دائما ومع ذلك لابد أن أهرب كل مرة حتتين وثلاثة ! »

قلت :

ـ « كيف يا ابو العم ؟ »

قال :

ـ « شطارة ! »

قلت :

ـ « عجايب والله ! وكيف تتصرف فيها يا ولد ؟! »

قال :

ـ « ألف من يشترى فى الصعيد ! وألف من يبيع ! »

صرت والله أرتجف من جميع أنحاء جسمى ، الا وصوت أقدام مقبلة نحو كهفنا من بعيد ، فانخلعت كل مفاصلى وقلت جاءك الموت يا تارك الصلاة . لكن الولد اللعين قبض على كتفى قائلا :

ـ « متخـــافش ! متخـــافش ! على كل حال خليها عندك لحين رجوعى من السفر ! فسوف أقابل خطيبتى هذه المرة من بعيـــد لبعيد » .

واذا به يرفع الصندوق قليلا ويسربها تحته ويقوم ليفتح الباب ويمضى مخلفا اياى كومة من الثلج السائح . سمعت فى الخلاء من يؤدى التحية ويسلم على بعض الناس باسمهم ، وبقيت فى تكومى أنتظر من القادم أن يدخل فيحملنى ويفتشنى ويضع الحديد فى يدى . القادم كان أحد الضباط ومعه بعض الامباشية : مساء الخير يابو على .. مساء النور يافندى .. طافى ولا مولع ؟.. أولع فى الحال يافندى . وردت فى الروح فقمت أشعلت الوابور صنعت لهم شايا وظللت أرتجف خلف النصبة الى أن حيونى وانصرفوا .

مضى حوالى شهر يا بوى والولد لا يرينى خلقته . فقلت والله

لاجرى هذه الشغلة . كنت نازلا لشراء التموين فأخفيت البندقية تحت ملابسى فى الحزام من الجنب وخرجت من البوابة دون تفتيش، فأسرعت الخطى الى محطة « المصحة » . وقبل ذلك بحوالى جمعة كنت فى المدينة فخطفت رجلى الى المعلم « شندويلى » فى مصر القديمة وفاتحته فى هذا الامر سألته ان كان يستطيع تصريف بندقية ؟ فقال: « هات بدل البندقية مائة ! هات ما تقدر عليه وخذ منى أربعين جنيها عن كل واحدة » . سألته أين ستصرفها يامعلم شندويلى ؟ فقال انه على علاقة طيبة بتجار السمك الكبار كلهم — وكلهم من « كوم سفحت » نواحينا — ومعارك الثأر قائمة بين عائلاتهم لا تنتهى ولا يفرغ لها ضرب نار ! غير ان المعلمين الكبار هنا متفقين مع بعضهم اتفاق شرف أن يتم التقتيل فى البلد والا يتعرض احد لأحد هنا ، وما عليهم هنا الا توريد الأسلحة لذويهم فى البلد !.

كنت اثق فى المعلم « شندويلى » ، فتخذت طريقى اليه مباشرة ، سلمته البندقية فداراها فى عبه ، ثم انصرف وغاب حوالى نصف ساعة عاد بعدها قابضا على أربعين جنيها مطوية . ووضعها فى يدى فقلت : « واكراميتى ؟! » . نظر فى وجهى مترددا ونزع من جيبه جنيهين وضعهما فى يدى قائلا : « مش خساره فيك ! بس انت هات كتير وخلى بالك من نفسك كويس ! ! .

ثم .. ثم اننى استحليت اللعبة يابوى .

الخامسة . حـــــلاوة النـــار

كل بضعة ايام يجيء الولد « قرقوشة » منتفخ الصدر غليظ الجنبين ، فما أن يطمئن الى اننا وحدنا حتى يرفع الصندوق ويسحب من عبه فردة أو فردتين وبعض علب ذخيرة يسربها تحت الصندوق ويجلس فوقه كأن شيئا لم يكن . احيانا لا يجدنى فى الكهف فيفعل فعلته وينصرف ليعود ثانية يعطينى خبرا . أنا أيضا تعودت كلما غبت عن الكهف وعدت أرفع الصـــــندوق تلقائيا وأمرر يدى تحتـه بحثا عن الامانة ، وفى العادة أجد خيرا كثيرا . تحلف اليمين يابوى اننى حتى هذه اللحظة لم أعرف سر الولد « قرقوشة » العجيب . لقد حيرنى يا بوى وبعثر دماغى فى كل ناحية فما نجحت فى فهمه وما استطعت أن اعيد لم دماغى ثانية . اذا فرضنا يا خال ان هذا الولد يسعى لجمع النقود من وراء هذه الشغلة فما باله لا يطلب منى نقودا أبدا ؟! كلما عزمت عليه بالنقود ابى كل الاباء ! غير انه كلما واتته فرصة السفر الى بلده استلف منى شيئا ، من خمســة جنيهـات الى عشرة ، وفى العادة لا يردها ولا يفاتحنى فيها . كثيرا ما يســألنى عن حجرين من الحشيش او بوستة أفيون فيجدنى أدخر له شيئا منه . أتراه ولد عبيط يا خال ؟ أم انه يدبر لتوريطى فى عملية كبيرة ؟.

غصبا عنى انهيت شغلى بهذا الأمر وركنته فى منطقة خفية من دماغى . صرت أتسبب الى الكسب ، وفى كل مرة اقول لنفسى : لتكن هذه آخر مرة أتوب بعدها . لكن التوبة ليست سهلة ابدا يا بوى ، دائما تمنعها ظروف حرجة عن الوصول الى صاحبها فى مواعيد مبكرة ، والانسان فى العادة يهرب من التوبة دون أن يدرى. فى كل مرة خرجت فيها بفردة جديدة وتوبة جديدة افاجأ بأن ســـعر الفـردة قد ارتفـع من تلقاء نفسه عشرة جنيهـات دفعـة واحدة . ثم اننى رأيت عجبا يا بوى ، صدق من قال أن من عاش يرى كثيرا ومن لف ودار يرى أكثر . كل معلم من الصعايدة ذوى العمائم الكبيرة

الذين صرت أوصل لهم البنادق يدا بيد أخبروني أن لهم أولادا كثيرين مجندون فى الجيش يمدونهم بكل أنواع الاسلحة والذخائر ويرزقون. هم طبعا يغرونني بالاكثار من جلب السلاح لهم حتى لا أخاف .

زهزهت لى الحياة يابوى حتى صرت قادرا على تحقيق كل مطلوب ومرغوب . الى أن تغلب الوعد والمكتوب ، وآن الأوان ليظهر الصحيح من المعطوب ، والغالب من المغلوب ، والأصيل من المقلوب . ولكن ربك - فى النهاية - رب قلوب .

كان معى فردتان واربع علب للذخيرة تشبه علب السكر القوالب، فوضعت هذه الاخيرة فى جعبة ورقية من جعب الفكهانية ووضعت فوقها خلقات قديمة ، أما الفردتان فحشرتهما بالطول تحت تكة السروال وداريتهما بالجلباب ومن فوقه لبست بالطو من بلاطى الجيش وخرجت كالعادة من البوابة دون تفتيش ومضيت مبسوطا أربعة وعشرين قيراطا أغنى وأضرب بالموال ، حتى وصلت الى محطة « المصحة » فوجدتها كالعادة خالية . كنت سائرا فوق الفلنكات بين القضبان ابغى الوصول الى السلم الذى أصعد عليه الى الرصيف ، اذ انني ما قدرت على القفز فوق الرصيف لأن الفردتين حالتا دون رفع ركبتى ، فتفطنت لذلك يا بوى ونويت الانتباه جيدا حتى لا اكررها والا برز بوز البندقية مرفوعا تحت الثياب . بقيت ماشيا يا خال وقد وقر فى ذهنى انني خلقت هكذا مصلوب الحيل لا اتعوج ولا انحنى . وكان سلم الرصيف قد لاح على بعد فركة كعب، ولاح معه ثلاثة من البوليس الحربى من ذوى الكاب الاحمر ، وشخصية الضابط واضحة عليهم من نظافة السراويل والسترات واتساقها عليهم . ضربت صفحا عنهم ، مالى بهم ؟ قدرت انني ما رأيت شيئا يا بوى . حدثتنى نفسى بأنهم ربما يعرفونني اذ انني مشهور لدى الكبير والصغير وعموم العسكر وحينئذ قد يستوقفونني ويسلمون على وهذا ليس من مصلحتى فى شيء فيلعون أبوهم وأبو سلامهم لست منه فى عوز .

تملكت سلم الرصيف وجعلت أصعد فى ثبات حتى تملكت الرصيف نفسه . وكانوا هم واقفين فى انتظار القطار فمنعت البصر عنهم ناظرا نحو غرفة شباك التذاكر تحت السقف الجملون وأمامها الأرائك الخشبية الخضراء التى ما ان رأيتها حتى طب قلبى حين

تذكرت اننى لا يجب أن اجلس او احاول الجلوس امام احد لان طرفى الفردتين سيبرزان فوق صدرى لا محالة .
هى خطوة واحدة خطوتها يا بوى ، واذا بواحد من الثلاثة الواقفين يتبعنى مناديا : « خد يا ولد » . فانحط على قلبى جبل من الجرانيت الاسود يا خال ، لكننى تجاهلته على اعتبار أننى لست ولدا . اذا به قد صار واقفا أمامى واضعا كفه على كتفى ناظرا فى عينى قائلا : « انت رايح فين ؟ » . قلت بكل ثبات : « رايح اركب القطار ! نازل البلد باذن الله ! » . قال : « انت مجند ؟ » . قلت : « لا ! انا حسن بتاع الشاى ! جوه المعسكر ! تبع الحاج فرهود المقاول ! ». زام قائلا : « وايه اللى معاك ده ؟ » . مددتها نحوه قائلا : « خلقاتى ! سوف اعطيها لامرأة تغسلها ! وسوف أشترى المونة ! » . لكن يده ـ تستحق القطع ـ كانت أسرع من جوابى ، اذ أمسكت بالجعبة فكأنه قبض على قلبى والله يا خال . فتحها وامسك علب الذخيرة مطلقا من بين شفتيه صفيرا حادا مخيفا : « أضبط » ، ثم أشار الى زميليه فلحقا بنا وهم من الاندهاش والفرح فى حال . صار يعرض عليهم العلب . الهمنى الله بكلام صرت أردده :
ـ « والله والله يا سعادة البيه أنا لاقيه فى السكه دلوقت ورايح اسلمه لادارة المعسكر ! »
زغدنى فى صدرى :
ـ « انت كداب ! انت لسه قايل أنك نازل البلد ! »
الهمنى الله من فضله وكرمه :
ـ « ياسعادة البيه انت حضرتك شايفنى على رصيف القطار اللى طالع على المعسكر ! يعنى لازم أروح المعسكر الأول أسلم الامانة دى وارجع ! »
فما دخل عليه هذا الكلام طبعا .. ضحك :
ـ « أنت تستغفلنا ! أنت تركب من هنا كى تجد مقعدا خاليا ! وترجع مع القطار قبل هجمة العساكر على المقاعد ! » .
صار كل واحد منهم يسالنى سؤالا ، كل سؤال يودى الى داهية كبيرة . والذى طلع على لحظتها : « انا لقيته وكنت رايح أسلمه ! غير كده ما اعرفش ! » . من اعطاك من لا قاك من سواك من سخمطك ؟. ما اعرف ما اعرف ما أعرف .
جاء القطار فدفعونى نحوه وقالوا أركب . قلت : حاضر ،

ورفعت قدمى لاصعد سلم القطار ، فارتفع فخذى ، فبرزت ماسورة البندقية تحت الثياب . فعبطوا فى ، صاروا يتحسسون جسدى من كل ناحية وهم يصيحون فى استهوال : مهرب ! مهرب ! . لم يكن فى القطار غيرنا فحمدت الله على انحصار الفضيحة . عادوا بى الى المعسكر ظلوا يمشون بى بين البنايات وقتا طويلا ، وعند كل بناية يتوقفون بى ويدخل واحد منهم فيغيب دقائق ويعود وفى أثره عشرات من الاشباح الصفراء برءوس حمراء وزرقاء تتســـلل وتتبصص وتمصمص بالشفاه وتبصق فى اتجاهى . لحظتها لم يكن فى راسى غير أمى واخوتى والمعلم شندويلى . ولم يرعبنى فى كل ذلك ــ صدقنى يا بوى ــ سوى البنت « حنة » ، وماذا ستقوله عنى لو راتنى الآن فى هذه الوحلة الشنيعة والعياذ بالله . البصقات ترجمنى فى قفاى الى أن سهل الكريم فدخلنا فى بناية فيها غرفتان متقابلتان ، دخلوا بى الى الغرفة التى على اليمين فقلت بشرة خير ان جاء كتابى بيمينى فلسو ـ ينجينى الكريم باذن الله من هذا المنقلب . دفعوا بى فوق بساط ورى مستطيل تحفـه قصـــارى الزرع من الجانبين . استوقفونى . فرفعت وجهى عن الارض فاذا انا أمام مكتب يلمع كالذهب ، والقطيفة الخضراء تكسو سطحه ، وفوقه أوراق وتماثيل وطفايات وعلب سجائر ، يجلس خلفه رجل عتل غليظ العنق كبير الوجه كراس أبى الهول فيه الكثير من تقاطيعه ، ثقيل الحاجبين اسودهما بارزهما ، ومن تحتهما عينان لا تكفان عن التحـديق فى وجهى ، عريض الكتفين بارز الصدر كبوابة مسجد . كان يتكلم فى التليفون وكلما سمع كلمة بحلقت عيناه فى بغيظ ، فلما وضع السماعة واعتدل ظهر على وجهه أنه قد عرف كل شىء ولم يعد فى حاجة للسؤال عن أمرى . خرج صوته كالزئير تحلف اليمين يا بوى أن جنينة حيوانات بحالها فى صوته المخيف : « ايه حكايته بالظبط الولد ده ؟! » . حكوا له ما حدث بالضبط ، وباللى . خفت أن يظن هذا الدرفيل ان سكوتى اعتراف منى بالجريمة ، فبكيت صائحا : « ياســـعادة البيه ! ربنا يخليك ويستر عرضك ! انا مظلوم » . ما كنت اظن أن الدرفيل الجبلى يمكن ان يبتسم مثل خلق الله يا بوى ، أو تبدو عليه مثل هذه الطيبة التى كدت والله أن أصدقها وآكل الطعم الذى فيها ، قال فى صوت لا ادرى من أين واتته كل هذه الحنية ..

ـ « معلهش ! معلهش ! اذا كنت مظلوما تأخذ حقك أربعـــة وعشرين قيراطا ! على كل حال سيبك من الناس دول »

صفق بيديه نحو الواقفين يهشهم ، فأدوا له التحية العسكرية واستداروا منصرفين ، وبقيت وحدى أمام هذا الرجل التخين ، الذى مد بوزه نحوى فى ود كبير ، فدهمنى صوت كالريح العاتية : « خد سيجاره » ، واشعلها لى ، وصاح : « هات له واحد شاى ». وقدم نحوى فلوسا كانت على مكتبه قائلا : « مش محتاج لفلوس ؟ اطلب ما يهمكش ! ده احنا بلديات والواجب فوق كل اعتبار ! » . انبريت أقول : « تشكر يا سعادة البيه تشكر ! » وجذبت نفسا ، وحضر الشاى فسمعت صوتا يقول : « أجلس » ، فانتبهت ناظرا فى الرجل فاذا هو يقول بالفم المليان : « اجلس » ، فترددت كثيرا حتى سمعت الأمر للمرة الثالثة فجلست على طرف الكرسى خشية أن يتلوث جلده من وساخة ثوبى وخشية أن يلتصق ثوبى بالقروح الملتهبة النزنازة فى ظهرى من أثر الضرب بالكرباج والشـــلاليت والشوم ، وتأوهت يا خال من شدة الوجع وانهمرت دموعى يا خال تحلف اليمين كأنها المطر ، والرجل يطيب خاطرى ويقول : « اشرب الشاى ! أشرب الشاى ! قال متخافش ! أللى ضربك حياخـــد عقابه ! » . وكنت منكسا وجهى فى الأرض لكننى كنت ألمح الناب الأزرق يفح سما فى صوته يؤلمنى يقول لى لا تنخدع يا حسن واياك اياك . شربت كم شفطة من الشاى وكم نفس من السيجارة ومسحت دموعى بكم جلبابى ، فاشعل هو الآخر سيجارة وقال لى :

ـ « ايه بقى الحكاية يا بو على ؟ قول كل حاجه بكل صراحة ! انت شخصيا مليكش اى مسئولية بس الجدعنه بقى تنورنا بالحقيقة! عشان نبقى عارفين ! انت خايف الخوف ده كله ليه ؟! »

قلت :

ـ « أصل الحكاية يا سعادة البيه أننى كنت ماشيا قاصـدا محطة المصحة لأركب منها الى المدينة كى اشترى التموين واعود ! فصادفتنى هذه البلية مرمية فى الارض وانا رجل غشيم ! لم أعلم ان هذه صناديق ذخيرة لأنها مغلقة بالشمع ! وبعدها بخطوات وجدت البندقيتين مرميتين على الارض ويظهر أن أحدا كان سارقها ورمى بها ! قلت فلأسلمها لادارة المعسكر ! ولهذا طلعت على الرصيف الذى فى طريق المعسكر ! فشاء سوء بختى أن يصادفنى البكوات على

الرصيف ولم ينتظروا سماع قولى ففشونى وانهالوا على بالضرب وجرونى الى هنا بالعافية وأنا ما أستطيع ان أفتح فمى بكلمة ! »

أشعل الرجل التخين غليونا من الغلايين الكثيرة المتكومة أمامه، ولاح انه لم يرض بالاستماع لكلمة واحدة مما قلت فكأننى ما تكلمت. مال نحوى وهبت رياح صوته تحاصرنى من كل مكان :

ــ « شف يا ولد ! اذا قلت لى من الذى أعطاك هذه الاشياء فسوف أتركك ! تعود فى الحال الى بلدك واهلك ! سنكتفى بحرمانك من الشغل فى المعسكر ! فاسمع كلامى انا ولا يهمك من اى أحد آخر غيرى ! فما أقوله لك انا هو الذى ينفذ ! » .

قلت بصوتى الغرقان فى البكاء :

ــ « والله والله يا سعادة البيه يمين احاسب عليه فى نار جهنم اننى أتكلم الصراحة ولا اعرف غير ما قلت ! »

فأشعل الغليون ثانية يا خال ، وأحمر وجهه ، وهدر :

ــ « اذا قلت لى من اعطاك هذه الاشياء لن تكون متهمــا بل شاهدا ! أفهمت ؟! »

قلت :

ــ « لا اله الا الله محمد رسول الله ! وحق جلال البارىء فى سماه اننى كنت ماشيا قاصدا المحطة فالتقيت هذه البلية فذهبت لأسلمها فالتقانى البكوات فأعدمونى العافية وجاءوا بى الى هنا ! »

اشعل غليونه مرة ثالثة يا خال ، نفث الدخان قال كأننى لم اتكلم من الاساس :

ــ « اذا قلت لى من اعطاك هذه الاشياء فسوف اتركك فى الحال ! »

بحلقت فيه بيأس ، قلت :

ــ « يعنى اذا قلت لك عليه تتركنى حقا ؟! »

فاعتدل يا خال وتضاعف حجمه وصار وجهه كسلة البيض ولمع الناب الأزرق فى بياض عينيه المصفر ، وصاح :

ــ « طبعا ! »

فأشرت الى العسكرى الواقف ببابه وقلت :

ــ « هذا العسكرى هو الذى اعطاها لى ! »

انتفض الولد العسكرى صارخا يا ولداه وكاد يقع من طوله وهتف فى فزع :

ـ « أستغفر الله ! اعوذ بالله ! اعوذ بالله ! »

حينئذ ـ وبكل هدوء يا خال ـ ضغط الرجل التخين على زر بجواره فدخل العسكرى السابق فابتدره قائلا :

ـ « العروسة ! »

فاختفى العسكرى فى الحال كأنه تلقى أمرا بالفرح يا بوى ، وعاد بعد برهة كأنه الفرح نفسه صحبة اثنان يحملان العروسة . تقدم العسكرى منى وطرح العروسة على وشرع يكتفنى فيها ويتعمد أن يجذبنى نحو مكان بعيد عن المكتب ، ثم اذا به يعطى ظهره للرجل التخين ويهمس فى اذنى :

ـ « اياك أن تعترف على احد حتى لو قطعوا جثتك للكلاب ! اننا في حالة حرب ولابد أن يضربوكما بالنار انت ومن تعترف عليه ! »

شكرته بنظرة عرفان ، لست أملك غيرها . انتهى من مهمة تكتيفى وتركني للآخر .. وعينك ما تشوف الا النور يا بوى .. فين يوجعك يا حسن يا ولد ابو ضب ، الكرباج طويل اللسان يا بوى وفيه نار الله الموقدة يلتف حول ضلوعى يمزقها . يتعب الضارب وتنهد قواه فيتوقف متشربا انفاسه فيبدأ الوجع الحقيقى ينتبه اليه جسدى ، ويبدأ صوت الرجل التخين :

ـ « اذا قلت لي من الذى اعطاك هذه الاشياء ترحم نفسك وتنعتق من الضرب ! »

فأرد عليه بنفس الكلام حتى تعبوا من ضربى يا بوى ولم يبق فى جثتى جلد يتلقى لسع الكرباج فتزاحمت عليه السنة اللهب الحمراء فوق بعضها كالجبل والهضاب فوق جسدى . وسلم الرجل التخين بانه لا فائدة ترجى من ورائى ، فكتب كلاما كثيرا على ورق كثير وشوح به نحوى . فاندفع بضع رجال أشداء يلبسون الأفرولات فدفعونى مقيدا ، القوا بى فى عربة البوكس فورد ، التى مضت تنهب الطريق نهبا حتى وصلت الى مصر الجديدة وتوقفت عند منزل فخيم قيل لى انه سراى النيابة . دخلناه ، مشينا فى طرقات وصعدنا سلمات ومررنا على غرف ، دخلنا غرفة فيها افندى مهيب صغير الدماغ مفلوق الشعر فى الوسط من راسه كما الممثل « عماد حمدى » ولد الحلويات ذاك الذى يطلع فى الافلام كان شبهه الخالق الناطق تقول هو بعينه . ظهر على وجهه انه مرتاح من منظرى

يا بوى ، وانه ـ تقول ـ مستاء لما حل بى وبآدميتى . فلما دفعونى أمامه بعنف كاد يكفئنى على وجهى صرخ فيهم : « ما هذا ؟ » . صحت باكيا : « أنا أطلب الطبيب الشرعى يا سعادة البيه أنا واقع فى عرضك يا سعادة البيه لقد شرحونى ولسوف أموت بعد هنيهة قليلة » . ورفعت ثيابى فعريت جسدى وصرت ألف حول نفسى أمامه وكان القميص يا بوى قد التصق بجروح الجلد فلما رفعته نزع سلخات من جروحى المتقيحة فصار منظر جسدى عجبا والله يا بوى . ولما واجهت الرجل وجدته مبعدا راسه الى الناحية الأخرى لاويا ملامحه من التألم مداريا عينيه بكفيه . قادر ربنا أن يخرسنى لو كنت كاذبا ، كانت هذه أول مرة أشعر فيها أن الحكومة يمكن أن يكون لها قلب وهذا ما لم يكن يدور لى بخلد على الاطلاق يابو العم .

بسرعة شديدة تناول الرجل الورق وأشر عليه قائلا كلاما فهمت منه أنه لا يقبل أن يتسلمنى . فنظروا نحوه بغيظ ونحوى بغيظ أشد ثم دفعونى زغدا وتلطيشا تحت الحزام ، عادوا بى الى العربة، انطلقوا عائدين الى سراية أخرى فى مصر الجديدة ، فتلقانى شاب فى مثل عمرى وتفحصنى جيدا وعلى وجهه كثير من الزعل الحقيقى، ثم أمر باحالتى الى المستشفى العام . واه وا .. آ ... يا بوى . مكثت فى المستشفى العام أربعين يوما مدة استمرار الحبس . ومن المستشفى رحلونى الى السجن رهن الجلسة التى سامثل فيها أمام المحكمة بعد بضعة شهور .

أيـــام الخلــق ستـــــة

الأولة - مدرسة الظلام المستنير !

من لم يدخل السجن لم يعرف من الحياة كلها الا نصفها يابوى صدقنى والله ، ولم يعرف من طبيعة الخلق الا ربعها بالكثير . أنت يابوى عدم المؤاخذة لا تعرف شيئا وان كنت لفافا ودوارا وما أدراك. لكن تأكد يا بوى من شيء هام جدا : اذا لا قدر الله دخلت السجن لسبب من الأسباب فأنت داخل الى المدرسة الحقيقية التى ربنا ما يكتبها عليك ، تفوز بكل ما ينتج عنها من معرفة . لكن اذا كان ذلك قدرا مقدورا عليك ، ففتح عينيك جيدا والا ضعت فى الاقدام ، تفتح عينيك تصبح أستاذا كبيرا فى الحياة ، وتخلص من الجنون ، تسوق الغباوة ، تصبح ممسحة للأقدام ..

أيام كانت مريرة والله يا خال ومليئة بالسواد والهم المقيم . كل المساجين تجيئهم زيارات الا العبد لله كالمقطوع من شجرة . كل المساجين لديهم داخل الزنازين أشياء تخصهم الا أنا ليس يخصنى شيء ولست أحتكم على شيء ، فالنقـود التى كانت معى صادرها عساكر الشرطة من أول علقة ولم أجرؤ على أن أفوه بكلمة . مرادى ان أتكسب فى السجن مثلما يفعلون يا بوى ، فالسجن سوق أشد من أسواق الحرية ، بائع الحشيش المسجون شغلته فى السجن بيع الحشيش ايضا ، تاجر العملة كذلك ، مزيفوها ، لاعبو الثلاث ورقات ، كلّ صاحب مهنة قبل الحبسة يشتغلّ فى الحبس شغلته. التموين يدخل السجن برضاء العسكر وفوق أنوفهم أحيانا ومن وراء مؤخراتهم اكثر الاحايين لكنهم جميعا مرزقون مسعدون ومع ذلك هم يشددون الحراسة على الآخر . عسكر من وبتاع من يابو العم ؟! اياك تظن أن فى بلادنا بالذات شيئا يمكن أن يمنعه الحراس ، أو عملا يمكن أن يخلصه المستوظفون بدون أن تعطيهم عن يد وأنت صاغر ، وطالما أن جميع القائمين على الشغل فى بلادنا يمدون الايدى حتى

وان لم يخرجوها من جيوبهم فان ما تسمونه القانون والضمير والعدل مجرد كلام فى كلام يابوى . خذ هذا الكلام من اخيك حسن ولد ابى ضب وقلبه فى دماغك وأنت تعرف انه حقيقى ، اسأل نفسك هل استطعت طول عمرك أن تقضى أى مصلحة بدون أن تبرطل عليها وترشو ؟.. فماذا تفعل لو كنت مثلى سجينا وليس فى حوزتك اى شىء ترشو به السجان . معلمو السجن العتاة من فتوات المجرمين والنصابين وتجار المخدرات والقوادين أولئك هم حكام السجن يا بوى صدقنى والجميع خدم عندهم بالاجر ، كل ما يريدون فعله يفعلونه والقرش هو الذى يتكلم ، وأنا نفسى محتاج للقرش كى أبر به جسدى المنهوك فماذا افعل يا بوى ؟.

قلت : لا عليك يا ولد ان اشتغلت خادما لهؤلاء الحكام الفتوات، اتبع الحاكم الفعلى يا بوى أن كنت ضعيفا مثلى فى موقف ضعف ، ووالله كانت أحلى فكرة : الفتوه جالس فى مكانه وانا اغسل له ثيابه اطبخ انظف الزنزانة أسقيه الحشيش أقضى له الطلبات ، وما المانع يا خال ، اذا كان من هم افضل منى ممن علمهم أهلهم فى كبريات المدارس وعالى المعاهد يخدمونهم بأموال كبيرة فلا ضير على ان خدمتهم باكلى واصبح فى حمايتهم . وهكذا ولفت على المعلم « طريشه » ..

تاجر حشيش كبير قوى يابوى ، يخرج من الحبس الاحتياطى ليعود اليه كل بضع سنوات . تجارته شغالة فى حى الباطنية من وراء الجامع الأزهر ، كالعادة لم تتعطل ساعة واحدة ، تموين شربه يجىء اليه كل يوم فى الحبس فى عامود الاكل الساخن نفتحه يا بوى فنجد الحمر والمعمر والخضار المطبوخ والأرز المفلفل والكنافة والمهلبية ، كل يوم والله يا بوى تحلف اليمين كانه فى المصيف لا ينقصه الا ان يجىء البحر تحت قدميه مسافرا من رأس البر ، فى أيام الزيارات الرسمية تجىء السلة ملآنة بما لذ وطاب من فواكه وسجائر وحشيش وافيون ، كل ما تبحث عنه خارج الحبس فلا تجده بأى ثمن تجده فى الحبس باقل ثمن . هذا بالطبع يتكلف تكلفة كبيرة يابوى تصل الى مئات الجنيهات كل يوم والحدق يفهم ..

قل أن هذا الرجل الجدع اعجبنى ، احببته والله حبى لكل رجل يكسر انف الحكومة ويذلها باى شكل ، انه يشفى غليلى وينتقم لى يابوى . قلت : لابد ان اكيفه على الآخر فالحشيش لا يسلى ولا

بكيف . جئت بكوز صفيح كان فى الاصل علبة عصير وجئت بلبابة العيش الساخن وهى نصف ناضجة فعجنتها ثانية مضيفا اليها قليلا من التراب صنعت منها خمس حجارة من حجارة الجوزة وبوصتين قصيرتين تركتها حتى نشفت تصلبت صارت لو خبطها فى جبهة رجل تبطحه . وكنت انتزع نتفا من قطن المراتب وحشيات الكراسى أصنع منها اشرطة مبرومة اغمسها فى الجاز ثم أخفيها فى مكان خفى من الزنزانة مع غيرها من الممنوعات الصغيرة الحجم ، أما الممنوعات الخطرة كالحشيش والافيون والنقود الكبيرة التى يبيع بهـا المعلم حشيشه فى السجن فكنت انا مخزنها ، ابرم ورق النقود مع الاشياء فى خوابير مدكوكة فى بعضها جيدا وملفوفة ببلاستيك الاكياس الناعم الأملس حتى اذا ما لبستها فى مؤخرتى انسابت بسهولة الى الداخل وان حزقتها تزفلطت خارجة بكل رقة ، كنت ألبس أكثر من خابور ، ثلاث أو اربع أدوار فوق بعضها واكون عارفا بأن الحشيش فى الخابور الاخير ليسهل افلاته كلما احتجنا لتعمير الدماغ ، اذ نفرك السجائر او الدخان المعسل فوق حجر الجوزة ونشعل الشريط ونمرره فوق الدخان المزوج بالحشيش ونشفط بمزاج كأننا نشرب على أحسن جوزة لدرجة أن المعلم « طريشه » نوى أن يأخذ هذه العدة معه عند خروجه من الحبس ..

بهذه الطريقة وحـدها يا بوى اسـتطعت أن امكث فى الحبس الاحتياطى كل هذه الشهور ، وانا كل بضعة شهور أمثل أمام قضاة المحكمة فاظل فى القفص الحديد من باكورة الصباح حتى آخر الجلسة اذ يؤشر القاضى على أوراقى قائلا : يعود كما كان .. فأعود كما كنت يابوى ولا احد يسأل فى صحة سلامتى والمعلم « طريشه » يصبرنى قائلا ان الله معك ، ويعشمنى أنه حين خروجه من الحبس وخروجى باذن الله سوف يأخذنى لأشتغل عنده نفس هذه الشغلة التى أشتغلها له فى الحبس . الى أن جاءت احدى الجلسات ذات يوم فمثلت أمام القاضى حتى انتهت الجلسة فنادوا على فدخلت الفرفة التى يدخلها القضاه فور انتهاء الجلسة كالخائفين المذعورين من أهل التقاضى . واذا بى أمام ثلاثة من الأفندية كل منهم يكفى لتخويف بلد بحالها وكل منهم راح ينظر فى عينى يقلبنى من فوق لتحت . قال الجالس فى وسطهم وقد ظهرت عليه الطيبة : « يا ولد انت » . قلت : « نعم يا سعادة البيه » . قال : « انت لقيت هذا السلاح وكنت رايح

تسلمه مش كده ؟ » . صحت على الفور قائلا : « مظبوط يا سعادة البيه ! أنا لقيت هذا السلاح وكنت رايح أسلمه ! » . فظهر الانتصار على وجهه وتراجع منجعصا للحائط صائحا فى الكاتب الجالس بجواره : « اكتب : لقيت السلاح ـ وكنت ـ رايح أسلمه ! » ، وضغط على كلمة كنت ضغطا طويلا ممطوطا ألقى به الرعب فى قلبى فلم أستطع فتح فمى بكلمة . واذا به يطوى أوراقه قائلا : « يعود كما كان » .. فعدت كما كنت يابوى وقد أيقنت أننى مكتوب لى لقمة عيش طويلة الأمد فى الحبس ، والمكتوب ما منه مهروب . يوم ذاك جاء المحابيس يزورون المعلم « طريشه » فى زنزانته فتكلموا جميعا فى موضوعى ، انهم فقهاء فى القانون يابوى أحسن من القضاة والمحامين يابوى بل هم أذكى من واضع القانون نفسه . ليتهم ما تكلموا يابوى، لقد كسحونى ، كسروا مقاديفى كلها ، أفتوا كلهم أن عقابى فى هذه القضية لن يقل عن خمس سنوات ، نعم يابوى خمس سنوات هى براءتى فى هذه القضية كما يقولون أما حكمها الحقيقى فالعياذ بالله منه .

الثانية - زائر الفرج

لكنها الدنيا يا بوى احوالها عجب فى عجب !..

فى ذات ليلة كنا جالسين كالعادة نشوف مزاج المعلم ، الا وصوت الاقدام يقترب من الزنزانة ، فانتبهنا ، فما كدنا نشعر بالمفتاح يوضع فى قفل الباب حتى دارينا كل شىء بكل سرعة وتمطرقنا على الارض كأن شيئا لم يكن . ما أن انفتح الباب حتى اندفع نحونا شاب اشقر الشعر أبيض الوجه مستطيله طويل القامة يبدو انه ابن ناس وابن مدارس ومن الواضح أنه لم يتعود على الاهانة . انغلق باب الزنزانة فى الحال فبقى الشاب واقفا فى منتصف الزنزانة كى تتعود عيناه على محتوياتها ، ثم أستدار نحونا متطوحا كالسكران المجهد قائلا : « مســاء الخير » ، ثم ارتمى على الارض متربعا بجوارنا ، فكشفنا عن العدة من جديد وشرعنا نشوف مزاجنا بعد هذه الخضة الجامدة . وكنت مترددا فى الكشف عن العدة خوفا من ان يكون ضيفنا هذا من المباحث المدسوسين علينا وعلى أنا بالذات ، لكن المعلم « طريشة » قرأ فى وجه الشاب أنه متهم بالفعل فى قضية وليس يمثل دورا ، ثم انه راح يتابعنا فى انبهــار شــديد ولم يمتنع عن الشرب حين ناولناه البوصة بل امسكها بحرفنة واشتياق ..

حجر فالثانى فالثالث فالعاشر أنهى علينا الشاب حكايته من طقطق لسلامو عليكم . أسمه « وائل عثمان » وشغلته ويا للعجب – امسك راسك يا بوى – وكيل نيابة ، وتهمته تزوير فى اوراق رسمية خاصة بجوازات السفر وهو فى الحقيقة مظلوم فيها ولسوف تنكشف براءته بسرعة . هو بالفعل طيب وبرىء . هكذا قال المعلم « طريشة » من أول ما بدأ الشاب يحكى، والمعلم « طريشة » لا يخطىء النظر ابدا ، انه يعرف ابن الناس البرىء من المجرم من كلامه سلوكه طريقة جلوسه نومه أكله شربه . كان « وائل عثمان » يظل طول الليل يفكر فى قضيته وفى القانون والسيجارة الاجنبية – اليس ابن ناس ؟ – مصهللة بين اصبعيه على الدوام . الزيارات تجىء

له بشكل متواصل فيها أطايب الاكل يفرده أمامنا كله . لقد احبه المعلم « طريشة » كما أحببته وصرنا مشغولين بقضيته اكثر من شغلنا بقضيتنا . لكنه ذات ليلة شرب معنا حجارة كثيرة وبدت عليه علائم الانبساط فراح يستمع الى حكايتى بشفف ، كاملة هذه المرة بعد أن كان يستمع اليها نتفا نتفا صغيرة . فلما انهيت كلامى ضحك من كثرة السرور وخبطنى بكفه على كتفى قائلا والاشراق كله فى وجهه : « أنت قضيتك سهلة وبراءة مائة فى المائة » . قلت أنا والمعلم « طريشة » فى نفس واحد : « كيف يا راجل ؟ » . قال : « وانت فى المعسكر ! هل كانوا يفتشونك فى الدخول وفى الخروج ؟ » . قلت: « لا يابوى ! انا لم يكونوا يفتشونى لانهم عرفونى ووثقوا فى » . قال : « انت لا تقل هذا ! اذ ان المفروض انهم لابد ان يفتشوك وانت خارج من المعسكر ! » . قلت فرحا : « نعم يا خال ! » . قال مشوحا بيده : « خلاص ! انتهت القضية » . قلت : « كيف يا رجل ؟ » قال : « انهم فتشوك عند خروجك من البوابة ! وهذا معناه انك لم تسرق سلاحا من المعسكر ! اذ لو انك سرقته لضبطوه فى البوابة عند تفتيشك ! ومعنى هذا انك لقيت هذا السلاح فى الطريق ! » .

تحلف اليمين يابوى ان هذه الكلمة نورت فى دماغى مثل الكلوب فى الفرح قلت : « والله انها فكرة كبيرة يا بوى ! من اين جئت بها يا ابن الناس الطيبين ! » . قال باسما : « تراك تستطيع أن تشرح هذا للقاضى ؟ » . قلت مرتعشا بالفرحة المنملة : « ربنا معى » . قال : « معك محام ؟ » . قلت : « لا والله يا بو العم ! محامى هو الله ! » . قال كأنه يسرح بخيالى : « لا عليك ! ان المحكمة ستنتدب لك محام يدافع عنك بالمجان ! وسأكتب لك مذكرة قانونية تعطيها للمحامى أول ما تراه ! » . قلت وانا فى غاية العجب : « الله يكرمك ويوقف لك أولاد الحلال ! الله يفتحها فى وجهك دنيا وآخره ! الله لا يوقعك فى ضيقة ويفرج عنك ما انت فيه ! » . فصار يربت على ظهرى فى حنان وصرت أبكى فى غزارة ..

« وائل عثمان » ابن أصل صحيح يا بوى اللهم زد وبارك . ظل أسبوعا بحاله يطلب ورقا أبيضا وأقلاما وكتبا بعينها يحدد لزواره أماكنها فى دواليب بيته ، وأسبوعا بحاله يكتب فى هذه المذكرة كل يوم يكتب صفحة ، الى أن حان موعد الجلسة فأخذت

هذه الاوراق معى الى المحكمة ، ووقفت فى القفص الحديدى الى ان نودي اسمى فصحت كالموجوع قائلا : « انا اطلب المحامى الذى تندبه المحكمة للدفاع عنى من فضلها وكرمها على ! » ـ وكان « وائل » قد لقننى هذه الصيحة ـ فانسلخ عن مقاعد المحامين رجل عجوز تبدو الطيبة على وجهه ، وتقدم منى قائلا أنه محامى ، فدفعت اليـه بالورقات فذهب يقرأ فيها طالبا ارجاء القضية حتى آخر الجلسة ، فاستجابت له المحكمة ، فجلس منخرطا فى القراءة باهتمام وتقرفصت داخل القفص أتابعه بقلب واجف وهو يقلب الصفحات واحدة بعد اخرى حتى أتمها ورفع وجهه عنها وبدا متحمسا للكلام . ونودى اسمى من جديد فانبرى المحامى يدافع عنى بكلام من دماغه يشـبه الكلام الذى يقوله « وائل » بالضبط وقد أكرمه الله من أجلى فانطلق لسانه فى كل واد وقال كلاما كبيرا يابوى رقص له قلبى من الطرب ، شرح للمحكمة حالى وغلبى وطيبتى واستحالة أن أكـون ذلك المجرم الذى يتراءى للمحكمة الموقرة .. وفى النهاية يابوى لم اصدق نفسى وانا أسمع صوت الحكم على : سنة مع الشغل ! لم أصدق الا بعد أن بارك لى الحاجب والمحامى فرفعت ذراعى صائحا : يحيا العدل !.

الثالثة ـ فولة فى قلب غولـة

حاجة تهوس يابوى ، الدنيا أمورها عجيبـة ولها فى كـل يوم تصانيف من تصاريف لا تخطر للبنى آدم على بال . انا مثـلا يابوى خرجت من الحبس يا مولاى كما خلقتنى يارب ترزقنى ، لا قرش ولا عشرة ، الثوب الكشمير والآخر البوبلين والقميص والسروال تسلمتها من عهدة الحبس فلبستها ومضيت فى شوارع مصر المحروسة اتنسم عبير الحرية اتمنى أن أ[illegible]ن فى عشرات الاماكن فى وقت واحد وارى عشرات الناس فى لحظة واحدة . كنت جائعا فشبعت وتعبا فاسترحت ومريضا فشفيت كل ذلك من هواء الشارع فحسب ، اي والله يا بوى ، وبالامارة كان يخيل الى أن كل من يلقانى يجب أن يقف ليسلم على أسلم عليه فى اشتياق ولست أفهم من أين جاءنى ان كل اهل المدينة كانوا على علم بمجيئى وانهم تبعا لذلك لابد أن يفاجأوا من رؤيتى فى الخلاء طليقا ، ان هو الا احساس عجيب قاتله الله يا بوى ، احساس بأننى قد صرت مبصوما ببصمة السجن حتى وان صرت حرا ..

غير اننى ما لبثت حتى جعت وصرت هفتانا اتطوح فى مشيتى كخيال المآتة المخلوع من الارض تلعب به الرياح مشتهاها . شبعت من اللف فى شوارع المدينة وحواريهـا التى كانت أوحشتنى وفى النهاية صرت أتمنى رقعة من الارض أتوسد فيها ذراعى واسلم روحى للكريم الذى لا يغفل ولا ينام ، حيث لا يصحبنى بالأمر سجان ولا يتأمر على جاويش أو خفير أو ديدبان . لكن اين هذه الرقعة يابوى ! هذا حلم كبير جدا يابوى ، فى هذا البلد لا يتحقق مثل هذا الحلم ، انه لا يتحقق الا فوق مصطبة دارنا فى بلدتنا حيث أمى وعين الله ساهرة ..

الرجل تدب مطرح ما تحب هذا مثل من الأمثال شهدت به ارجل البشر على مدى الأزمان يا خال . الذين قبلنا قالوا وقولهم حق مدون فى صحائف الايام يا بوى . انا مثلا ، ما الذى عاد بى الى

حوارى مصر القديمة رغم اننى لاقيت فيها الهوان وشربت منهـا كاسات الذل والمرار . المؤكد يابوى اننى لى فيها ضلع كبير هـو المعلم « شندويلى » احب ان أراه ويرانى ، ولى فيها أيام حـلوة وليالى أنس وان كانت قليلة فانها لا تغيب عن البال ابدا ..

امر عجيب والله يا خال ، لقد كنت مقبلا على مصر القديمة وكلى سرور وابتهاج كأننى فى سكة المرواح الى بلدى واهلى ، ففى اول النهار كنت أسير بلا هدف أترك الحوارى ترفعنى الى الشوارع والشوارع تدلقنى فى الميادين والميادين تدهورنى وقتـا لتسلكنى بعده فى اتجاه غير مقصود . اما مصر القديمة فاننى قصدتها قصدا دون أن أدرى وترسمت طريقها حتى اشرفت عليها قبيل العصر بقليل .. فمالى كلما اقتربت منها ودخلت فى عمق حواريها ينقبض قلبى كأن يد مارد شيطان تفعصه ..

وا .. ا .. ه يا بوى ، انا أقول لك السبب ولكن ، لا داعى ، فضك من هذا السبب فربما أكون كاذبا فيه ، فليس يعلم بسر القلوب غيره سبحانه وتعالى ، انما الذى أنا متأكد منه يا خال ان حوارى مصر القديمة وشوارعها راحت تلقى فى وجهى بالليالى السـوداء الكالحة جماعات وفرادى كلما أوغلت فى دروبها طلعت على سود الليالى تفح فى شحوب المساء تذكرنى بنفسها يا بوى تتعرف على ، تكاد الأحجار المرمية على نواصى الحارات تهب واقفة وتقبل نحوى مسلمة ومعانقة بالأحضان تقول لى ايش حالك يا حسن ليس على وجهى سوى ابتسامة اشعر انها جفت من طول ما أومأت لليـالى السود الكالحة مذكرا اياها فى رقة باننى هو ، نعم انا هو ، ذلك الذى احبك بمآسيك وبلاويك وفضائحك وشقاواتك المعذبة . المصيبة يا خال أن ليلة من كل هذه الليالى التى تعرفت عليها وتعرفت على بين حوارى مصر القديمة وشوارعها لم تتكرم وتدعونى للبقاء فى حجرها حتى الصباح يابوى ، لم ينطق صوت واحد يقول تفضل يا حسن على العشاء أو حتى على شرب الشاى أو حتى تفضـل ولو على سبيل برو العتب .. رضينا بالغلب ولكن الغلب لا يرضى ؟!.

قلت والله لا أرضى بذل أبدا ، ومضيت لا ألوى على شىء حتى خلفت مصر القديمة وراء ظهرى وصرت فى أسـطبل عنتر . تذكرت فجاة اننى ما مررت على المعلم « شندويلى » وكان الواجب ان امر

يا بوى فالمعلم « شندويلى » كله واجب ، وهو القلب الحنون الذى كنت أضمن عنده غدوة كبيرة ونومة خلية البال هنيــة لكنه المــخ الصعيدى يابوى ، تربس تربسة شديدة ولم يشأ أن أعود كـل الطريق الذى مشيته . يخيل الى يابوى أننى صعبت على نفسى أن يرانى وقشف السجن على وجهى وكل جسدى وعلى لسانى . ثم طرأ الخاطر الكبير على دماغى يابوى قائلا : وما الداعى ياأبا على ان يعرف المعلم « شندويلى » انك كنت فى السجن أصلا ، لو علم ربما يستقلك فى نظره ولا يعتمد عليك فى سر ، وقد يتسرب الخبر منه فيعلم به ولد بلدى وتكون الفضيحة فى بلدتنا . قلت : ياما انت كريم يارب ، ومضيت اخترق شوارع اسطبل عنتر ..

فى اسطبل عنتر مقهى صغير خفيف الدم يقع على ناصية صغيرة لكنها بارزة ، صاحبها يرص كراسيه القش المفعصة ودككه الخشبية الملفقة فى أرض الشارع الذى لا تسير فيه الناقلات ، يجلس فى هذه المقهى خلق كثيرون من باعة السمك السريحة وأنفار شغل الفاعل والشيالين والتباعين . لى فيها ولد صديق يمسح الاحذية فى الشوارع بصندوق صغير ويتخذ من هذه المقهى موطنا ليليا حيث يلعب القمار مع شلة من أصيع خلق الله . مثلى اسمه « حسن » ، غير أن أهله يدلعونه فيطلقون عليه أسم « ميمى » . دلع الفقارة يفقع المرارة كما يقول المثل والاسم غير راكب عليه لكنه يركب عليه فقط فى قهوة « بعره » هذه وفى العشش التى يسكن مع اهله فى واحدة منها على بر الجيزة نحو جزيرة الذهب ، حيث كل سكانها معفرين صدئى الوجوه وبينهم « حسن هذا ابيض الوجه على جبينه خصلة شعر كأولاد الذوات . له ثلاثة اخوة صغار يشتغلون مثله فى مسح الاحذية ولا يرجعون الدار الا لحما . وأنى لأحب هذا الولد لأن فيه لطشة الجدعنة يفعل اشياء يعجز عن فعلها رجال بشوارب غليظة وحافظات نقود منتفخة ، لا يهمه اى شىء . هو الآخر يحبنى لله فى لله وكان يتعارك من أجلى مثلما اتعارك من اجله اذا وجد أحدنا الاخر فى زنقة .

الولد نط من الفرح بمجرد ان رآنى والله يابوى وشالنى عن الارض : « ازيك يا حسن اهلا وسهلا عاش من شافك » . جاء الشاى

فشربناه وحدنا علي كوعة الرصيف المقابل وقام « ميمى » فاستلف علبة سجائر صغيرة وضعت بيننا . قال : « أنت قادم من البلد ؟ » .
قلت : « أنا قادم من السجن مباشرة الى هنا ! » . نهض واقفا فى الحال يقول : « طب يلا بينا » ، ثم سحبنى الى كورنيش النيل بعد ميناء أثر النبى ، فعبرنا النهر بالمعدية ومضينا على الشاطىء قليلا حتى وصلنا الى عشة بين حوالى مائة عشة مبنية بالطين والبوص على مساحات عريضة بين عشب واشجار كثيرة .

الرابعة - عيان يضاجع ميتا

فى وسط دارهم البرحة حكيت له حكاية السجن من طقطق لسلامو عليكم . احتفت بى امه العجوز لما علمت بالحكاية وذبحت لنا بطة كبيرة سلقتها فى الحال مع حلة أرز ومرق . أمه كانت طيبة وتشبه أمى لحد كبير يابوى ، قالت وهى تضع الأكل أمامنا بحب : « اقلع هدومك اغسلها لك وازيل عنها رائحة الأيام المشئومة » . خلعت ثيابى وخلع ابنها ثيابه ، وبقينا فى السراويل فحسب متحررين من الخشية على الثياب فنزلنا على الاكل حتتك بتتك ، شفطنا من المرق ما كان يتصبب فى الحال عرقا لذيذا . مصمصنا عظام البطة حتى لم تجد القطط والكلاب بعدنا أى بركة تراجعها . وبعد الأكل شربنا الشاى دورين واتينا على بقية علبة السجائر . تمطرقنا على الارض نستشعر الرخاوة نستكمل بقايا الكلام حتى سطلنا الهواء الخريف فغطسنا فى نوم عميق ، حتى الولية هى الاخرى ..

لولا ان البول حصرنى فحلمت اننى اتبول ما كنت صحوت . كانت الدنيا تبدو لى لحظتها وكأننا فى منتصف الليل ، وانوار مصر تلعلط من كل ناحية فوقنا وتصب فى حوش الدار شيئا قليلا من لآلئها . لكزت « ميمى » فتقلب وفتح عينيه قائلا كأن الكلام لم يتوقف بيننا بعد : « هيه ! وبعدين ! » . قلت : « أريد أفك حصرا » . أشار الى تعريشة فى ركن الحوش البعيد فعرفت أنها الكنيف فاتجهت اليها فقضيت حاجتى واسترحت وبحثت عن عقب سيجارة أشعله فوجدت « ميمى » يحتفظ بسيجارة قدمها لى مشتعلة فتربعت لبعض دقائق وبضع أنفاس ثم طلبت ثيابى لألبسها فذهبت الولية لتأتى بها من على حبل الغسيل فلم تجدها ، ولم تجد لمحتويات الدار كلها أثرا ، حتى الحلل والوابور والأكواب . صوتت الولية بكل عزمها ، فأيقنت أنه النحس يابوى قد لحق بى فى هذا المكان الهادىء . صرنا جميعا فى ربع هدومنا بل فى كامل عرينا ، اذ ليس

من خيط فى ابرة يستر عورتنا اذا اردنا مغادرة عتبة الدار ، وقلت لابد أن شيطانا يترصدنى يابوى .

شيء الهى قال فى نفسي : كفاك هذا يا حسن وتادب وقم من هذا المكان . شعرت بالرعدة فى قلبى والله ياخال ، فطويت وجهى عن السماء وقفلت جسمى على نفسه كأن السجن قد تقاربت جدرانه على حتى التصقت بجسدى وتشكلت بعريه وقلت للولية فى صوت يقطر البكاء منه : « والله ياولية اننى لا أعرف ما أفعله الآن فدبرينى » . طوت الولية وجهها عنى ومسحت دموعها الهاطلة وتمخطت ثم قالت : « تدبرها الطاهرة أم العواجز أم هاشم ابنة بنت رسول الله » . صحت جاعرا كأننى أشتم وأردح : « مدد ياست زينب ! وربنا شطارتك ! اكيد لك الدلال على ربنا ! » . نهضت الولية بقلب كسير وصارت تروح وتجيء حائرة تشد فى ذيل ثوبها وتستنزل اللعنات على من فعل هذه الفعلة الخسيسة فينا : « الاهى مايوعى يبات ! الاهى يتقطع جسمه تحت عجلات قطار ! الاهى يصرف أضعاف أضعاف ثمنها على الحكماء ومر الدواء وشر البلاء ! » ..

استوقفتها قائلا كأنها المسئول الاكبر عن زنقتى هذه الشنيعة : « كل هذا لن ينفع يا خالة فدبرينى ! » ، فاشاحت فى أسف . وبعد صمت طويل كظيم نهض « ميمى » ومضى خارجا بطريقة فهمت منها انه سيبحث عن اللص ويجيء به من تحت طقاطيق الارض . لكنه غاب يابوى . وطال صبرى وأنا أجلس تارة وانهض تارة اخـــرى كالسبع الهائج اريد ان افتك بالولية واهدم هذه الدار على نافوخها النحس ، وهى فى كل مرة تنجح فى تهداتى بسياقها للنبى وللولى وآل البيت كلهم مما يعجزنى عن التمادى فى الهياج خشية الفلط فيهم هم الآخرين وهم شفعائى عنده سبحانه على ما صدر منى تجاهه من لحظة فائتة . لكننى يا خال كلما تذكرت أننى خرجت اليوم من الحبس الى حبس من صنف جديد تغلى الدماء فى عروقى كيفما يغلى الماء فى براض الشاى ويتفرتك من الغليان ..

غابت الولية قليلا ثم عادت وفى يديها كوب شاى ثقيل رغم ضيقى الشديد بمنظره فاننى انشرحت قليلا لمرآة ، الخاطر الذى جاءنى لحظتها ان أطيح به وبيديها فى الهواء فليحرقها الله . قالت الولية ان الجيران سمعونى وعرفوا كل شيء وحزنوا من اجلى وأن ابنهـا

هناك يتباحث معهم فيمن يكون السارق الجبان ، وانحنت ووضعت كوب الشاى بجوارى . منظرها صعب على يابوى فسكت . وبعد وقت قصير وجدت يدى تمتد على كوبة الشاى فاذا للشاى طعم عبقرى يا بوى ، سرى منـه الخـدر فى أعصـابى فشعرت انني استرحت . بحثت بعيني عن الولية فلم أجدها ، فقمت اتمشى من جديد ولكن فى هدوء هذه المرة ، أحاول الوصول الى بر ولكن بدون فائدة يا بوى ، لا طريقة ولا حل والدنيا مثل خرم الابرة وانا الخيط يريد أن ينفذ منه فى حلكة الظلام . الدموع تهطل مدرارة على خدى وأنا أحس من لهيب غليانها أن الله غاضب على هذه الأيام وانها ايام نحوس بالنسبة لى ولن يرضى عنى سبحانه الا بعد زوالها وهو وحده يعلم متى تزول لكن العشم فى رحمته قريب . اذا بالولية داخلة تحمل بين يديها خرقة كالحة تقترب بها منى قائلة ان الجيران ناس على باب الله مثلنا وقد فتشوا عن ثوب قديم عندهم يمكن الاستغناء عنه فلم يجدوا لأن كل ثيابهم فى الاصل قديمة ومعظمها خليع مما استغنى عنه آخرون لكن أمهم الطيبة دخلت القاعة فرات عجينها مغطى بهذا الثوب فنظرت فيه فوجدته لا يزال صالحا لتغطيـة الجسد ففرطت الأم فى عجينها واستغنت ــ كتر خيرها ــ عن هذا الثوب فمساه ينفع او يقضى مصلحة .

غصبا عنى تناولته يا بوى ، رحت أقلب فيه واتحسر على حكم الزمن الجبان وفعل الأيام فى . الثوب خشن يا بوى ، ملىء بحبيبات قطع العجين الناشف ورائحة النخالة والتراب وخراء القمل والبراغيث والصراصير الا انه متماسك النسيج وليس به الا رقعة واحدة من ناحية الكتف وبقعة عريضة جدا من زيت الطعام شربت من الوسخ والتراب ما شربت ولا يزال ملمسها طريا كجلد الأفاعى . لكننى لبسته يا بوى ، وضعته على كتفى وادخلت أكمامى فيه وطرحته على بدنى فاستقام كاسيا حتى ما فوق الركبتين بقليل . قلت : نحمد الله على ذلك ، وقلت للولية : سارجع بعد قليل وقولى لابنك ينتظرنى فسوف ابيت عندكم سواد الليل .

الخامسة - الله أكبر لكن الليل كافر !

أخذت الباب فى وجهى ومضيت ..

تملكت شاطىء النيل وبقيت ماشيا لا أعرف لى وجهة أخرى ، حتى لاح لى من بعيد ضوء خافت محمر ، كان يزداد احمرارا وتألقا كلما تراجعت بيوت المدينة واحاط الظلام كل شىء . قد عرفته يا بوى ، تذكرت أننى اعرفه ، أعرف ان هذا الضوء يقوم امام خص على هذا الشاطىء يسكنه خفير وأولاده ، اذ أن هناك من يملك هذه الأفدنة الكبيرة من طرح النهر قد زرعها أشجارا صغيرة لا أحد يدرى ماهى بالضـــــبط حتى خفيرنا ، وجاء لها بماكينة مياه وبهذا الخفير يحرسها ، تذكرت أن اسمه « عم دهب » وانه يخفر هذه الاشجار وهذه الماكينة منذ سنوات ، فى النهار تراه مترددا على أسواق السمك والفاكهة يداعب التجار ويتحدث معهم حديثا وديا طيبا ، وهو مشهور بينهم . قلت : لا مفر يا عم دهب ! أنت الآن الذى أمامى وقد جاءت الطوبة فى المعطوبة هذه المرة ولكن ماذا أفعل ! أنت على الأقل تستطيع التصرف أما أنا فلا استطيع شيئا مطلقا ! فدعنى أسرقك بالطيبة أو بالغصيبة بدلا من قتلك أو قتل روح أخرى !..

أخذت أدارى نفسى واظهرها كلما اقتربت من خص الرجل . كان صوت أم كلثوم يصدح مغنيا هلت ليالى القمر – مع أن الظلام كان دامسا . فلما حاذيت الخص من جانبه الأيسر داريت جسدى فى ضلعه ونظرت فاذا بالراديو ماركة صوت العرب معلق فى مسمار فى جدار الخص ، واذا بـ « عم دهب » وزوجه وأولاده نائمون على الشاطىء امام الخص كالسطيحة وهم يتبارزون فى الشخير كأنهم يهزأون بصوت أم كلثوم ، همست قائلا : معلهش ياسيدة الغنـاء يا آنسة فلسوف أثار لك الآن . ومددت يدى فأغلقت الراديو ، فساد سكون كبير سرعان ما احتلته اصوات الضفادع والصراصير وصوت الشخير . تحسبا للموقف صفقت بيدى تصفيقة واهنة قائلا

بصوت اشد وهنا : يا جماعه ياللى هنا . فلم يجاوبنى سوى الشخير ، فتسللت على أطراف أصابع قدمى ودخلت الخص ، لأرى ثياب الرجل وزوجه وأولاده معلقة على مسامير فى الحائط فلممتها كلها ولففت فيها الراديو وكل شيء وجدته . وتسللت خارجا أمشى على الشاطيء فى هدوء وسرعة شديدين وأنا أقول : استر يارب .. حتى وصلت الى دار صاحبى « ميمى » والفجر يقول : الله أكبر .

فى دخلتى كان صاحبى يتعارك مع أمه يوبخها على نومها والولية لا تزال تستنزل غضب السموات كلها على الذين فعلوها وعيشوها هذه الليلة الكحلاء وقدمى النحس التى دخل الحرامى فى أعقابها فقششهم تقشيشا . طرقت الباب ففتحت لى وشهقت لما رأتنى : « لقيت الحرامى ؟ » . قلت : « نعم ! » ، فهب صاحبى وأقبل مهرولا : « كيف ؟ » . دفعتهما معا الى صحن الدار مغلقا الباب خلفى بالترباس ، وقلت للولية وأنا أفك الصرة الكبيرة : « هذه حلل وأطباق وأكواب ووابور بدلا من الذى ضاع منك يا خاله ! لعل النحس يزول عنك ! وهذه ثياب لك أحسن مما سرق ! أما أنت يا صاحبى فهذا ثوب لك أجدد من الذى سرق ! وهاك فانلة صوفية بأكمام جزاء لك على كرمك معى ! أما هذا الجلباب الصوفى المعتبر وهذا الثوب البوبلين الفخيم وهذا الصديرى الشاهى — بكل ما فى جيوبه — وهذه الفانلة القطنية وهذا السروال وهذا الحذاء وهذا الراديو فانها جميعا لى يا خال ! الله الله على الجد ! والجد الله الله عليه ! » ..

قال الولد وأمه فى نفس واحد : « حلال عليك يا عم ! والله انك لتشكر ! » . ونظر الولد فى عينى قائلا بلهجة موروبة غير سالكة : « عملت كيف يا ابو علي ؟ » . حاذيت ظهر كفى بفمه وشخطت فيه : « لا شأن لك ! أشغل أم بحلقه ! » . اعتدل الولد قائلا : « شغل طبعا ! شغل ! » ، ثم نهض من فوره فارتدى الفانلة والجلباب فظهر كأولاد الناس واتفق فى الحال على أن تقطبها أمه من الذيل والجنبين مقدار ثلاثة قراريط ، ثم خلعه ورمى به لأمه ، التى تلقفته وفى الحال راحت تبحث فى عقدة منديل راسها عن ابرة الخياطة ، وعاد صاحبى يثقب الصديرى بنظرات كالحة صايعة ، خاصة بعد أن سويت الصديرى على ضلوعى فكأنه على مقاسى بالضبط .. ولقد راح قلبى يرقص تحت ثقل المحفظة الكبيرة التى

كانت فى جيبه يا بوى ، أشبه بمحفظة تجار الحبوب والأقطان يا بوى ، وكنت أؤجل فتحها لا أعرف لماذا يا خال . بسرعة سويت الجلباب البوبلين على جسدى ومن فوقه الجلباب الصوف ثم الحذاء فبدوت كشهبندر التجار فى زمانه ، رحت أخطو واعود مجربا المشى رافلا فى ثمين الثياب فوجدته غاية المراد من رب العباد حقا يابوى ، وعذرت الناس فى تكالبهم على ذلك وتذكرت قول أحد الأئمة لعله « أبو حنيفة » اذ يقول على لسان عمى الفقيه الكبير : « تقمشوا بثمين الثياب يحترمكم الناس ! » ، يومها قال أحد المعترضين الأذكياء على عمى الفقيه : « دعك من هذا يا سيدنا فأبو حنيفة كان يروج للقماش باعتباره تاجر اقمشة بالوراثة ! » ، وشخط فيه عمى الفقيه وطرده من مجلسه .. طب ما قولك الآن يابوى فى اننى قد صرت متحيزا لأبى حنيفة فى هذا القول ؟ صحيح أن الامام أبا حنيفة لم يحل لنا مشكلة الفلوس التى سنشترى بها هذا القماش الثمين ولكن الذى صار مؤكدا لى الآن هو أن لبس القماش الثمين هو رفل النعيم حقا ، فاللهم اوعدنا به ..

قطعت الحوش فدخلت التعريشة الكثيف موهما اننى سأفعل مثلما يفعل الناس ، وجلست ، وجلست فعلا على الملاقى بعد أن حللت سروالى فاذا بى بالفعل كنت اريد ذلك فمضيت افعل ثم انتهزت الفرصة وأخرجت المحفظة بقلب واجف ويد منتفضة كأننى أسرقها الآن فقط ، فتحتها وانتهكت جيوبها بسرعة فاذا هى تحمل خمس ورقات بخمسين جنيها وسبع جنيهات فكة وخاتم فضى مكسور وبعض أوراق صغيرة مطوية . خرجت يدى بثلاث جنيهات مطوية ثم اطبقت المحفظة فطرقعت كبسولاتها بلذة وأعدتها الى جيب الصديرى . لمحت ظل صاحبى يتلصص على من خلف باب التعريشة الصفيح ، وبحثت عن ماء فلم أجد فمسحت مؤخرتى بطوبة ونهضت رابطا سروالى وخرجت الى الحوش ملاحقا صاحبى الذى كان يسرع لينفى عن نفسه شبهة التجسس على ، قبضت على ذراعه وبالاخرى عرضت له الجنيهات قائلا : « وجهك فقر ! هذا كل ما وجدته ! خذ » ، ونزعت جنيها أخضر سمهرى القوام عريض المنكبين يقف على صدره وجه ابو الهول فما رآه صاحبى حتى وقع مغشيا عليه من الفرح ، فصرت أدفعه ببوز الحذاء فى جبينه وذقنه ليفيق وهومندمج فى التمثيل يرمى جثته يمينا وشمالا ويشهق شهقة طلوع الروح كلما

فتح عينيه ورأى ورقة الجنيه فى يدى . دفعت بالجنيه فى صدره ومضيت قائلا : « دعنى الآن أذهب الى حال سبيلى قبل ان يطلع النهار فتحدث فى الأمور امور ! » . فمضى معى نحو الباب بالفانلة والسروال وعانقنى ، فحضنته ، ولحقت الوليه بى عند الباب فاحتضنتنى وقبلتنى فى جبينى قائلة : « مع السلامة يا ولدى ! الله يسهل لك ويفتحها فى وجهك ويبعد عنك أولاد الحرام ! » . فاستهدى قلبى خيرا بهذا الدعاء ، وقلت والله انها دعوة تساوى عندى أضعاف ما أعطيته لها .

وخرجت ، فمضيت اخرم فى طرقات متوغلة فى بر الجيزة امشى بخطوات ثابتة واثقة وان كان قلبى فى صدرى كبندول ساعة المسجد يا خال .

السادسة ـ الهروب من قرص الشمس !

ادركتنى الشمس واقفا على محطة الجيزة فى انتظـار قطـار الصعيد . فبقيت نافرا من قرص الشمس مزورا عنه احاول ان اتلاشى رؤيته لوجهى . حتى جاء القطار فركبته فظل القرص يطاردنى من شباك القطار يترصدنى من سمائه ويسرع فيسبق القطار بأميال، وينتظره ليشده ، فكأنه يبحث بين عموم هؤلاء الركاب عنى وحدى ، يشدد لهيبه ، يظهر انه سيستندل معى ويشى بى للركاب ، يفضحنى الفضائح السبع كلما أفحمته باغلاق هذا الشباك يابوىَ هب هلف من الجالسين أمامى وطلب رؤية المزارع والخلاء والضوء الصباحى الدافىء الحلو ، يعطينى الهلف دروسا ومواعظ فأفتح الشباك رغما عنى وشىء الهى فى نفسى يقول يا ولد اقصر الشر ولا تتشابك فى خناقات على الصباح فاخز الشيطان واوصل الى أهلك على خير . اغمضت عينى فى وجه الشمس وتذكرت الراديو ففتحته فانطلق صوته برقصة ساحرة كأن الكون بجميع أركانه يرقص ويمزك مع شادية وهى تغنى : « يانور عينيه واكتر شويه يا أعز عندى م الدنيا ديه » فتطلع وراءها الموسيقى هاتفة مشخللة ودماغى سابح فى بحر ذاك وامى تحضننى مغنية نفس الكلام على نفس الموسيقى ، ثم تمنيت لو أن البنت « حنة » بنت أبى سكين هى التى تغنى لى هذه الغنوة وصوت الكمسارى يدخل فى هذه المزيكة صائحا فى غلظة : « انت يا خويه ياللى هيمان فى الخيال تبتسم ! النبى تبسم ! لكن فين التذكرة ! » ، فصـحوت مبتسـما ووضـعت يدى فى جيب الصديرى الصغير المعد للساعة فاخرجت التذكرة جـديدة خضراء سميكة فأخذها الكمسارى وقرضها بالكماشة واعادها الى قاعدتها الى نفس الجيب وقد داخلتنى نشوة اذ أدركت حلاوة ان يكون للمرء صديرى كهذا لأشياء كهذه فيا للأبهة يا ولد يا ولد أبى ضب والله صرت الآن رجلا محترما ولو على قفا الآخرين يهز لك الكمسارى راسه بالتحية . ثم ان الكمسارى دخل مع الهلف الجالس قبالتى فى

كلام وحديث فهمت منه ان هذا الهلف لم يقطع تذكرة ويريد قطعها الآن ويناكف الكمسارى ويساومه والكمسارى يقول له يا بجم . تكيفت يابوى من حلاوة أن يكون مع المرء نقود يهينها بدلا من أن تهان نفسه ... عندئذ يا بوى سخرت من قرص الشمس واقتنعت أن له مهمات أخرى كثيرة واننى لست فى حسبانه فاضطجعت ممددا منصتا الى صوت الراديو . وكان فى جيب الصديرى علبة سجائر مفعصة هى بقايا سجائر « عم دهب » ، وكانت بعض سجائرها مقلوبة على وجهها فرجحت انه يميزها عن غيرها اذ هى محشـوة بالحشيش لابد ، غير أننى لم اتذكر ذلك ولم انتبه اليه الا بعد أن دخنت آخر سيجارة من المقلوبة ، سرح دماغى مع الراديو ، شيء مليح والله يا بوى ، مليح قوى قوى ، هذا الشيء المسمى بالراديو ، يصدح بالغناء والكلام والموسيقى والقرآن والتشخيص والمسخة وكل شيء ، قال الرسول عليه الصلاة واتم السلام : من علامات الساعة أن ينطق الحديد وها هو ذا الحديد قد نطق وملأ الدنيا زيطة وزمبليطة ولم تقم الساعة بعد فمتى تقوم القيامة ؟ وما المقصودبهذه الساعة يا بوى ؟ انها ساعة القيامة بالطبع يا خال ، وما القيامة يا خال ؟ ما القيامة التى ينتظر أن تحدث ويكون نطـق الحـــديد علامة من علاماتها ؟ عقلى يحدثنى يابوى انها قيامة الخلق ! يقومون ليفعلوا شيئا كبيرا ياخال ! يقلبون الدنيا مثلا فيجعلون أعاليها أســافلها لتتنفس خلق طال انكتام أنفاسهم وليجرب آخرون انكتام الأنفاس !؟ وان من يكتم انفاس الخلق يقوم الخلق عليه ذات يوم فيفكوا قيود السجن عن الهواء الذى استلبه فيمرح الهواء فى فراغاته الحميمة يعانق الخلق ينبت الزرع ترقص فروع الشجر تتبختر الانفاس تنزل غيثا يهمى على الخلق بالحياة !! فى ظنى يا بوى أن الرسول عليه السلام قد صدق وأن القيامة سوف تقوم حتما حتما قسما عظما لكن حين يؤون الأوان لينطق الحديد ـ هذا الحديد الناطق ـ بكلمة السر الحقيقية ! التى لست أعرفها بالضبط يا بوى !.

شيئا فشيئا راح صوت الراديو يشحب وينـداح ويهـزل ، فتذكرت انه يعمل بالحجارة البطارية مما يباع لدى البياعين فى سوق العتبة وسوق غزة والدكاكين البندرية . اغتممت لما تذكرت أن حجارة البطارية هذه ستكلفنا كل يوم والثانى ، وازددت غيظا لما تذكرت أننى لا أعرف كيف تنزع البطارية القديمة وتركب الجديدة . خفت

ان تنفد البطارية قبل وصولى الى العيال فيصير الراديو مجرد صندوق غير ذى قيمة . أغلقته وركنته فى حجرى محلقا عليه بيدى واستسلمت للأفكار : ماذا ستفعل يا ولد ؟ غدا أو بعد تنفد وتبقى انت على الحديدة وتعود ريمة لعادتها القديمة . شىء الهى قال لى : يا ولد سلمها لله فليس من المعقول ان يعمل هو عقله بعقلك الصغير ويمسك لك على الواحدة ، انه الأب الحنون ولابد أن يرضى عنك فى يوم من الأيام ولكن بشرط أن تقدم أنت فروض الطاعة والولاء يا حسن كما يقول عمى الفقيه الكبير ، وعموما فانه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك وان شاء ان يعزك فسوف يفعل او يذلك فالأمر بيده ، ولكن ، معلهش يارب .. معلهش يعنى بس فى ذى الكلمة التى اوجهها اليك الآن بقلب صاف ونية خالصة : كيف اتوب يا بوى والفقر والعوز يلاحقانى أينما سرت ؟! مر الفقر والعوز ان يحلا عنى ويرحلا من تحت اقدامى ! أو فمر امى واخوتى ان يقفلوا بطونهم ويدفنوا عريهم تحت التراب الوجيع ! اصدر امرك الى كل ثقب ابرة فى جسدى أن يتنــازل عن كل مطلوب وكل مرغوب ! حينئذ ـ يارب ـ يصبح فى مقدورى أن أقول لك أن توبتى نصوحا ونهائية عن كل فعل يغضبك او يؤذى عبادك الصالحين ! اننى واثق يارب انك سبحانك قادر على كل شىء وما اظن أن هدايتى امر يصعب على قدرتك لكنه مفتقر الى مشيئتك ..

الدموع صارت تنهمر من عينى يا خال ، انهمرت كما المطر حتى ارتجفت من شعور بالبرد القارص رغم اشتداد صهر القيظ الماشى لصق شباك القطار . كلما جففت الدمع يزداد انهمارا كأنه البئر الزلال كلما أخذت منه يفيض ويمتلىء . شىء الهى فى نفسى يقول : ابك يا ولد مشتهاك ولا تترك فى مخازن الدموع قطرة واحدة دع كل المواجع التى ادخرتها فى الحبس أمام الرجال وفى التلطيم فى سود الليالى تنز وتعصر كل قيحها فلربما يسكن الوجع الى حين أو الى الأبد ..

وهكذا يا خال بدأ غسيلُ عينى يجف شيئا فشيئا وبدت الدنيا امامى زاهية مخضوضرة عليها يلمع الندى .. فشعرت أن أرض الحبايب قد هلت منذ بضع محطات سابقات فصرت أستنشق ريح محطة « صدفة » التى تحمل فى ثناياها ريح دارنا وامى واخوتى . قمت فسوينت طوقى وأصلحت قفاى ونفضت حذائى وسحبت من

ألرف جعبة ورق مطوية على خمسة كيلو من فاكهة مصر الطيبة اشتريتها من فاكهى فى قفا المحطة فملأت الجعبة بعنب ورمان وخوخ وتفاح مما يشتهى العيال ويسمعون . تأبطت الجعبة برفق يا خال ، تماسكت فى عامود الباب أترقب رصيف محطة « صدفة » وهو يزحف داخلا تحت سلم الباب كأن الرصيف هو الذى يجرى . لم أكن لأطيق صبرا حتى يقف القطار نهائيا ، فما صدقت أن هدأ لهاث الرصيف وتثاقل زحفه حتى رميت بنفسى مقلدا أولاد البندر ، ولم أكن ادرى يا بوى أن اولاد البندر حين يفعلون ذلك يجعلون وجوههم فى اتجاه سير القطار حتى يمكنهم التماسك فى الأرض ، لكننى لحظتها كنت معلقا على سلم الباب ملقيا تبصرى فى الاتجاه المعكس الذى يخلفه القطار وراءه اذ ان عينى كانت ترقب الطريق الزراعى الذى سأرجع كل هذه المسافة لاسلكه الى بلدتى « كوم سعيد » ، فلما القيت بنفسى على الرصيف دفعنى الهواء المواجه بشدة وعنف فالقي بى فى الهواء بعيدا ، لافاجا بنفسى منطرحا على ظهرى على مبعدة من سور الرصيف رافعا ساقى فى الهواء ممددا ذراعى والألم فى راسى وظهرى لا يطاق يا خال . صرخت من عزم ما بى وقلت آه يا عمرى. لكني لا ادرى كيف نهضت مسرعا كلمح بالبصر ، لارى الأرض مبذورة عنبا ورمانا وخوخا وتفاحا ، وليس ثمة من راديو ..

اخذت ألطم وجهى واشد فى طوقى واولول واهلوس أصرخ لله ما يغيثنى . جاء نفر من الركاب يهرولون نحوى بكل لهفة وبقايا صراخ وصياح ، فلما رأونى واقفا على حيلى ظهر الاطمئنان عليهم وصاروا يجمعون ما يمكن جمعه من فاكهتي وقد صارت كالكنافة يا بوى ، كنافة معجونة بعيد عنك . حاولنا وضعها فى الجعبة لكن الجعبة كانت تفتقت وتهرأت . بحثوا عن جرنان مع أحد فلم يجدوا فكوموها أمامى على الأرض وانصرفوا ، ووقعت عينى فجاة على الراديو عند آخر الرصيف وقد صار الى ثلاث قطع منفصلة وان اشتبكت فى بعضها البعض بأسلاك وبدت السماعة كقبضة العجين سوداء مخرمة مليئة بالغموض واللمعان كوجه النحوس التى تتصدى لى هذه الأيام ظلما وعدوانا والله يا بوى . وليت نحو حطام الراديو فرأيت جوارها خرقة بالية كالحة سرعان ما تعرفت عليها فاذا هى الثوب الخلق الذى سبق أن جاءتنى به الولية أم صاحبى « ميمى » من جارتها وكان غطاء للعجين ، اذ اننى حين خلعته فى دار صاحبى

احتفظت به بغرض الانتفاع به فى لف شيء . قلت : ياما انت كريم يارب ، وانحنيت فجمعت أشلاء الراديو ووضعتها فى الخرقة وقد داخلني شعور بأن اعرض امره على سمكري البلدة عله يتمكن من اعادة لحمه وتشغيله وعدوت على بقايا الفاكهة فجمعتها لففتها مع اشلاء الراديو فى الخرقة التى كان مقدرا لها أن تلف جسدى نفسه فى زنقتى ولكن ها هى ذى تلف أشلاء ذنبى تزفني الى الأهل خائبا اقول يا سابل الستر كفانى ما لحق بى من الكسفة والمذلة وأشملنى برحمانيتك الواسعة .

من حسن الحظ يا خال أن أحدا لم يتعرف على فى الطريق والكل يرد على سلامى كالماكينة : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته اتفضل يا ابو العم . الوحيد الذى تعرف على حقا هو أمى يابوى . فتحت لى الباب فشهقت فدبت صدرها بالحيل صائحة بأشد عزم فى قلبها: ولدى . فرميت بنفسي فى صدرها عابس الوجه كظيما . فما أن ردت وراءنا الباب حتى تفجرت باكيا ، كأن كل بكائي داخل القطار كان الزلازل تسبق انفجار البركان الذى ينعطف على الأرض الملائمة . لم اكن ادرى أبكائى هذا أم بكاء أمي .. لكننى كنت أوقن يا بوى أن صخور الحياة وكلاكيع المر المتكورة بأحشائى وفوق صدرى قد انصهرت وذابت من لحظة ما لامس خدى صدر أمى . بكيت نيابة عن كل الحواديت المرعبة التى وددت لو أحكيها لها يا خال ، وعن كل الأخبار المؤلمة التى طالما استشعرت لذة حين أرى حالها اذ تعرفها . كان كل ما اريد أن احكيه لها كثير يابوى ، معقد ومؤلم ، فاكتفيت بالبكاء كلما تصيدت أمى مناسبة تجرنى فيها للحديث عن مصابى وغيابى كل هذه الشهور بدون حس ولا خبر . كنت فى بعض اللحظات أشرع فى أن أحكى لها يابوى ، لكن عبرة البكاء تكتفنى عن الكلام فلا أكمل و لااتكلم من الأساس ..

الى أن جاء يوم تأكدت فيه أن أمى قد تمكنت من ترجمة كل دمعة دمعتها يا خال ، وباتت تعرف عنى كل شيء دون أن أحكيه لها بالكلام . ولما تأكدت هى أن مخزون الدمع فى عينى قد نضب ، بدأ دورها هى فى البكاء وما أفظع بكاء الأم عندنا يا خال ، أمى أنا بنوع خاص ينبوع بكاء ، لم أر لبكائها ضريبا فى البر كله ، تبكى لشهور وسنين خلت كان حالي فيها ـ وحالهم ـ يستحق البكاء الأليم . تحلف اليمين يا خال انها لم يشغلها عن الاستمرار فى البكاء سوى

نجاح السمكرى العفريت فى لحم صندوق الراديو وتجميع عدته والعكرشة فى أسلاكه حتى وش ونطق وصار عال العال ولكن بشرط أن نضع حجارة البطارية من الخارج فى صندوق صغير خاص بها وموصول بالعدة بسلك ومربوط فى صندوق الراديو بحزام من الأستك . بات فرجة حقيقية نفخر بها على أهل الشارع كله ونلقى من اصواته العجائب والمدهشات ، حتى أن سحنة وجه أمى قد تغيرت والله يا خال وانشدت بعد تهدل وكرمشة امتلأت بدم الحياة من أنفاسى فى الدار بعد جفاف وتحرق . صارت كل يوم تتنازل عن شىء من همومها وتخشبها حتى جاءت لحظة صارت تتمايل فيها مع موسيقات الراديو الراقصة ، ولولا الحياء لهزت جزعها ، لكن الحياء والحق يقال يا خال لم يكن يمنعها من أن تغنى احيانا مع المغنى . تحلف اليمين يا خال أننى انحرق قلبى حزنا عليها وعلى نفسى من أجلها . ايقنت أن الولية ـ أمى ـ فى نفسها الفرح على أشده ، واخوتى البنات يعرفن ذلك ويحببنه حتى شوشة الدماغ .. فمن تراه يكون ذلك الشيطان الرجيم الذى يحكم علينا جميعا بأن نتوق للفرح ونشتهيه حتى الحزن الأليم حتى صار الحزن طبعنا وغيرنا فى ملذات النعيم غارق يلهو . قلت فى نفسى : والله لأفرحنك يا أم ويا أخوتى مهما كان الثمن باهظ التكاليف ، سوف أفرحكن أشد الفرح ولو على جثتى وجثة الشيطان نفسه ..

رقم الإيداع : ١٩٩٠/٣٩٦١
J . S . B . N
977 - 07 - 0007 - O

روايات الهلال تقدم

أول رواية تكشف أسرار أعماق البحار

حسنــاء بحــر كورتـــيز

تأليف

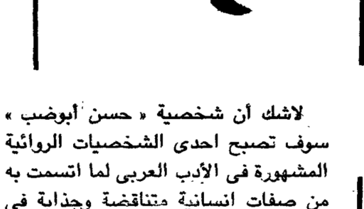
بيتر بنشلى

مؤلف رواية الفك المفترس

ترجمة

عبدالعزيز مصطفى أحمد

تصدر : ١٥ يونيه ١٩٩٠



خيرى شلبى

○ روائى مصرى يكتب القصة القصيرة والمقال الأدبى

○ حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى عام ١٩٨٠

○ قدم للمكتبة العربية أربعين كتابا ومن أشهر رواياته « الأوباش » و« السنيورة » ، و« اللعب خارج الحلبة » ، و« الشطار » ، و« العراوى » ، و« الوتد » ، و« فرعان من الصبار » ، و« رحلات الطرشجى الحلوجى » وغيرها من الأعمال .

○ تدور أحداث أغلب اعماله فى البيئات الشعبية المصرية ، سواء فى أحياء القاهرة القديمة أو فى المناطق الريفية العتيقة

لاشك أن شخصية « حسن أبوضب » سوف تصبح احدى الشخصيات الروائية المشهورة فى الأدب العربى لما اتسمت به من صفات انسانية متناقضة وجذابة فى آن واحد ..

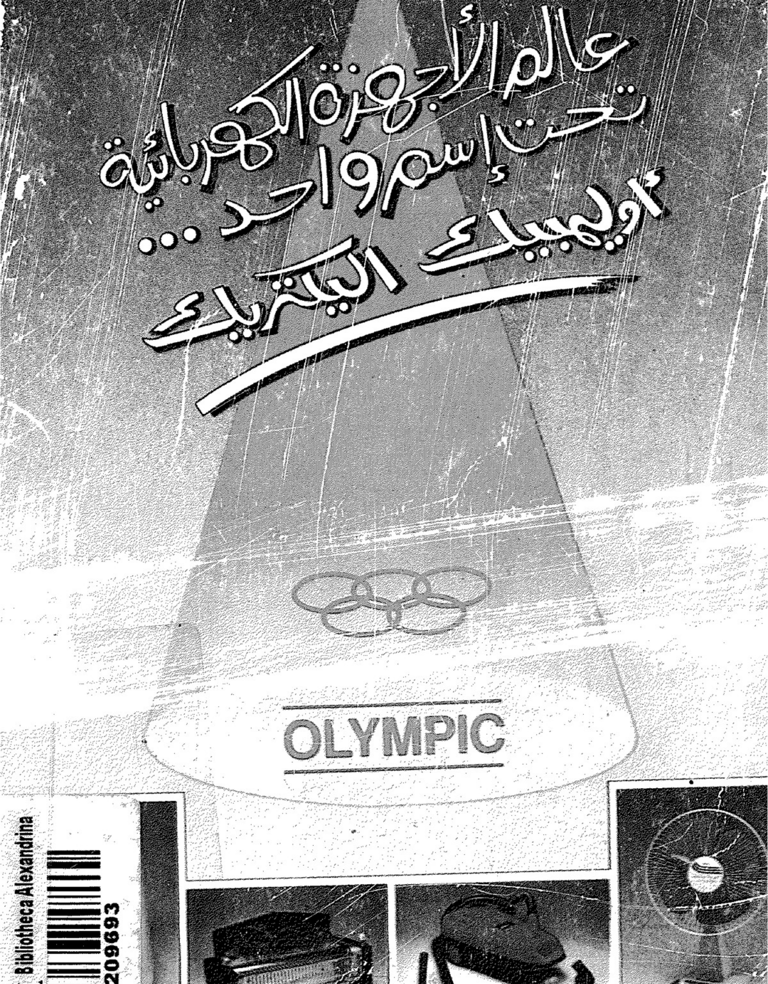
« أولنا ولد »

صياغة جديدة فى الرواية المصرية ، وعالم مزخوم بالأشخاص والأحداث ، وبناء أدبى هندسى استمده المؤلف ، خيرى شلبى ، من اعجابه الشديد بالعمارة الاسلامية فى المساجد والتكايا والمعابد والاسبلة والمنازل ، وهو من الاتقان الى حد الاختفاء تماما ، خلف بساطة ممتعة وشائقة بايقاع روائى متدفق وغزير ، يقدر على استيعابها كاملة كل من يستطيع فك الخط .

وفى الوقت نفسه فان القارىء المتذوق المتعمق سوف يجد فى بنائها الداخلى الكامن أبعادا وأعماقا لا نهاية لها ، فاذا كانت تتخذ طرائق المعمار العربى فانها ترتبط أوثق ارتباط بجسر خفى مع الحضارة الفرعونية القديمة سوف يتكشف لكل قارىء مدقق .

« أولنا ولد »

وثيقة أدبية لمن يبحث عن المتعة فى الخيال والواقع .


عالم الأجهزة الكهربائية
تحت إسم واحد...
أوليمبيك اليكتريك
OLYMPIC
Bibliotheca Alexandrina
02099693